كلمة الافتتاح

الأستاذ عبد القادر المهيري
رئيس الجامعة

يشرّفني أن أفتتح هذا الملتقى العلمي الذي يلتئم بمناسبة مرور ثلاثين سنة ع ى تأسيس مجلة «حوليات الجامعة التونسية» التي ظهر أول أعدادها سنة 1964.

ويطيب لي أن أحيّيكم وأحيّي الضيوف الباحثين الذين استجابوا لدعوة هيئة المجلّة فشرّفونا بحضورهم إلى بلادنا ومساهمتهم ببحوثهم العلمية، لقد جاؤوا من الأردن وألمانيا والامارات والجزائر ورومانيا والسعودية وسوريا والكويت ومصر والمغرب واليمن.

فمرحبا بهم وشكرا لهم وإقامة مريحة لهم بيننا.

وأحيّي زملائي الباحثين التّونسيين وأعبّر لهم عن عبارات التّقدير لما سيساهمون به من بحوث وتدخلات في وقائع هذا الملتقى.

عندما صدرت الحوليات سنة 1964 كانت مجلة علميّة أخرى خاصة بالعلوم الإنسانيّة تصدر بإشراف الجامعة التّونسية، ولكن نشأتها سابقة لتأسيس هذه الجامعة إذ يرجع عهدها إلى بعيد الحرب العالمية الثانية عندما بعث معهد الدراسات العليا فرعا لجامعة الصربون؛ لذا يمكن اعتبار

الحوليات أوّل مجلة بحث علمي بعثتها الجامعة التونسية الفتيّة ؛ لقد مضى على إنشائها ثلاثون سنة وهي مدّة قصيرة في عمر الجامعات لكنها فترة طويلة نسبيا في عمر المجلات بالبلاد الحديثة العهد بالتعليم الجامعي وهي فترة طويلة إذا ما أخذ بعين الاعتبار ما تقتضيه من استمرار في الصدور وتوفير للمادة الجديرة بالنّشر.

ثلاثون سنة هي معدّل ما يقضيه الاستاذ الجامعي في التدريس والإشراف على التكوين بعد أن يكون قد هيّأ نفسه لذلك واستوفى الشروط العلمية اللاّزمة ؛ احتفالنا اليوم بانقضاء هذه المدة يعبّر عن اعتزازنا بما أنجزته المجلة وايماننا بدوام دورها واستمرار رسالتها في خدمة البحث العلمي في مجال الأدب واللغة والحضارة العربية وبقائها دورية ذات مكانة معترف بها تساعد الباحثين على نشر مقالاتهم.

إنّ الذين كان لهم دور حاسم في إنشاء «الحوليات» هم من حسن الحظّ بيننا وأخصّ بالذكر منهم الاستاذ الدكتور أحمد عبد السلام وقد كان رئيسا للجامعة التونسية يوم صدرت المجلة فكان أول مدير مسؤول لها والأستاذ الدكتور الشاذلي بويحيى وقد كان أول رئيس تحرير لها ومازال ينشط في لجنة تحريرها، وإنّي أوجّه لهم تحية خاصّة ملؤها التّقدير والاحترام.

ولا يفوتني أن أشكر كلّ الذين وثقوا بمجلّتنا فبعثوا إليها ببحوثهم من تونسيين وغير تونسيين.

وفي الأخير أتوجّه بعبارات الثّناء إلى الهيئة التي تعمل منذ سنة لإعداد هذا الملتقى وعلى رأسها الزميل والصديق محمد الهادي الطرابلسي عميد كلية الآداب وعضو هيئة تحرير المجلة.

نرجو لملتقانا النّجاح والتوفيق كما نرجو أن يكون بداية مرحلة جديدة في حياة «حوليات الجامعة التونسية».

كلمة التّنظيم في ملتقى الحوليات

الأستاذ محمّد الهادي الطّرابلسي
عميد كلية الآداب منوبة
رئيس تحرير مجلة حوليات
الجامعة التونسية

الأستاذ عبد القادر المهيري رئيس الجامعة
ضيوفنا الكرام
أيّها الزملاء والطلبة

يشرفني - باسمي الخاصّ وباسم أسرة كلّية الآداب منوبة - أن أحييكم، وأرحّب بكم، وأشكركم على تلبية الدعوة والحضور لمشاركتنا هذا المهرجان العلمي الذي تنظّمه هيئة حوليات الجامعة التونسية بمناسبة مرور ثلاثين سنة على تأسيس مجلّتها.

ويطيب لي في مستهلّ أشغال النّدوة أن أشكر فضل مؤسّسي المجلّة وعلى رأسهم الاستاذان الكبيران أحمد عبد السلام والشاذلي بويحي، كما يطيب لي أن أنوّه بالجهد الذي بذلته هيئة الحوليات منذ تأسيس المجلّة في قراءة البحوث، وإعداد نصوصها للطبع، والحرص على انتظام صدور أعدادها، والسّهر على رفعة المستوى العلمي في مقالاتها.

ويسرّني بهذه المناسبة أن أحيّي جميع من نشر بحثا في الحوليات لأنّ مساهمات الباحثين كانت هي اللّبنات العلمية في هذا الصرح المشيّد،

وأتوجّه بالشكر إلى الباحثين الذين لبّوا دعوة هيئة المجلّة للمشاركة في الملتقى بالبحث وأخصّ بالذكر زميلاتنا وزملاءنا من الجامعات العربية والأجنبية الذين تكبّدوا مشاقّ السّفر وعناء البحث وأبوا إلاّ أن يشاركوا في أعمالنا.

وأتوجّه بالشكر أيضا الى الأستاذ عبد القادر المهيري رئيس جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية على تبنّي الجامعة مشروع الملتقى ودعمها له وحرصها على حسن سيره ونجاحه.

وإنّي لشاكر أيضا فضل اللجنة الوطنية للتّربية والعلم والثقافة وعلى رأسها الأستاذ منجي الشملي على الجهد الذي بذله ليجعل الملتقى يحظى بالدعم المادّي والأدبي من منظّمة اليونسكو الدولية.

وأشكر فضل كلّ من ساهم من قريب أو بعيد في إعداد الملتقى من أساتذة، وموظفين، وعملة، وأخصّ بالذكر والشّكر كاتب كلية الآداب منوبة السيد محمد صالح القادري المشرف على مصلحة النّشر والتبادل الذي تحمّس للملتقى تحمّسه لخدمة الكلّية منذ أن عمل بها ولمجلة الحوليات ذاتها فقد كان له الدور الفعّال في الإعداد والتنظيم والمتابعة.

أمّا أشغال الملتقى فقد وزّعناها على ستّ حصص بمعدّل جلستين متزامنتين في كلّ حصّة وقسّمنا كل جلسة الى قسمين قسم العرض وقسم النقاش، تعرض نتائج البحوث متتالية في القسم الأوّل فيما لا يزيد عن عشرين دقيقة لكلّ باحث ثم بعد الاستراحة بخمس عشرة دقيقة تعقد جلسة بساعة ونصف للمناقشة والردّ.

وأدعو الزملاء الأساتذة الذين ستعاقبون على رئاسة جلسات العمل أن يحرصوا كلّ الحرص على احترام الوقت حتّى لا يتجاوز العرض عشرين دقيقة ويبقى للنقاش الحدّ الأدنى من الوقت المناسب.

وفي الختام، أجدّد لكم جميعا التحية والشّكر

والسلام.

العلاقات بين الألسن ومستوياتها في التراث العربي

بقلم : **الطيب البكوش**

- إنّ موضوع التعدد اللساني من المواضيع التي تطوّر البحث فيها في اللسانيات العامة الحديثة تطوّرا سريع النسق من حيث هو بحث لساني صرف أو من حيث علاقاته بالمباحث الاجتماعية وحتى النفسية.

- ومن هذه المباحث ما هو عام مثل :

* مبحث اللسانيات الوراثية الذي طوّر مبحث أنساب الألسن وهو مبحث ساد القرن الماضي.

* ومبحث أنماطية الألسن وقد طوّر بدوره المنهج المقارن الذي ميّز لسانيات القرن الماضي بخدمته مبحث ضبط الأنساب اللسانية.

* ومبحث تداخل الألسن الذي يهتم بالدخيل عامة وكذلك بامتزاج الأنظمة امتزاجا بجميع أحوال الامتزاج من الرطانة[1] بأنواعها الى تأليف القوانين كالهجين[2] والكرولية[3] والسبير[4].

---

(1) Switching وهو الخلط والمراوحة في الاستعمال بين نظامين لسانيين.

(2) Pidgin وهو شكل من الامتزاج يبلغ حدّ النظام المكتمل.

(3) Créole وهو شكل من الامتزاج يبلغ حدّ لسان طبيعي لمجموعة ما.

(4) Sabir وهو شكل من الامتزاج ما زال نظامه محدودا لا يكوّن لسانا مكتملا.
انظر في تحديد هذه المصطلحات الأربعة وما يتفرع عنها بالعربية :
الطيب البكوش وصالح الماجري، «في اشكالية ضبط الجهاز الإصطلاحي اللساني».
مجلة اللسانيات بتونس عدد 1، 1995، ص 9 ـ 20.

- ومنها ما هو عملي تطبيقي مثل :

* اللسانيات التفارقية[5] التي تقارن أنظمة الألسن لغايات تعليمية تربوية.

*وتعليم الألسن لغير الناطقين بها.

- وقد تطوّرت جميع هذه المباحث الحديثة أساسا انطلاقا من المقارنية[6] وامتدادها - اللسانيات التاريخية. (في النصف الثاني من ق. 19) مع النحاة المحدثين[7] واعتمادا على مناهج اللسانيات العامة بمختلف مدارسها في القرن العشرين. وإن مبدأ المقارنة، إن لم يكن مجرّدا، ينطلق عادة من واقع تعدّدي.

فإذا أخذنا المنطقة العربية موضوعا لدرس ظاهرة التعدد اللساني لاحظنا أنها احتكت منذ القدم بأقوام يتكلمون ألسنا مختلفة جدّا :

* سامية بالخصوص (عبرية، آرامية، سريانية ...).

* هندو أوروبية (سنسكريتية، فارسية، رومية ...).

* حامية (لغات إفريقية : الحبشة، مصر القديمة ...).

هذا فضلا عن تعدّد اللغات العربية ذاتها واختلاف لهجاتها.

فهل نجد في التراث العربي صدى لهذا الاتصال والتعدد ولتأثيره في العربية ؟

نتناول المسألة من ثلاثة جوانب أو محاور متكاملة :

---

(5) Linguistique contrastive.

(6) Comparatisme.

(7) Néogrammairiens.

- تعدد الألسن.
- تعدد «اللغات» أي اللهجات.
- تعدد المستويات (في صلب نفس اللسان).

1 - تعدد الألسن :

إن ما نجده في التراث العربي مما يتصل بهذا المحور يمكن أن نفصّله الى المسائل الثلاث التالية :

* تعدّد الألسن واختلافها والمفاضلة بينها.
* ازدواج اللسان، وهو يشمل تعلّم الأعاجم العربية وتعلّم العرب الألسن الأعجمية وقضية الترجمة والمترجمين.
* الدخيل والتعريب.

1 - 1 - فيما يخص المسألة الأولى نلاحظ أن كتب التراث قد تضمّنت إشاراتٍ عديدةً مفرقة محورها المقارنة والمفاضلة باعتماد بعض المقاييس من أهمها :

* مقياس القدَم.

وقد اعتمده ابن حزم في كتابه «الإحكام في أصول الأحكام» حيث يعتبر أن السريانية والعبرانية والعربية من أصل واحد ويرجّح أسبقية السريانية دون أن يبت في الأمر يقيناً[8].

* مقياس البساطة والتعقيد.

يعتمد ابن حزم هذا المقياس موازيا بين القدم واليُسر فيقول : «إنّا نقطع على أنّها [أي أقدم لغة] أتمّ اللغات كلّها وأبينُهاعبارةً وأقلُّها إشكالا وأشدُّها اختصارا»[9].

---

(8) ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، تح. أحمد شاكر، مطبعة الإمام بمصر، د.ت.ج. I، ص.30 - 31.

(9) ن. م. ص 30.

يتضح لنا أن هذا الحكم القاطع يستند الى النظرية الفلسفية القائلة بمبدإ الفساد الذي يشمل كذلك اللسان، فاللغات الفروع إذن لا تكون إلاّ دون الأصل. كما أن لهذا الحكم بعدا دينيا إذ يعتبر اللغة الأولى ذات المصدر الإلاهي ضمنيا، أكمل وأشمل.

وقد سبق للجاحظ أن استعمل نفس المقياس دون اعتبار فلسفي أو ديني مكتفيا بالتجربة الحسية الارتسامية ملاحظا «ان الرجل يتنخّس في بيع الزنج وابتياعهم شهرا واحدا فيتكلّم بعامّة كلامهم، ويُبايع الخوز ويجاوِرُهم زمانا فلا يتعلق منهم بطائل»[15] هذه الملاحظة الهامة عند الجاحظ تثير ضمنيا - بالإضافة الى قضية بساطة بعض الألسن أو تعقدها مقارنةً بغيرها - قضية لسانية هامة تتعلق بالنمطية[11] التي تقارن اللّغاتُ طبقا لمنهجها لا على أساس الانتماء العائلي والأنساب عامة، وإنما بالخصوص على أساس أوجه الاختلاف أو الائتلاف البنيوي. فكلما كان التباعد البنيوي بين لسانين كبيرا كان التمكن من الثاني على المتعلم أعسر وأبعد منالا والعكس بالعكس.

وإن ما نجده ضمنيا عند الجاحظ، نعثر عليه صريحا عند أبي الريحان البيروني الذي اعتمد نفس المقياس فبنى حُكمَه بصعوبة لغة الهند على اعتبار موضوعي هو اختلاف نظامها في جميع مستويات اللسان[12].

* مقياس الايجاز :

وهو مقياس اعتمده الكثيرون في تفضيل العربية على غيرها كما فعل ابن خلدون الذي يعتبر اللسان العربي «أوجزَ وأقلَّ ألفاظا وعبارة

---

(10) الجاحظ، كتاب الحيوان، تح. عبد السلام هارون، بيروت 1969، ط 3 ج.5 ص.289.

(11) Typologie.

(12) البيروني، في تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أم مرذولة. ط. الهند 1958، ص 143.

من جميع الألسن».[13] لكن مثل هذا الحكم المطلق يعتمد الانطباع والظن أكثر مما يعتمد البرهان.

وإن اعتماد هذه المقاييس الثلاثة إنما يهدف في نهاية الأمر الى المفاضلة بين الألسن حيث تفترق السبل :

فجل كتب التراث تنتهي الى تفضيل العربية على غيرها من الألسن، وفي ذلك يُستعمل مقياس آخرُ أيضا ولكن لدعم الرأي ونقيضه. فإذا كان البعض يعتبر اللسان العربي أفضل لأنه لسان القرآن، فإنّ ابن حزم يرى رأيا مخالفا بحجج نصّية كذلك، معتبرا الرأي الآخر توهّما، «لا معنى له». ويختم بحجة لسانية صوتية فيقول : «وحروف الهجاء واحدة لا تفاضل بينها ولا قبح ولا حسن في بعضها دون بعض، وهي تلك بأعيانها في كل لغة فبطلت هذه الدعاوي الزائغة الهجينة».[14].

ـ ويقترب موقف الجاحظ منه حين يعتبر في كتاب الحيوان أن كل إنسان فصيح بلسانه، فيقول : «والإنسان فصيح وإن عبّر عن نفسه بالفارسية أو بالهندية أو بالرومية. وليس العربي أسوأ فهما لطمطمة الرومي من الرومي لبيان لسان العربي. فكل إنسان من هذا الوجه يقال له فصيح».[15].

1 ـ 2 ـ أما فيما يخص المسألة الثانية أي ازدواج اللسان وتعليم الألسن والترجمة فإن الموقف السائد في ذلك هو صعوبة الحصول على ملكتين متكافئتين ان لم نقل باستحالته، ذلك «ان الملكة اذا سبقتها ملكة

---

(13) ابن خلدون، المقدمة، ط. المكتبة التجارية، مصر، د.ت. ص. 556.

(14) الإحكام ـ ج.1، ص 33.

(15) الحيوان ج.1 ـ ص.32.

أخرى في المحل، فلا تحصل إلا ناقصة مخدوشة»[16] كما يقول ابن خلدون. ويذهب الجاحظ نفس المذهب حين يقول: «واللغتان اذا التقتا في اللسان الواحد أدخلت كلّ واحدة منهما الضيم على صاحبتها»[17] ولكنه يستثني موسى بن سيار الأسواري الذي يشرح القرآن للعرب على يمينه وللفرس على يساره بنفس المقدرة معتبرا إياه من أعاجيب الدنيا[18].

- ولئن لم يشر أحد فيما نعلم صراحة الى احتمال حصول ملكتين بالمربى والنشأة فاننا نعثر على ما يجعلنا نستنتج أن أقواما من العرب قد عاشوا هذه التجربة في مناطق معينة من بلاد الأندلس في ظرف معين، اذ يذكر ابن حزم في كتابه جمهرة الانساب في معرض حديثه عن دار بَلِي «الموضع المعروف بشمال قرطبة، وهم هنالك الى اليوم على أنسابهم لا يحسنون اللطينية، لكن بالعربية فقط»[19] هذه الملاحظة تدل على أنه وضع شاذ وأن القاعدة السائدة في عصره هي الازدواجية اللسانية، وكأن ابن حزم يستغرب ذلك منهم.

- وتتصل بهذه المسألة قضية الترجمة التي بسط فيها الجاحظ رأيه في الحيوان معتبرا «ان الترجمان لا يؤدي أبدا ما قال الحكيم»[20]. ويعدّد الجاحظ في فقرة شهيرة شروط الترجمة كما يراها[21].

---

(16) المقدمة. ص.564.

(17) البيان والتبيين. ج.1 - ص. 284.

(18) ن.م ص 7.

(19) ابن حزم. جمهرة الانساب. تح. عبد السلام هارون. ط.3 - ص 443.

(20) الحيوان - ج.1 - ص.75.

(21) ن.م.ص. 77.

- وإن الضيم الذي يدخلُ على اللغات اذا التقت في نفس اللسان انما تكون نتيجته مظاهر من التداخل اعتُبر البعض منها لحنا واعتُبر البعض الآخر، ولا سيما الألفاظ، دخيلا ومعرّبا.

1 ـ 3 ـ المعرب والدخيل :

رغم الاختلاف الحاصل حول منزلة الدخيل في العربية وفي القرآن، فإنّ الموقف السائد هو الإقرار بوجوده، لكن باعتبار ما قيس منه على كلام العرب من كلام العرب كما يقول ابن جني[22].

وإذا كان الجواليقي (ق. 5 ـ 6 هـ) مؤلف أول كتاب في الدخيل[23] قد اقتصر على ما دخل العربية من الألفاظ الأعجمية، فان الخفاجي الذي تلاه (ق. 10 هـ)[24] قد أقحم مع المعربات الألفاظ المولّدة، التي تشمل تعريب المدلولات بدوالّ عربية كما تشمل المحدثات العربية وكذلك الصيغ العربية التي تغيرت باللحن والتصحيف نتيجة تطوّر النطق العربي عبر العصور، وهو مفهوم واسع للدخيل يجعله أشمل من المعرّب.

ونجد في كتاب المزهر للسيوطي، تلخيصا لهذه القضايا ولموقف العرب منها عموما من خلال كتب التراث[25].

ولم يخل موقف اللغويين العرب في هذه القضايا من التناقض أحيانا، فاذا كان الموقف السائد هو اعتبار المولّد والمحدث شبيها بالدخيل

---

(22) ابن جني ـ الخصائص، تح. محمد علي النجار دار الهدى، بيروت، د.ت. 1 ص 357.

(23) الجواليقي، المعرب من الكلام الأعجمي، تح. أحمد محمد شاكر، ط.2، دار الكتب، مصر 1969.

(24) شهاب الدين الخفاجي، شفاء الغليل في ما في كلام العرب من الدخيل، المطبعة الوهبية 1288 هـ.

(25) جلال الدين السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، دار إحياء الكتب العربية، 1958، ط.4، ج.1 ص. 266 و275 ـ 292.

على لغة العرب، أخذا بعين الاعتبار مقاييس الفصاحة التي حصل حولها ما يشبه الإجماع، فان الاستثناء يحصل عندما تتضارب المقاييس. من ذلك أن المحدث المستهجن مبدئيا، يصبح عنوان فصاحة عندما يُنسب الى الرسول كما ورد في أكثر من سياق في المزهر مثلا[26].

وان من الهام تحليل الأمثلة المختلفة التي أوردتها كتب اللغة لأنها تمثل مدوّنة طريفة لجزء هام من الرصيد اللغوي العربي هضمت العربية على مرّ العصور الكثير منه وأقحمته في نظامها بشكل لم يعد يسمح باعتباره هامشيا. ولا يخفى ما للغة المعارف والعلوم من دور أساسي في ذلك.

2 ـ تعدد اللغات :

إن مفهوم التعدد لا يقتصر على تعدد الألسن، بل يتعداه الى اللغات[27] في صلب نفس اللسان، وهي قضية معقدة متشعبة تتفرع عنها مسائل عديدة متشابكة من أهمها :

* اختلاف اللهجات العربية والمفاضلة بينها.
* أثر الاختلاف في جمع اللغة.
* الاختلاف وثنائية السماع والقياس.

2 ـ 1 ـ ينطلق ابن جني في الخصائص من موقف مبدئي نظري عام، فلا يفاضل بين اللهجات العربية وانما يعتبرها جميعا حجة عملا بالحديث النبوي «نزل القرآن بسبع لغات كلها كاف شاف». وهو يعتبر ان سعة القياس تبيح لهم ذلك ولا تحظره عليهم»[28].

(26) ن.م. ـ ص. 209 و302.

(27) نستعمل هنا «لغات» بمعنى «لهجات» بالمفهوم العربي القديم لكثرة استعمالها قديما بهذا المعنى ولأن محور دراستنا هو التراث اللغوي القديم.

(28) ابن جني، الخصائص، ج.2 ـ ص. 10.

لكنه يفاضل اذا لم تستو اللغات في الاستعمال والقياس «فأما إن يقلّ إحداهما جدًا وتكثر الأخرى جدًا فانك تأخذ بأوسعهما رواية وأقواهما قياسا»[29].

أما اللغات المتميزة ببعض الصفات مثل «عنعنة تميم وكشكشة ربيعة وكسكسة هوازن وتضجّع قيس وعجرفية ضبّة وقلقلة بهراء»[30]. «فيجب ان يقل استعمالها وأن يتخيّر ما هو أقوى وأشيع منها، الا أن إنسانا لو استعملها لم يكن مخْطئا لكلام العرب لكنه كان يكون مخطئا لأجود اللغتين، فأما إن احتاج الى ذلك في شعر أوسجع فانه مقبول منه، غير منعيّ عليه»[31]. ويعمّم ابن جني هذا الحكم فيقول في نفس السياق «وكيف تصرّفت الحال فالناطق على قياس لغة من لغات العرب مصيب غير مخطئ وإن كان غيرُ ما جاء به خيرا منه». ويكتفي ابن جني في هذا السياق بالنقل عن ثعلب في تفضيل لهجة قريش في الفصاحة على سائر اللهجات العربيّة.

- ويطرح ابن عبد ربه في العقد الفريد نفس هذا الإشكال ولكنه يُقحم هذه الخصوصيات اللهجية في ما يعتبره من «آفات المنطق»[32] فيخلطها بعيوب النطق الفردية مثل الحُبسة والعُقلة واللكنة وغيرها. وقد

---

(29) ن.م.

(30) ن.م. - ص. 11.

(31) ن.م - ص. 12.

(32) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ط. دار الكتاب العربي، بيروت 1982، ج.2 - ص. 475 - 478.

وردت أيضا في سياق يُخبر عن فضل قريش في الفصاحة إذ «ارتفعت» عن هذه الصفات.

أما ابن خلدون فانه يتجاوز هذه الاعتبارات الذوقية الذاتية ويقيم المفاضلة على أساس موضوعي جغرافي، هو البعد أو القرب من الأعاجم كماسنرى فيما بعد. ومهما تكن المنطلقات في هذه المفاضلات فإنها ترجع بالأسس في نهاية الأمر الى الاعتبار الديني وموقع النص القرآني من لغات العرب وتعدد قراءاته. لكن هذا المشغل الرئيسي قد تفرع عنه مشغل ثان أساسي هومنهج جمع اللغة.

- 2 ـ 2 ـ إن أدق ما نجده في هذا المضمار يرجع الى ابن جنّي ولا سيما في الخصائص، وعنه نقل الكثيرون مثل السيوطي في المزهر وغيره.

فهو يعتبر أنه إذا اجتمع في أحد استعمالان أو أكثر، فلا يستبعد ان يكون «استفاد» كل واحد منهما «من قبيلة أخرى، فلحقت لطول المدة واتصال استعمالها بلغته الأولى»[33]. والذي يميل إليه الناطق ليس دائما الأقوى في القياس لأن العرب «قد يتكلمون بما غيرهُ عندهم أقوى منه، وذلك لاستخفافهم الأضعف»[34]. ويعتبر أن «ما اجْتمعت فيه لغتان أو ثلاث أكثر من أن يحاط به»[35]. فلا يستبعدُ ابن جني أن تكون القبيلة الواحدة قد تواضعت في المعنى الواحد على أكثر من لفظ، ولكنه يميل الى الاعتقاد في أغلب الأحوال بأنه «كلما كثرت الألفاظ على المعنى الواحد كان ذلك أولى بأن تكون لغات لجماعات، اجتمعت لانسان واحد من هنا

---

(33) ابن جني، الخصائص، ج.1، ص. 372.

(34) ن.م. ص. 373. حيث يقدم ابن جني مثال قراءة الآية «ولا الليلُ سابقُ النهارَ».

(35) ن.م ـ ص. 372.

ومن هنا ... وهكذا تتداخل اللغات.[36]. وانطلاقا من هذه المواقف، يفسّر ابن جنّي الحالات الشاذة الخارجة عن القياس وهي كثيرة مثل متّ تَمُوت... .واعلم أن أكثر ذلك وعامّته إنما هو لغات تداخلت فتركبت.[37]. ويعلل هذه الظاهرة بقوله .واعلم أن العرب تختلف أحوالها في تلقي الواحد منها لغة غيره، فمنهم من يخف ويسرع إلى قبول ما يسمعه، ومنهم من يستعصم فيقيم على لغته البتّة ومنهم من اذا طال تكرر لغة غيره عليه لصقت به.[38].

2 ـ 3 ـ وحتى لا تدخل الفوضى في الاستعمال، يحاول ابن جني تقنين الظاهرة بالاعتماد على تكامل السماع والقياس : .... لم نقطع على الفصيح يُسمَع منه ما يخالف الجمهور بالخطأ ... اذا كان القياس يعاضده، فان لم يكن القياس مسوّغا له ... فينبغي أن يُردّ وذلك لأنه جاء مخالفا للقياس والسماع جميعا، فلم يبق له عصمة تضيفه ولا مُسكة تجمع شعاعه.[39]. رغم أنه لا يستبعد من الناطق .أن يكون مصيبا في ذلك لغة قديمة.[40] كقول قضاعة جميعا حسب الكسائي : .مررتُ بَهْ. والمالُ لهْ.[40].

2 ـ 4 ـ بيد أن تعدد اللهجات العربية واختلافها يطرح قضية نظرية هامة جدّا من المنظور اللساني العام : هل يجب أن نعتبر هذا التعدد وهذا الاختلاف في اللهجات العربية تعدد ألسن أم تعدد مستويات من نفس اللسان ؟

---

(36) ن.م ـ ص. 374.

(37) ن.م ـ ص. 375.

(38) ن.م ـ ص 383.

(39) ن.م ـ ص. 387.

(40) ن.م ـ ص. 390.

(40) ن.م.

لم يتناول هذه القضية أحد من العرب بنفس الوضوح الذي تناولها به ابن خلدون في المقدمة رغم أننا نجد عند غيره إشارات مهمة مثل قول ابن حزم في الإحكام «ونحن نجد العامة قد بدّلت الالفاظ في اللغة العربية تبديلا وهو في البعد عن أصل تلك الكلمة كلغة أخرى ولا فرق»[41]. لكن مثل هذه الملاحظات تكتفي بالالفاظ المفردة ولا ترتقي الى الحكم على النظام بأكمله كما فعل ابن خلدون في المقدمة حيث يؤكد في مواطن عدة أن الأمر يتعلق بلغات لا بلغة واحدة، وهو يستعمل «لغة» بمعنى «اللسان» لا مجرد لهجة : فابن خلدون يقيم مقارنة بين اللغة العربية القرآنية، لغة مضر، من حيث علاقتها بما هو أقدم منها وهي الحميرية، وبعربية عصره بنوعيها البدوي الذي يسميه «لغة أهل الجيل» والحضري التي يسميه «لغة الأمصار».

وقد حلل هذه الظاهرة بإطناب في الباب السادس، من الفصل 38 الى 40.

ويخرج ابن خلدون من هذه المقارنات بالاستنتاجات الهامة التالية :

* «إنّ لغة العرب لهذا العهد مستقلة مغايرة للغة مضر وحمير». ولكن وجه الاختلاف الرئيسي هو أنه «لم يُفقد منها الاّ دلالةُ الحركات ... فاعتاضوا منها بالتقديم والتأخير وبقرائن تدل على خصوصيات المقاصد»[42] ويخالف ابن خلدون في ذلك النحاة بل يسخر منهم : «ولا تلتفتن في ذلك الى خرفشة النحاة أهل صناعة الإعراب القاصرة مداركهم عن التحقيق حيث يزعُمون أن البلاغة لهذا العهد ذهبت وان اللسان العربي فسد اعتبارا بما وقع في أواخر الكلم من فساد الإعراب الذي يتدارسون قوانينه، وهي مقالة دسّها التشيع في طباعهم وألقاها القصور في

---

(41) ابن حزم، الإحكام، ج.1 ـ ص. 30.

(42) ابن خلدون، المقدمة ص. 555.

أفئدتهم ... ولم يُفقد من أحوال اللسان المدوّن الاحركات الإعراب في أواخر الكلم فقط ... وهو الإعراب، وهو بعض من أحكام اللسان»[43]. ويعلل ابن خلدون هذه العناية بالاعراب بقوله : «وإنما وقعت العناية بلسان مضر لمّا فسد بمخالطتهم الأعاجم حين استولوا على ممالك العراق والشام ومصر والمغرب، وصارت ملكته على غير الصورة التي كانت أولا، فانقلب لغة أخرى»[44].

هذه اللغة الأخرى لها إذن قوانينها الخاصة التي لم يُحتج الى استنباطها كما احتيج الى استنباط قواعد لغة مضر بتأثير الدين لأن اللغة نظام ولا يمكن أن تكون فوضى : «ولعلنا لو اعتنينا بهذا اللسان العربي لهذا العهد واستقرينا أحكامه نعتاض عن الحركات الإعرابية في دلالتها بأمور أخرى موجودة فيه تكون بها قوانين تخصها. ولعلها تكون في أواخره على غير المنهاج الأول في لغة مضر، فليست اللغات وملكاتها مجانا»[45].

وعلى نفس هذا الأساس قاس ابن خلدون علاقة لغة مضر بلغة حمير.

* ومثلما قارن ابن خلدون لغة العرب البدو لعهده بلغة مضر، قارن أيضا «لغة أهل الحضر والأمصار» بلغة مضر ووصل الى نفس النتيجة مؤكدا «أن عرف التخاطب في الأمصار وبين الحضر ليس بلغة مضر القديمة ولا بلغة أهل الجيل بل هي لغة أخرى قائمة بنفسها ... وهي عن لغة مضر أبعد»[46]. فما يوجد فيها من «تغاير» «يُعدّ عند صناعة أهل

---

(43) ابن خلدون، المقدمة ص. 556.

(44) ن.م.

(45) ن.م - ص.557.

(46) ن.م - ص 558.

النحو لحنا»[46] لا يعتبره ابن خلدون نقيصة رغم الاختلاف الموجود بين لهجات المشرق والمغرب والأندلس، لأن كلا منهم «متوصل بلغته الى تأدية مقصوده والإبانة عما في نفسه، وهذا معنى اللسان واللغة. وفقدان الإعراب ليس بضائر لهم»[46].

كما أن الذين اختلطوا بالأعاجم حتى غلبت العجمة على لسانهم العربي، قد صارت لغتهم «لغة أخرى ممتزجة والعجمة فيها أغلب»[46].

والنتيجة التي نخرج بها من مثل هذه الملاحظات الهامّة هي أن الخط الفاصل بين تعدد الألسن وتعدد المستويات ليس دائما بيّنا، لأن تعدد المستويات يمكن أن يؤول مع مرّ الزمن الى تعدد ألسن من الناحية النظامية والنمطية. لذلك يكون من المفيد تحليل المقاربات العربية لتعدد المستويات في صلب نفس اللسان قبل أن يؤول الى تعدد ألسن بالمفهوم الخلدوني الذي يكاد يكون الوحيد المطابق للمفهوم اللساني الحديث.

3 ـ تعدد المستويات اللسانية :

إن التراث العربي زاخر بالمعلومات والملاحظات والنوادر المتصلة بتعدد المستويات اللسانية في العربية، وهي تدور حول جملة من المفاهيم المتقابلة أو المتقاطعة أحيانا من أهمها، ولعله محورها، مفهوم الفصاحة وما يحفّ به من مفاهيم مثل الإعراب والتصحيف والعجمة واللحن والغريب والعامي والمولّد والمُحدَث والمستعمل والمُهمل والمتروك وما إلى ذلك من المفاهيم الدالة على مستويات اللسان فضلا عن المقابلة بين المقول والمكتوب. (فقد سبق ان رأينا ان ابن خلدون يربط الإعراب أساسا باللسان المدوّن).

---

(46) ن.م ـ ص. 558.

(46) ن.م.

(46) ن.م

3 ـ 1 ـ ففيما يخص المقابلة بين القول والمكتوب، يذهب ابن عبد ربه في العقد على غرار جميع من اهتم بـ «أدب الكاتب» الى تمييز مستويات لسانية في المكتوب ولا سيما في المراسلات حسب طبقة المخاطب الاجتماعية، وهو ما ينم عن تفنن حضاري يتجسّم في بلورة نظام تعبيري جاهز هو بمثابة القانون الاجتماعي اللساني يمثل جزءا من قوانين السلوك عامة تلخصها عبارة «أدب الكاتب»[47].

* أما الجاحظ فقد أكّد في كتاب الحيوان على أهمية الكتابة تخليدا للآثار مهما كان شكلها وموضعها باعتبارها دلالة على المستوى الحضاري : «وليس في الأرض أمة بها طرق أولها مسكة، ولا جيل لهم قبض وبسط الاّ ولهم خط»[48]. ويقرّ الجاحظ أن لغة المكتوب يجب أن تتميّز عن لغة المقول و المشافهة، فالمكتوب في نظره «يحتاج من اللفظ الى مقدار يرتفع به عن ألفاظ السفلة والحشو، ويحطه من غريب الأعراب ووحشي الكلام»[49]. وذلك حتى يبلغ «إفهام معانيه». والداعي الى ذلك حسب الجاحظ «أن الناس كلهم قد تعوّدوا المبسوط من الكلام»[49].

وهذا هو معنى «البيان والتبيين» وأصل الفصاحة التي تبقى مفهوما محوريا في مجال المستويات اللسانية.

3 ـ 2 ـ إن مفهوم الفصاحة قد كُتب فيه الكثير، ورغم ذلك بقي في نظرنا ضبابي المعالم ولا تخلو الأحكام في شأنه من التناقض أحيانا. ويمكن أن نحلل مفهوم الفصاحة في مستويات عدة.

---

(47) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج.4، ص. 180 ...

(48) الجاحظ، كتاب الحيوان، ج.1، ص.71.

(49) ن.م.

(49) ن.م.

* مستوى اللسان في مقابلته بالألسن الأخرى.

* مستوى اللهجة في مقابلتها باللهجات المنتسبة الى نفس اللسان، وتندرج ضمنها مقابلة البدو والحضر.

* مستوى الخطاب الفردي في مقابلته بخطاب الغير.

* مستوى اللفظ المفرد في الجملة حيث تقابل الفصاحة اللحن، والعجمة والتوليد والإحداث والغريب والعامي، الخ.

هذه المستويات والمقابلات تقود بالضرورة الى ضبط مقاييس للفصاحة منها ما هو جغرافي مكاني وزماني ومنها ما هو ديني واجتماعي وثقافي ومنها أيضا ما هو لساني، مع تداخل أحيانا بين المقاييس.

ولكنني أركز هنا على قضية محورية هي فصاحة قريش.

يوجد شبه إجماع على اعتبار قريش أفصح العرب، بيد أن الحجج المقدّمة لدعم هذا الحكم لا تخلو أحيانا من الاضطراب من أثر الى آخر، وكثيرا ما يقدم هذا الحكم في شكل مسلّمة لا في شكل أمر يتطلّب البرهان. وقد شخّص ابن خلدون الموضوع بتقديم حجة جغرافية تتمثل في البعد عن الأعاجم وذلك في قوله :

«كانت لغة قريش أفصح اللغات العربية وأصرحها لبعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم ثم من اكتنفهم من ثقيف وهذيل وخزاعة وبني كنانة وغطفان وبني أسد وبني تميم ...»[50] أما باقي القبائل فقد جاورت أمم الفرس والروم والحبشة «فلم تكن لغتهم تامة الملكة بمخالطة الأعاجم وعلى نسبة بعدهم من قريش كان الاحتجاج بلغاتهم في الصحة والفساد عند أهل صناعة العربية»[50].

(50) ابن خلدون، المقدمة، ص.555.

(50) ن.م

هذه الحجة غير كافية ان لم تكن غير مقنعة لان نشاط قريش تجاريا ودينيّا وأدبيّا يمثل عامل احتكاك لساني لا ريب فيه.

ولعلّ هذا ما جعل الفارابي، من قبل، يقدم نفس الحجة ولكن بمنطق داخلي أمتن، فهو يتحدث في كتاب الحروف عن الذين اشتغلوا بأمر العربية جمعا وتأليفا في القرن الثاني للهجرة في الكوفة والبصرة من أهل العراق فيقول: «فتعلموا لغتهم والفصيح منها من سكان البراري منهم دون أهل الحضر، ثم من سكان البراري من كان في أوسط بلادهم ومن أشدّهم توحشا وجفاء وأبعدهم إذعانا وانقيادا وهم قيس - وتميم - وأسد - وطئ - ثم هذيل. فإن هؤلاء هم معظم من نُقل عنه لسان العرب، والباقون فلم يؤخذ عنهم شيء لأنهم كانوا في أطراف بلادهم مخالطين لغيرهم من الأمم، مطبوعين على سرعة انقياد ألسنتهم لألفاظ سائر الأمم المُطيفة بهم من الحبشة والهند والفرس والسريانيين وأهل الشام ومصر»[51].

ولئن أقر الفارابي في سياق آخر بفصاحة قريش لأسباب دينية،فانه أخرجها من المقارنة حتى لا تختل حجته، فقريش من الحضر لا البدو ولذلك لم يذكر الا قبائل نجدبينما أضاف اليها ابن خلدون قبائل من الحجاز قريبة من قريش.

ولما كان الرسول قد نشأ أيضا في بني سعد بن بكر واسترضع فيهم فقد عدهم البعض ضمنيا أفصح العرب كما فعل أبو عمرو بن العلاء الذي نقل السيوطي قوله «أفصح العرب عُليا هوازن وسفلى تميم»[52] فوصل بهذه الجملة نجدا بالحجاز.

---

(51) الفارابي، كتاب الحروف، ص.138.

(52) السيوطي، المزهر، ج.1، ص.211.

ـ ولعل هذا التردد هو الذي جعل البعض الآخر يفسّر فصاحة قريش تفسيرا مغايرا، من ذلك ما أورده السيوطي رواية مفادها أن قريشا «مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات الى سلائقهم التي طبعوا عليها فصاروا بذلك أفصح العرب، ألا ترى أنك لا تجد في كلامهم عنعنة تميم ولا عجرفية قيس ولا كشكشة أسد ولا كسكسة ربيعة ولا كسر أسد وقيس»[53].

إنّ هذه الملاحظة الهامة تشير الى العوامل التي مهدت تاريخيا من قبل الاسلام الى ظهور ضرب من اللغة المؤلّفة الموحّدة التي بدأت ترتقي الى مستوى اللغة الأدبية وهي التي سارع الاسلام بتكريسها لغة شبه رسمية، يمكن وصفها بالعربية المشتركة[54].

أما المقارنة التي خُتمت بها هذه الملاحظة فان ما يلفت الانتباه فيها هو أولا أنّ هذه الصفات قد وردت في سياق عيوب وآفات في النطق وثانيا أن اللغات التي تتصف بها تنتمي في جلها الى اللغات المنتسبة الى الفصاحة.

وإنّ كل ذلك يجعل مفهوم الفصاحة ومقاييسها نسبية فضفاضة فلم تسلم أحيانا من الغموض والارتباك رغم الإحساس العميق بأن للفصاحة واقعا محسوسا قد يكون في حاجة الى مزيد الضّبط والتحديد بدراسة المدوّنة المعتمدة دراسة أشمل وأعمق.

---

(53) ن.م. ـ ص.209 ـ 210.

(54) وهو ما يقابل اللفظة اليونانية Koiné التي احتفظت بها اللسانيات الحديثة في جهازها الاصطلاحي للدلالة على المستوى اللساني المشترك بين لهجات مختلفة.

3 ـ 3 ـ ومهما يكن من أمر فإن الاعتبار الديني هو الذي طغى وجعل من المقابلة الجغرافية بين مركز وأطراف مقابلة نسبية جدّا سرعان ما تحولت بعد الإسلام الى مقابلة صريحة بين بؤاد من جهة وحواضر من جهة أخرى تدنت فيها درجات الفصاحة أكثر وبنسق أسرع. وقد آل هذا التحول في نهاية المطاف الى ظهور مقياس ليس مكانيا وانما هو زماني يضبط نهاية الفصاحة في الحواضر بالقرن الثاني للهجرة ونهاية الفصاحة في البوادي بالقرن الرابع للهجرة إيذانًا بانتهاء عصر الجمع والاحتجاج وباستقرار المنوال المقنّن الصالح لان يكون المرجع والمقياس للفصاحة التي تحولت من ملكة فطرة الى ملكة صناعة وتعلم.

ولذلك أصبحت كتب الأدب تفاضل بين المدن والأمصار في درجات الفصاحة فيروي الجاحظ في البيان والتبيين خبر المفاضلة بين أهل مكة وأهل البصرة أو أهل الكوفة وأهل البصرة. ونجد في هذه النوادر والأخبار الكثير من المعلومات اللسانية المفيدة عن الوضع اللساني في هذه الأمصار في العصرين الأموي والعباسي[55].

3 ـ 4 ـ الفصاحة والعجمة :

ويوجد شبه إجماع على أن آفة الفصاحة الرئيسية إنما هي العجمة وتأثر الملكة العربية الأصيلة بالملكات الدخيلة عليها مع الأعاجم الذين دخلوا الاسلام أفواجا، فتعلّموا العربية تعلّما فاختلطت بلسانهم الأول فأثرت فيه وتأثرت به. ونتج عن كثرة عددهم وشدة الاحتكاك بينهم وبين العرب تأثر العرب بهم وبلهجتهم ولا سيما في المدن.

وفي ذلك يقول ابن خلدون في المقدمة «فمن خالط العجم أكثر كانت لغته عن ذلك اللسان الأصلي أبعد (...) فعلى مقدار ما يسمعونه من

(55) انظر على سبيل المثال البيان والتبيين للجاحظ، ج.1، ص.32 ـ 33.

العجم ويربون عليه يبعدون عن الملكة الأولى (...) فغلبت العجمة (...) على اللسان العربي الذي كان لهم وصارت لغة أخرى ممتزجة والعجمة فيها أغلب لما ذكرنا»[56].

وإن كتب الأدب لمفعمة بالنوادر المتصلة بتأثير العجمة في اللّسان العربي أصواتا ومعجما وحتى تعابير فيقولون في من تأثر بالعجمة، فيه لكنة أو ارتضخ لكنة[57]. ولم يسلم من ذلك حتى كبار النحاة والفقهاء والعلماء من ذوي الأصل الأعجمي وحتى العربي.

3 ـ 5 ـ الفصاحة واللحن

ومن أبرز مظاهر العجمة، وقوع اللحن الذي لم يسلم منه لسان كبار القوم من المشاهير رغم تضلعهم في العربية لأن الكثير منهم أصبح كما يقول ابن خلدون «يحصل على علم اللسان صناعة ولا يحصل عليه ملكة»[58].

وانه لا يخلو كتاب أدب من ذكر أخبار اللحانين من خاصة القوم. ولئن كان ثمة إجماع على استهجان اللحن فان الجاحظ من الأوائل الذين ميزوا بين لحن قبيح ولحن مقبول.

فهو يقابل بين لحن المتقعّرين والأعراب ولحن الجواري : «اعلم أن أقبح اللحن لحن أصحاب التقعير والتقعيب والتشديق والتمطيط والجهورة والتضخم وأقبح من ذلك لحن الأعاريب النازلين على طرق السابلة وبقرب مجامع الأسواق ... واللحن من الجواري الظراف ومن الكواعب النواهد

---

(56) ابن خلدون، المقدمة، ص.558.

(57) انظر في ذلك على سبيل المثال البيان والتبيين للجاحظ، ج.2، ص.167.

(58) المقدمة، ص.561.

ومن الشـوابّ الملاح من ذوات الخدور الغرائر أيسر، وربما استملح الرجل ذلك منهن ما لم تكن الجارية صاحبة تكلف ولكن اذا كان اللحن على سجية سكان البلد»[59].

ويقابل في نفس السياق بين الإعراب واللحن فيجعل كلا منهما أفضل من الآخر في المقام المناسب، ويؤكد نفس الموقف في الحيوان[60].

وقد ألف كثيرون في اللحن فميّزوا بين لحن العوام (كالزبيدي) ولحن الخواص (كالحريري). وهذه الكتب ثرية بالمعلومات عن واقع العربية ومظاهر تطوّرها عبر العصور. ويذكر الجاحظ في هذا الصدد أن «أول لحن سُمع بالبادية : هذه عصاتي، وأول لحن سمع بالعراق : حَيّ على الفلاح»[61].

3 ـ 6 ـ الفصيح والعامّي :

ان أهمية الأخبار المتعلقة بمظاهر العجمة واللحن إنما تكمن بالخصوص في دلالتها على بداية تشكّل المستويات العامية في مقابل المستويات الفصيحة، حتى أن كلمة «عربية» بدأت تختص في الاستعمال بالمستوى الفصيح كما نتبين من قول ماسرجويه الطبيب مبرّرا لجوءه الى الإعراب في إجابته مريضا سأله بالإعراب «ولكنه كلّمني بالعربية فكلمته بالعربية»[62].

---

(59) الجاحظ، البيان والتبيين، ج.1، ص. 134.

(60) الجاحظ، الحيوان، ج.1، ص.282. ونجد نفس الموقف في العقد الفريد لابن عبد ربه، ج.2، ص.478.

(61) البيان، ج.2، ص.174.

(62) ن.م.

3 ـ 7 ـ الفصاحة والغريب

ولعل اللجوء الى الغريب يبدو في بعض الأحيان ردّ فعل على اللحن وعلى استعمال المستويات العامية لاظهار القدرة على التصرف في العربية وللتفاصح. ويروي الجاحظ الكثير من النوادر في هذا الشأن من أطرفها حواره مع أبي الحسن الأخفش الذي برّر له استغلاق كتبه بقوله: «أنا رجل لم أضع كتبي هذه لله، وليست هي من كتب الدين، ولو وضعتها هذا الوضع الذي تدعوني اليه [أي الوضوح]، قلّت حاجاتهم اليّ فيها، وإنما كانت غايتي المنالة، فأنا أضع بعضها هذا الوضع المفهوم لتدعوهم حلاوة ما فهموا الى التماس فهم ما لم يفهموا، وإنما كسبت في هذا التدبير، اذ كنت الى التكسب ذهبت ...»[63].

وبصفة عامة إذا كنا نجد تبريرا للحن واستطرافا له أحيانا فاننا نجد إجماعا على استهجان الغريب والتكلف الذي يجمعه الجاحظ في الوصلة التالية «أصحاب التقعير والتقعيب والتشديق والتمطيط والجهورة والتفخيم» كما رأينا. بيد أن مفهوم الغريب كما نستشفه من الكتب التي ألفت فيه أوسع من هذا بكثير ويشمل كل ما تقادم عهده من مستويات اللسان بالإضافة الى الاستعمالات الخاصة أو الفردية. ويتصل بالغريب المتروكُ، وهو ما خرج من الاستعمال لزوال معانيه[64].

3 ـ 8 ـ الفصاحة والتوليد أو الإحداث

وتُقابل الفصاحة عند البعض أيضا مفهوم التوليد والإحداث، فكل مولّد أو مُحدَث، لا يُعتدّ بفصاحته الى حدّ أنه أصبح يقال «هذه عربية وهذه مولّدة» حسب نقل السيوطي عن ديوان الأدب للفارابي[65].

---

(63) الحيوان، ج.1، ص.91.

(64) انظر في ذلك السيوطي في المزهر، ج.1، ص.296 و304 والجاحظ في الحيوان، ج.1، ص.327.

(65) المزهر، ج.1، ص.304.

والمُولّد يشمل المعجم بدوالّه ومدلولاته كما يشمل النظام التعبيري الذي كثيرا ما تورد كتب التراث أمثلة منه ضمن الأمثلة المعجمية كما فعل الجاحظ في الحيوان مثلا في سياق حديثه عن «كلمات إسلامية محدثة»[66].

والخلاصة أن التعدد ـ من حيث هو ظاهرة لسانية ـ لم يخل التراث اللساني العربي من وعي بها سواء أتعلق ذلك التعدد بالألسن المختلفة التي يتصل بعضها ببعض فتتفاعل وتتداخل أم تعلق باللهجات العربية التي لم يكتف جَمع اللغة بالرصيد المشترك بينها وإنما أخذ عنها خصوصياتها فتعددت الوحدات والصيغ لنفس المفهوم في أحيان كثيرة واعتُبر ذلك ثراء وتوسّعا، أم تعلق بالمستويات داخل اللسان العربي الذي أصبح ينظر اليه بعد الإسلام نظرة موحّدة لكنها تقرّ بوجود مستويات من الفصاحة ومستويات غير فصيحة. ولئن كان الموقف السائد هو اعتبار ما خالف مقاييس الفصاحة كما حُدّدت وقُنّنت في عصور الاحتجاج فسادا فان بعض المواقف قد تميّزت بشكل لافت للانتباه، فالجاحظ مثلا يوفّق بين تفضيل العربية على سائر الألسن واعتبار كل ناطق بلسان فصيحا ما دام يحقق الابلاغ والتواصل والإفهام. وهو يعتبر أن لكل مستوى من المستويات اللسانية وظيفة مخصوصة طبقا لمبدإ «لكل مقام مقال» حسب العبارة الشهيرة.

أما ابن حزم فهو يرفض مبدأ المفاضلة بين الألسن انطلاقا من النّص القرآني ذاته فلا يعتبر العربية أفضل اللغات.

ولئن ذهب ابن خلدون مذهب القائلين بفساد اللسان العربي نتيجة الاختلاط بالأعاجم فإنه بقي الوحيد أو يكاد الذي يقرّ بأن ما كان في

---

(66) الحيوان، ج.1، ص.330 ـ 335.

المنطلق فسادا، يؤول في نهاية المطاف الى لسان آخر له ملكته وقوانينه الخاصة. ففي المقدمة نجد أدق تعبير عن مفهوم التطوّر اللساني وإن لم تستعمل اللفظة بعينها، وهو مفهوم كان ينظر إليه أساسا من حيث هو نتيجة لعوامل خارجية مثل تأثير الأعاجم والاختلاط بهم ولا ينظر اليه من حيث هو نتيجة عوامل داخلية مرتبطة بطبيعة النظام اللّساني. ومن خلال هذا الموقف نتبين كذلك وجود وعي متميّز بأن كل لغة مهما تغيرت ومهما بعدت عن أصولها لا تكون لغة الآ اذا كانت نظاما.

الطيب البكوش

في أسرار العربيّة

بقلم : **أندري رومان**

إنّ كلّ شيء يظهر لنا كحقيقة واقعة تنطوي عليه حقيقة نظريّة.

النّظريّة التي سأتشرّف بعرضها عليكم كلّها مبنيّة على مبدإ واحد : هو ثنائيّة كلّ عمل عمله الإنسان حالما قدر على تنظيم.

إنّ أوّل نظام ـ مهما كان ـ قدر عليه الإنسان قد كان ـ على ما يُرَجَّح ـ نظامًا قائمًا على التوافُقيّة الثنائيّة[1].

فإنّه يكفي وجود عنصرين لتكوين نظام فالتوافقيّة الثنائيّة هي أدنى توافقيّة ممكنة إذ لا نظام إلاّ وله عنصران على الأقلّ ترابط بينهما علاقة.

فلم تكن للإنسان نَدْحة عن اللجوء بادئ ذي بَدْء الى التوافقيّة الثنائيّة لا الى توافقيّة غيرها حيث أنّها أوّل التوافقيّات الكائنة لديه وأبسطُها بل هي توافقيّة تكفي مشروعَه إذ إنّها تمكّنه مع بساطتها من عمله عملاً مُرْضيًا.

إنّ الإنسان حالما قدر على وضع توافقيّة ثنائيّة صار يتصوّر فيما يتناوله بحواسّه من الطبيعة حوله كيانات يجدها أو يوجِدها : عودٌ مثلاً قد يجعل منه عصًا أو عمودًا ...

(1) إنّ التوافُقيّة ترتيبُ عناصر نظام ما يكوّن وحداته المختلفة واستخدامُ علاقات خاصّة به تربط بعضها ببعض ربطًا يجعلها سلاسل وجداول.

بل كان الإنسان يجهل - وكثيرا ما لا يزال يجهل - ماهيّة الكيانات التي كان يُدْرِكها إدراكًا ثنائيًا.

كان الإنسان مقتصرًا على جعل تلك الكيانات في أصناف تمكّنه من إدراكها صِنْفِ الحيوانات صنف النباتات إلخ

كان الإنسان يرى كلّ صنف مجموعة تشمل عناصر متشاكلة يختلف بعضها عن بعض بسِمة من السمات فكذلك كان كلٌّ من عناصر صنف من الأصناف يحوز على هُويّة يُضفيها عليه انتماؤه الى سائر عناصر صنفه فإذًا كانت هُويّته سطحيّة ناجمة عن عمليّة عقليّة بدائيّة ساذجة.

إن افترضنا أنّ الإنسان تبنّى التوافقيّة الثُنائيّة في إدراكه العالَمَ وإحداثِه في العالَم ما أحدث فيغلب على الظنّ أنّه لجأ الى تلك التوافقيّة نفسها لإنشاء لغة يسمّي بها ويذكر بها ما يعقل ويفعل.

من المرجّح أنّ الإنسان كان يسمّي كيانات محيطه الطبيعيّ والاجتماعيّ في نفس الوقت الذي كان فيه يُدْرِكها إنّ إدراكه كيانات وتسميته إيّاها حتْمًا عمليّتان متزامنتان إذ إنّه لا فائدة في التعرُّف على كيان يظلّ ولا اسم له فإنّه لا يبقى كيان لدى الإنسان إلاّ بالاسم الذي أطلق عليه أي إلاّ إذا أصبح مسمّى.

فإنّ غاية اللغات هي أن تجعل تجارب الإنسان ذاكرةً جماعيّة، زادًا مشتركًا.

يظهر أنّ اللغة العربيّة تشهد على صحّة افتراض تكوُّن اللغات الإنسانيّة تكوّنًا ثنائيًا بل إنّها شاهده الفاصل.

لقد رأى إرنيست رينان (Ernest Renan) أنّ اللغة العربيّة هي من وجوه كثيرة مُجْمَل اللغات السّاميّة(2).

ويظهر لي أنّ اللغة العربيّة هي آخِر شاهد يمكن التعرّف به على ذلك إذ يشهد على كُنْه النظام الذي كان قديما خاصّا باللغات الساميّة فإنّ اللغة العربيّة لهي عندي مستودع أسرار تأريخ عائلة اللغات التي تنتمي اليها. إنّها عندي اللغة التي جعلها التأريخُ مفتاح علمنا باللغات.

تنكشف اللغة العربيّة لغةً مبيّنةً على تصميم ثُنائيّ سأنطلق من نظام العربيّة المقطعيّ. إنّه في حاله المعهودة شامل على مقطعين مقطع منفتح يتركّب من حرف صامت فحرف صائت ومقطعٍ منغلق يتركّب من حرف صامت فحرف صائت فحرف صامت فكلّ مقطع سواهما قد يقع في اللغة ليس إلا نتاجَ التّكييف الذي قد ينشأ من الوقف مُحوّلاً مقطعَيْن أصليَّيْن الى مقطع شاذّ لا يكون من نظام اللغة مع أنّه مقطع يتواتر حُدوثه في الكلام قُلْ في هذه الجملة العاديّة ﴿ماذا فَعَلْتْ ؟﴾ التي لم يُغْلَق مقطعُها الآخر بحرف صامت واحد بل بحرفَيْن صامتين.

يترتّب على ذاك النظام المعروف أنّه من المستحيل في الفصحى استبدال حرف صامت بحرف صائت أي أنّه يستحيل الاستبدال الذي نشاهده في الفرنسيّة إذ هي لغة يمكننا أن نجد فيها مستبدلين حرفًا صامتًا بحرف صائت أن نحوّل الاسم «porte» ([port] الذي معناه ﴿ باب ﴾ الى الاسم «aorte» ([aort]) الذي معناه ﴿ أبهَر ﴾ جاعلين الصائت /a/ مكان الصامت /p/ فإلى الاسم «poète» ([poèt]) الذي معناه ﴿ شاعِر ﴾ جاعلين الصائت /è/ مكان الصامت /r/.

(2) «Il est certain [...] que l'arabe est à beaucoup d'égards le résumé des langues sémitiques», E. Renan, Histoire générale et système comparé des langues sémitiques (1855, tome VIII des oeuvres complétes, Paris, Calmann-Lévy, 1958), p 481.

فترتّب على كون مثل ذلك الاستبدال مستحيلاً في العربيّة أنّ الحروف الصامتة تنحصر في مجموعة معيّنة وأنّ الحروف الصائتة تنحصر في مجموعة ثانية منفصلة عن الأولى انفصالاً تامّاً.

ذلك ما يُظهره الشكل الأوّل

النظام المقطعي {حرف مُتحرّك ـ حرف ساكن} > (صوامت) Ω (صوائت = Ø

الشكل 1

إنّ ذاك الانفصال ينطوي على نظام أصليّ مُضْمَر أوْجدَتْه اللغة العربيّة لمّا خصّصت لحروفها الصامتة دَوْرًا مُعيّنًا لا تُشاركها فيه حروفها الصائتة إذ أنّ الكيانات التي شخّصها العرب في العالَم قد سمّوْها بوحدات دَلاليّة مبنيّة على جذور متركّبة منْ حروف صامتة لا غيرُ أي جذور ليس منها حرف صائت.

أمّا الحروف الصائتة فجعلت اللغة العربيّة القصيرةَ منها لإعراب وحداتها الدلاليّة فإنّ حروفها الصائتة القصيرة هي وسائل نظامها الوظيفيّ الأساسيّة. ذلك ما يُظهره الشكل الثاني.

(صوامت	Ω	(صوائت) = Ø
|		|
نظام التسمية		نظام الإعراب

الشكل 2

نظام التسمية الذي تمخّض عن مثل ذاك النظام المقطعيّ تأسّس على جذور ثُلاثيّة وعلى جذور أُحاديّة ذات حرف صامت واحد.

لقد نشأت الجذور الثلاثيّة من حاجة العرب الى تسمية الكيانات العديدة التي شخّصوها في العالَم فاضطرّهم عددُها الكُبار الى أن يستثمروا الإمكانات الكامنة في توافُق ثلاثة صوامت فوضعوا مثلاً ﴿مَرْء﴾ و ﴿فَرَح﴾ و ﴿أنيس﴾.

إنّه من البديهيّ أنّ توافُق صامتَيْن كان عاجزًا عن تلبية حاجات التسمية التي مسّت العرب وأنّ توافُق أربعة صوامت كان يوفّر لهم عددًا من الجذور يفيض عن حاجاتهم.

لم يبنوا وحدات دلاليّة على أربعة صوامت جذريّة إلاّ في مرحلة لاحقة. بَنَوها قياسًا على الفعل المزيد فيه ﴿فعّل﴾ جاعلين من الصامت الطويل ﴿عّ﴾ صامتَيْن مختلفين ﴿ع - ل﴾ جاعلين مثلاً من ﴿فقّع﴾ ﴿فرقع﴾ واضعين بذلك توافُقًا رباعيًا لم يكن.

أمّا الجذور الأُحاديّة فهي الجذور التي وُضِعَتْ عليها وحداتُ التسمية الدّالّةُ على كيان فريد كالكاف التي للمخاطب أو الدّالّةُ على كيان أُظْهِرَ مُبْهَمًا كالاسم المُبْهَم ﴿ما﴾ مثلاً الذي مدلوله شيءٌ لمّا يُميَّز. ومنها أيضًا النون الدّالّة على مكان مُبْهَم لمّا يعيّن. نونُ التنوين هي تلك النون نفسها ومنها أيضا التاء الدالة على زمان مُبهَم لمّا يُحدّد. توجد تلك التاء في ﴿لاتَ﴾ مثلاً كما توجَد وقد خضعت لتكييف جعلها ذالاً من الحرفَين التوأمَين ﴿إذْ﴾ و﴿إذا﴾[3].

يُصوِّر الشكل الثالث نوعَي الجذور الأصليَّيْن : الجذورِ الأُحاديّة التي بُنِيتْ عليها الوحدات الدلاليّة العامّة والجذورِ الثلاثيّة التي بُنِيَتْ عليها الوحدات الخاصّة.

---

(3) يوازي الحرفين /ʔid/ و /ʔida:/ العربيّين الحرف /ʔod/ في العِبْريّة والحرف /jeʔeze/ في الجعزيّة.

نظام التسمية[4]

|

V¯

V‾ح ح ح　　　　V‾ح

وحدات دلالية خاصّة　　　　وحدات دلالية عامّة

الشكل الثالث

يتعلّق الشكل الرابع والشكل الثالث بالشكل الثاني

نظام العربيّة العامّ

النظام المقطعي {حرف مُتحرّك ـ حرف ساكن} › (صوامت) Ω (صوائت) = Ø

نظام　　التسمية　　نظام الإعراب

V‾ح ح ح　　　　V‾ح

وحدات دلاليّة عامّة　　　　وحدات دلاليّة خاصّة

الشكل الرابع

ومضت اللغة تقيس على التوافُق الذي تمخّضت عنه وحداتها للتسمية المبنيّة على جذور ذات ثلاثة حروف فأجْرَتْ توافُقا جديدا هو توافُق جذور.

---

(4) «ح» : حرف صامت.

ذانك التوافقان ـ توافق الحروف وتوافق الجذور ـ مُصوَّران في الجدول التالي :

جدول عامّ لوحدات التسمية المبنيّة على جذر أو أكثر من جذر[5]

$\sqrt{\;}$

وحدات دلاليّة خاصّة	وحدات دلاليّة عامّة
$\sqrt{\text{ححح}}$	$\sqrt{\text{ح}}$
+	+
($\sqrt{\text{ح س}}$)[6]	($\sqrt{\text{ح}}$)

إنّما أذكر على سبيل المثال وحدتَيْن مبنيّتين على جذرَيْن.

ـ الوحدةَ الدلاليّة ﴿ مَتى ﴾[7] التي نسأل بها عن زمان لا نعرفه وهي متركّبة من حرف الاستفهام ﴿ أ ﴾ ومن الجذرَيْن الأحاديَّيْن «$\sqrt{\text{م}}$» و «$\sqrt{\text{ت}}$» اللذين قد ذُكِرا ـ ﴿ يَقُولُون مَتَى هُوَ ﴾[8].

ـ الوحدةَ الدلاليّة ﴿ نَظِرَةٌ ﴾ المتركّبة من الأصل الثلاثيّ المعروف «$\sqrt{\text{ن ظ ر}}$» ومن الأصل الأحاديّ «$\sqrt{\text{ت}}$» المذكور سابقا الدّالّ على زمان مُبْهَم. لقد وردت تلك الكلمة في الكتاب الكريم ـ ﴿ وإنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ

(5) يدلّ القوسان على أنّ الوحدة التي يكتنفانها موجودة أو غير موجودة.

(6) قد تكون القِيَم التي يمكن أن تأخذها المتغيّرة «س» هي صفر وواحد واثنان وثلاثة.

(7) يوازي الحرفَ /: mata/ العربيّ الحرفُ /mati/ الاكاديّ والحرفُ /motaj/ العبْريّ والحرفُ /? emmat/ السّريانيّ والحرفُ /eze ? : ma/ الجعزي.

(8) الآية الكريمة 51 من سورة الإسراء.

الى مَيْسَرَةٍ ﴾[9] أي إن كان غريمًا مُعْوِزًا فالأمر انتظار سيتمّ بيُسْره[10].

أمّا نظام الإعراب (le système de communication) أي النظام الذي صار النحاةُ يسمّونه النحو (la syntaxe) فوحدته الكبرى - كما هو معروف - هي الجملة.

يظهر أنّ الجملة تكوّنت وفقا للنمط الثنائي الذي وافقه نظام التسمية الشقيق. لقد تأسّست فعلا على عنصرين ينتصبان رُكْنَيْها.

فعلاقة كلا ذينك الركنين بصنوه علاقة ضرورية إذ إنّهما متواجدان متداعيان.

فجعل النمط الثنائيّ مقابل تلك العلاقة الأساسية علاقة ثانية مزدوجة تربط بين عنصر من عناصر الجملة وعنصر تابع له - مهما كان - ارتباطًا يُحِلُّه في نظَامِ الجملة.

العلاقة بين ركني الجملة تُزاوِجُ بينهما على أنّهما سِيّان. لا يتفاوت دَوْراهما.

أما علاقة العنصر التابع بالعنصر المتبوع فعلاقة فَضلة بعَمدة. فيترتّب على مثل تلك العلاقة أنّ رتبة الفضلة دون رتبة العمدة. ليست الفضلة سيّ العمدة وإن شاركتْها في وظيفتها بواسطة حرف من حروف العطف أو

---

(9) الآية الكريمة 280 من سورة البقرة.

(10) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبيّ (القاهرة - دار الكاتب العربي للطباعة والنشر - 1967/1387 - 20 جزءًا - الجزء 3 صص 371 - 374).

قـامتْ بوظيـفـة خـاصّـة بهـا بواسطة أداة من أدوات الإعـراب[11] (un fonctionnel).

يُظهر الشكل السادس العلاقات الثنائيّة التي يمكن وجودُها في كل جملة مبنيّة.

العلاقة المُفردة الداعية الى عنصرَيْن   العلاقة المزدوجة الداعية الى عنصر

+ علاقة إشراك	مقابل	⟵ ⟶
↑ علاقة نَوْط		

الشكل السادس

يرمـز في الشكل السـهم الذي له رأسـان (⟵ ⟶) الى عـلاقـة الرُكْن بالرُكن وهي علاقة فريدة يعرفها كَونُها فريدة.

أمّا علاقة الفضلة بـالعمدة فإمّا هي علاقة إشراك أي علاقة عطف (relation de coordination) ترمـز اليهـا علامـة الجمع (+) وإمّا علاقة نَوْط (relation de subordination) يرمـز اليهـا سهم له رأس واحـد (↑) وقـد تتكثّر كلتاهما في الجملة ولذلك وُضعت أدوات العطف (les coordonnants) وأدوات الإعـراب (les fonctionnels) : هي وسـائل تعليق الفَـضَـلات بالعمدات.

فلاعلاقة ثنائية إلاّ تلك العلاقاتُ الثلاث.

---

(11) أدوات الإعراب هي حركات الإعراب و.حروف الجرّ.

فإذا لا جملةَ مبنيّة إلاّ جملةٌ تُركّبها تلك العلاقات طبقا للتصميم الذي تكيّفه[12].

تصميم الجملة

	الركن 1 → ← الركن 2	
النواة	الركن 1	الركن 2
الفضلات	↑ / +	↑ / +
	ف 1	ف 2
	↑ / +	↑ / +
	ف 11	ف 21
	.	.
	.	.
	.	.

إنّ هذا التصميم لأبسط تصميم ممكن. لقد سوّغ بساطتَه القُصوى جميعُ التخصيصات التي من شأن العلاقات المكوّنة له أن تحملها. بل تجريدُها هو الذي تطلّب تلك التخصيصات. إنها تعوز النظام. فصاغتها اللغة ملبّية ذاك الطلب سادّة فراغ التجريد. صاغت مثلاً سمات دلاليّة (modalités)[13] تؤكّد بها وجود العلاقة النوويّة التي تربط بين الركن والركن أو تنفي وجودها أو تسأل عن وجودها. لا نقول ﴿ ضَرَبَ زيدٌ عمرًا ﴾ فقط بل ﴿ لَضَرَبَ زيدٌ عمرًا ﴾، ﴿ مَا ضَرَبَ زيدٌ عمرًا ﴾،

---

(12) إنّه من شأن الجملة الثنائيّة أن تتّسع اتّساعا لا تُحدّ منه إلاّ ذاكرة الإنسان المحدودة. فإنّ العَطْف (coordination) والنَوْط (subordination) يمكّنان الإنسان من وضع سلاسل يختار هو طولها. وعلاوةً على ذلك تمكّنه عمليّة التحويل (translation) من ان يحوّل جملة أي وحدة من نظام الإعراب قائمةً بذاتها الى مقوّم من مقوّمات جملة غيرها. فإذا بالجملة المحوّلة تصير رُكْنًا أو فضلة في جملة كبرى تشملها أي بعبارة أخرى تصير الجملة المحوّلة بمعانيها المتوفّرة بمثابة وحدة من وحدات نظام التسمية.

(13) إنّ «السمة الدّلالية» هي «الصَوْغ» في قاموس اللسانيّات للدكتور عبد السلام المسدّي (تونس ـ الدار العربيّة للكتاب ـ 1994).

﴿ أضَرَبَ زيدٌ عمرًا ﴾. فأخيرًا ناهيكم بذكر الاستثناء الذي لا يقع إلاّ على علاقة من علاقات النَوْط (relation de subordination). نقول ﴿ ضَرَبُوا عمرًا إلاّ زيدًا ﴾ مستثنين الفضلة ﴿ زيدًا ﴾ من الضمير المستتر القائم في الجملة مقام أوّل الركنين.

فالتصميم المرسوم أدناه يصوّر تصويرا مُبسّطًا نظام اللغة العربيّة العامّ(14).

نظام العربيّة العامّ



(14) إنّه لم تُرْسَم فيه إلاّ الوحدات المبنيّة على أصول صامتة (racines consonantiques) فلم تُرْسَم فيه أدوات الإعراب (fonctionnels) ولا السمات الدلاليّة (modalités) التي تجعل الأصول كلمات دالّة على جنس أو عدد مدلولاتها مثلاً ولا المُحوّلات (translatifs) التي تحوّل جملة الى وحدة تسمية متوفّرة المعاني بل وحدةٍ زائلة لا تُثْبتها القواميس جملةً تصبح مقوّمًا من مقوّمات جملة كبرى تشملها. وكذلك لم تُرْسَم في التصميم وحدات التسمية المبنيّة على أصول مقطعيّة (racines syllabiques) وهي المُحاكيات (onomatopées) ـ ﴿كتكوت﴾ مثلاً ـ والفواتح (sigles) ـ ﴿سونا﴾ مثلاً أي ﴿وكالة السودان للأنباء﴾ ـ وبعض الأسماء الدخيلة ﴿فلكلور﴾ مثلاً.

لقد صدّق على صحّة افتراضنا الأساسيّ كونه متلاحمًا منسجما انسجاما تامًّا فإنّ افتراضا ثنائيًّا لا يثبت إلاّ متوانما.

وقد صدّق أيضا على صحّة افتراضنا شمول النصوص التي استُفيد منها تصميمُ النظام العام الذي صُوّر فهي نصوص كثيرة قديمة وحديثة من الجاهليّة والاسلام فبرّر توسُّعها أن تُتّخذ مُمثّلةً لكلّ ما كُتب بالعربيّة فقيمةُ افتراضنا الثنائيّ معتمدة فعلاً على استقصانها بما أنّه يجوز على ذاك الاعتبار القول الفاصل.

إنّ الافتراض الثنائيّ لهو مُثمر. لا وجودَ في إطاره لكيان إلاّ ويوجد معه كِيان ثان يزاوجه. فوجود كيان ما ضِمْنَ إطاره ليشير الى كيان يقابله حتما إشارة تحثّ الباحث على البحث عنه[15].

إنّ الافتراض الثنائيّ يربط اللغة التي تشهد على أحوالها النصوصُ الموروثة باللغة التي كانت قديمًا في عهود لم تحفظها الذاكرة.

بل يدلّ على كلّ الإمكانات الكائنة لدى الإنسان الناطق.

فالتوافُقيّة الثنائية التي سيقَ إليها أدّته الى أن شخّص في أصواته اللغويّة حروفًا مُفردة متقابلة - صامتة وصائتة - هي الصواتم (phonèmes) وتُجاه الصواتم حروفًا مركّبة - متحرّكة وساكنة - هي المقاطع (syllabes).

فالصواتم والمقاطع هي مادّة اللغات الأوّليّةُ الوحيدة التي يمكن توافُقها لوضع وحدات تسمية.

---

(15) وفضلا عن ذلك يكشف الافتراض الثنائي في النظام اللغويّ العامّ عن بِنًى متساوية يخلّص تساويها الإنسان عن قيد علاقة تُلْزمه فإذا به يجد نفسه لدى إمكانية اختيار تُقدره على إبداع أسلوب في كلامه. قد يختار أن يقول «أ صَخْرةٌ أنا ؟» بدل ان يقول «أأنا صَخْرةٌ».

لقد تكوّنت الأُسرُ اللغويّة متأسّسة على التوافُقات الثنائية الثلاث الكامنة في نظام الصوامت ونظام المقاطع هي :

1 ـ توافق متأسّس على الصوامت
2 ـ توافق متأسّس على الصوائت
3 ـ توافق متأسّس على المقاطع

يبدو أنّ التوافق الذي اختصّت به كلّ أسرة لغويّة فُرِضَ عليها ولقد فَرَضه عليها أمر طبيعيّ هو القالب الحنجريّ (stéréotype laryngal) الذي كانت تتميّز به أُمَم المتكلّمين بها(16).

فإنّ الأُسَرَ اللغويّة الثلاث نجمت ـ على ما يظهر ـ عن ثلاثة قوالب حنجريّة مختلفة هي :

1 ـ قالب حنجريّ رِخْو (relâché) أدّى الى النطق بصوائت تُحقّق من وجهة صوتيّة (phonétiquement) كأصوات مزدوجة يتغيّر جرسها عند النطق بهـا هابطا ولكنّهـا مع ذلك لم تزل من وجهـة صوتميّة (phonologiquement) صواتم مُفردة.

$$/V/ = [\check{V}V]$$

منه تولّدت اللغات ذات الأنغام (les langues à tons)

2 ـ قالب حنجريّ «بين بين» (neutre) مُحايد حيث

$$/V/ = [V]$$

منه تولّدت اللغات الهِنْدو أوربيّة

(16) انظر - A. Roman, «Vers une théorie générale des signifiants linguistiques - L'exemple "probant" de l'arabe», in Travaux du Cercle linguistique d'Aix-en-Provence, vol. VII, La Signification, Aix-enProvence, 1989, pp.73-113; «Le hasard et la nécessité dans l'ordre des langues-L'illustration de l'arabe» in Bulletin d'Etudes orientales de Damas, Damas, 1991, pp. 93-117.

3 ـ قالب حنجريّ متوتّر (tendu) أدّى الى النطق بصوائت تُحقّق من وجهة صوتيّة كوحدات مهموزة أي كصوائت تسبقها همزة تكون بعضًا منها ولكنّها مع ذلك لم تزل من وجهة صوتميّة صوائت مفردة.

/V/ = / ? V/

انكشف القالب الحنجريّ المتوتّر من ميزات اللغة العربية واستُنبط احتمال وجود القالبين الرخو والمحايد من القالب الحنجريّ المتوتّر.

يبدو أنّ الهمزة الخاصّة بالصوائت المهموزة التي تولّدت عن القالب الحنجريّ تلاشت عقب صامت مجهور [C] تلاشيا حوّل الصائت المهموز [?V] الى صائت بسيط.

$[C_v - ?V] > [C_v - V]$

وترتّب على تبسيط الصائت المهموز أنّ المقطع الأُحاديّ.

[?V] = /V/

بدأ مقطعا ثنائيا يتركّب من صوتمين : صامت هو الهمزة والصائت البسيط الذي يصحبها.

أمّا المقطع الثنائيّ المتركّب من صامت مهموس فصائت مهموز.

[C - ?V] = /CV/

فبدا متركّبا من صامت مهموز أي من صامت تليه همزة تحوّلت الى بعض منه $[\underset{\wedge}{C?}]$ فصائت بسيط [V]

[C - ?V] > [C? - V] = /CV/

إنّ ذلك من أجل تبسيط الصائت المهموز الذي وقع في المقطع الثنائيّ المتركّب من صامت مجهور $[C_v]$ فصائت مهموز [?V] إذ فقد فيه الصائتُ المهموز همزته.

[C̬ - ?V] > [C̬ - V]

فكذلك زال الصائت المهموز [?V] عن نظام الصوائت فقام مقامه الصامت المهموز [C̭?] وقد أجمع اللسانيّون على أنّ الحروف المطبقة (les consonnes emphatiques) الخاصّة باللغات الساميّة اشتُقت من صوامت مهموزة.

فوجود الحروف المطبقة في اللغات الساميّة يُرجّح وجود تلك الصوائت المهموزة في القديم. فوجود تلك الصوائت المهموزة في القديم يُرجح بدوره ما قلنا في وجود القالب المتوتّر الذي جعلناه منشأ الصوائت المهموزة.

فتحوّل النظام المقطعيّ الساميّ القديم تحوّلاً واكب تحوّل نظام الأصوات فتشنّج حتّى أمسى وله مقطعان اثنان فقط المقطعان اللذان ظلّتْ الغة الفصحى وحْدَهَا تتحلّى بهما الى اليوم.

يُظهر الشكل السابع التحوُّلات التي قد وُصِفَتْ في نظام صوتيّ كان يتميّز بصوانت مهموزة وفي نظام مقطعيّ احتمل أنّه كان يشتمل على ثلاثة مقاطع[17].

[V, VC, CV]

{C-V}	= [C̬-?V] > [C̬-V]	= /C-V/	= {C-V}
	= [C̭-?V] > [C̭?)V]	> [C̭-V] = /C-V]	= {C-V}
		> [C̭?-C] = /C?-V/	= {C-V}
{V}	= [?V] > [?-V]		= {C-V}
{V-C}	= [?V-C] > [?-V-C]	= /?-V-C/	= {C-V-C}

الشكل السابع

(17) فإنّه أقوى احتمال. انظر Bertil Malmberg, Signes et symboles — Les bases du langage humain (Paris, Editions Picard, 1977, Collection Connaissance des Langues), p. 275; Roman Jakobson, Essais de linguistique générale (Paris, Editions de Minuit, 1963, Collection Arguments - 14), vol. I, p. 73.

قال ابن حَزْم :

«وأيضا فإنّ الاصطلاح على وضع لغة لا يكون ضرورةً إلاّ بكلام متقدّم بين المصطلحين على وضعها. أو بإشارات قد اتّفقوا على فهمها. وذلك الاتّفاق على فهم تلك الاشارات لا يكون إلاّ بكلام ضرورةً. ومعرفةُ حدود الأشياء وطبائعها التي عبّر عنها بألفاظ اللغات لا يكون إلاّ بكلام وتفهيم. لا بدّ من ذلك»[18].

ألم تكن التوافُقيّة الثنائيّة ذلك الكلام المتقدّم الذي حقّق ابن حزم ضرورته ؟

(18) علي بن حزم - الإحكام في أصول الأحكام - دار الجيل - بيروت -1407/1987 - ج 1 - صص 33 - وانظر Asin Palacios, «El origen del lenguaje y problemas conexos, en Algazel, Ibn sîda e Ibn Hazm», in Al-Andalus, Madrid, 1938, tome IV, pp. 253 - 281.

ظاهرة «الحجب» في بناء الفعل و الجملة في العربية ولغات أخرى

بقلم : أحمد ابراهيم

المقدمـة :

أعتزم في هذا العرض طرح عدد من الفرضيات النظرية تهدف أساسا الى تفسير ظاهرة صرفية ونحوية تتعلق بـ «بناء الفعل» و«بناء الجملة»، وهي ظاهرة تلخصها عادة كتب النحو والدراسات اللسانية الأوروبية والامريكية وغيرها في مصطلح الـ «passif» ويطلق عليها النحاة واللغويون العرب القدامى والمعاصرون اسم «المبني للمجهول»، ولكنها ليست في اعتقادي إلا جزءًا من ظاهرة لسانية أشمل تتجاوز، على صعيد كل لغة، ما يدل عليه هذان المصطلحان من بنى نحوية وصرفية معينة، كما تخترق الحواجز الفاصلة بين اللغات، وهي حواجز كثيرا ما يبالغ المحللون في أهميتها بناء على فوارق شكلية عارضة.

إنها ظاهرة اقترح تسميتها «الحجب» لأنها تستجيب الى وظيفة معنوية وخطابية عامّة تتلخص في «حجب» هوية القائم بالفعل أو ماهية مصدر الحدث عن المخاطب (أو القارئ) أو حتّى عن المتكلم (أو الكاتب) نفسه.

أ ـ وكانت أول صياغة لمصطلح «الحجب» قمت بها قد بدأت بنحت مصطلح باللغة الفرنسية (والانكليزية) بناء على تطوير للفظة شبه مختصّة تستعمل أصلا في علم الفلك هي لفظة «occultation» التي تعني «الاختفاء المؤقت لنجم ما يسبب ظهور نجم آخر يبدو أكبر منه»[1]. وقد بدت لي هذه اللفظة ملائمة لأن الظاهرة التي تدل عليها ـ والتي تضاهيها الظاهرة اللغوية المعنية هنا ـ تفترض وجود درجات في حجب الضوء أو احتجابه تتراوح من :

ـ «الظلمة القاتمة» التي يضاهيها على الصعيد اللغوي عدم ذكر القائم بالفعل أو مصدر الحدث لاستحالة معرفة هويته أو ماهيته لحظة التخاطب (كما في : **قُتِلَ في حرب لبنان**) أو لعدم وجود قائم بالفعل خارج عن العائد عليه الفاعل النحوي (كما في : **عُلِّقَتْ زينب** أي «تعلقتْ بها»).

ـ الى الابقاء على «بصيص من الضوء» كاف لمعرفة القائم بالفعل (كما في : **أُقِيلَ الوزيرُ**).

ـ انتهاء بالحالات التي «يظهر فيها مصدر الضوء كاملا» بعد «احتجابه» كما في بعض اللغات التي «يُكشف فيها عن هوية القائم بالفعل

---

(1) لهذه اللفظة الفرنسية أو الانكليزية علاقة اشتقاقية بفعل «occulter» (بالانكليزية : «to occult») الدال على نفس المعنى والمستعمل أيضا للدلالة على كل إضعاف لمصدر ضوئي (مثل المنارات في الموانى) قصد مواراته عن الانظار بواسطة أداة تدعى بالفرنسية «occulteur».

بعد حجبه في الجمل التي هي مبنية للمجهول أصلا كما سنرى، وذلك بواسطة مركّب حرفي[2] يدعى «complément d'agent» نحو :

Le ministre a été enlevé par Mafia (et non par les Brigades Rouges)

(= اختطف الوزير من طرف «المافيا» لا من طرف «الألوية الحمراء»).

فالحجب في هذا المعنى هو عبارة عن وظيفة معنوية خطابية (أو برغماتية) ذات طابع جدلي لأنها تفترض وجود أو ـ بالأحرى امكانية وجود ـ نقيضها أي «الكشف» («désoccultation»)[3].

أما على الصّعيد اللغوي (النحوي والصرفي) البحت، فان الظاهرة يحتاج وصفها الى مصطلح أكثر تحديدا : لذلك اشتققت لها مصطلحا هو الـ «occultif»[4] على غرار التداول من المصطلحات في حقل اللسانيات من قبيل الـ «actif» والـ «passif» وغيرها. الا أن هذا المصطلح الجديد ليس له في العربيّة مرادف واضح لأن كلمة «الحجب» مصدر من «حَجَبَ» ودلالتها أقرب الى دلالة «occultation» منها الى دلالة «occultif»، ورغم

---

(2) هذا ما نجده في الفرنسية والانكليزية ولكن الكشف عن هوية القائم بالفعل في مثل هذه الجمل يمكن ان يأخذ شكل اسم حامل لصيغم إعرابي كما في الروسية مثلا :

Oleg otkryl kalitku

(«أوليغ» ـ مرفوع + فتح + بوابة ـ منصوب

(فتح «أوليغ» البوابة)

→ Kalitka byla otkyta Olegom

(بوابة ـ مرفـــوع + كانـــت مفتوحـة + «أوليغ» ـ صيغم آلي)

= فُتح الباب من طرف أوليغ).

(3) لمفهوم «الكشف» دور نظريّ هام : فهو يعني أن بناء جملة من نوع المثال المقدّم باللغة الفرنسية بناء تدرّجي يبدأ بصيغة هي بالأساس صيغة لحجب مصدر الحدث (الاختطاف) وينتهي بالكشف عن هويّة هذا «المصدر» المختطف، فيكون هذا «المصدر» هو المخبر عنه ولا يكتسي هذا الإخبار (الكشف) أهمّية خاصّة على المستوى الخطابي إلاّ لأنه قد سبقه بناء للمجهول (حجب) .. ويؤكد هذا التحليل أن الجمل الفرنسية أو اللانكليزية المبنية في الـ passif ترد في أغلب الحالات (من 70 الى 80 في المائة) بدون «complément d'agent» .

(4) هذا اللفظ هو عنوان لكتاب بالفرنسية، سيصدر قريبا كبداية سلسلة تنوي «الجمعية التونسية للسانيات» اصدارها بانتظام.

ازدواجيتها الدلالية الواردة فإنه بامكانها أن تفي بالحاجة إذا ما جُرّدت من مصدريتها واستعملت استعمالا مطلقا.

2 ـ ان الحجب كظاهرة لغوية مفهوم يتعلق بالفعل وبالجملة بوصفها بناء نحويا يتمحور حول الفعل. وهو ظاهرة معقدة متعددة الابعاد فيها ما هو معنوي ـ خطابي ـ برغماني وفيها ما هو نحوي ـ صرفي معجمي ...

فإذا أخذنا جملة من نوع :

.كَسَرَ عَليٌّ الكَأسَ بالمطرقة.

لاحظنا أنها جملة مبنية حول فعل مُتعدّ وأنها على درجة عالية من .البروز. لأن معالم الحدث والأطراف المعنية به واضحة : فهنالك .قائم بالفعل. يتسم بالارادة والمبادرة، و .واقع عليه الفعل. متأثر بهذا الحدث بصفة سلبيّة أي أنه لا إرادة ولا مبادرة له ولا دور له في حدوثه، و .أداة. أنجز بواسطتها الحدث. وهنالك فعل في صيغة معينة يعبّر عن حدث محسوس مأتاه واتجاهه وتأثيره على الواقع جليٌ، ولهذا .البروز. الأنموذجي.[5](على صعيد البنية المعنوية) ترجمة معينة في مستوى البنية النّحوية والصيغة الصرفية، هي بناء الفعل والجملة .للفاعل.. أي إحلال كل من الاسم الذي يحيل على .القائم بالفعل. والاسم الذي يحيل على .الواقع عليه الفعل. والاسم الذي يحيل على .الاداة. محلا معينا من الاعراب، بحيث يكون الأول مرفوعا (عمدة) والثاني منصوبا (فضلة) والثالث مجرورا بحرف ...

---

(5) هذا الطابع الأنموذجي في بروز الحدث والقائم به والمتأثر به. يتضح أكثر إذا ما عوضنا كَسَرَ بفعل من قبيل .رَآى. حيث فاعلية الفاعل (أي تأثيره الارادي) ومفعولية المفعول به (أي تأثره) يكادان يكونان منعدمين ...

وفي جملة :

كَسَرَتِ المطرقةُ الكأس

نلاحظ أن معالم الحدث أقل وضوحا لأن الاسم الذي يحتل محل الفاعل لا يحيل على طرف تتوفر فيه شروط «الفاعلية» (أي المبادرة والارادة التي لدى القائم بالفعل الانموذجي) ولكن المتكلّم بإحلال الأداة المحلّ المخصّص عادة للقائم بالفعل، كأنه يبعد المسؤولية عن الطرف الذي هو المصدر الحقيقي للحدث (أي مستعمل المطرقة) ويحجبه عن دائرة انتباه المخاطب ...

أما في جملة مثل :

كُسِرَ الكأسُ

فإننا ازاء بنية مغايرة تماما لأن حجب مصدر الحدث لم يعوّض عنه هنا بالإلتجاء الى نوع من «نائب القائم بالفعل» (إن صح التعبير) - أي الأداة - كما في المثال السابق - فقدّم الحدث بغض النظر تماما عن محدثه وبني الفعل تبعا لذلك مباشرة للمتأثر به (بصيغة فُعِلَ) واحتل الاسم الذي يحيل على هذا المتأثر المحل الاعرابي البارز (الرفع). الا أنّ ذلك القائم بالفعل الذي تم حجبه موجود في ذهن المتكلم (إذا كان يعرفه) أو ممكن الوجود بالنسبة للمتكلم والمخاطب.

ويختلف الامر في جملة من نوع :

انكَسَرَ الكَأسُ

التي هي مثال لدرجة أقوى من الحجب لأن الحدث يقدم فيها بدون مصدر مؤثر خارج عن المتأثر به ...

3 - تلك بعض الأمثلة أوردتها لأبيّن أن نظرية «الحجب» هي بالأساس تطوير لنظرية المبني للمجهول وتوسيع لمجالات تطبيقها الى ظواهر نحوية

وصرفية ومعجميّة في العربية ذاتها وفي كثير من اللغات الأخرى المختلفة عن العربية والمختلفة بعضها عن بعض ... وسيتناول هذا المقال محاور ثلاثة هي : أصول نظرية الحجب بوصفها نوعا من «التأليف» بين مفهوم المبني للمجهول كما أعدت قراءته وبعض النظريات اللسانية الحديثة، ثم المظاهر التي أرى ضرورة اعادة النظر فيها أو تطويرها في النحو العربي وخاصّة منها مفهوم «نائب الفاعل» «وضمير الشأن»، وأخيرا الصيغ الصرفية والبنى النحوية المختلفة، في العربية وغيرها، التي يتسنّى تفسيرها والربط بينها بناء على نظرية الحجب.

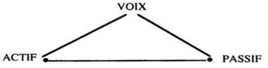
I - الجزء الأول :

أصول نظرية «الحجب»

I . 1 - دلالات الاختلاف في الاصطلاح بين النحو العربي والنحو الأوروبي

I . 1 . 1 لن أتعرّض هنا بالتفصيل الى مقارنة شاملة بين المصطلحات بل سأكتفي بالاشارة، في البداية، الى أن البناء المعجمي المصطلحي للنحو العربي يبدو مختلاّ، الى حدّ ما، إذا ما قارناه بالبناء المعجمي المصطلحي المتداول في النحو الفرنسي أو الانكليزي أو غيرهما لوصف الظاهرة المماثلة في هذه اللغات.

ففي حين يبدو البناء المعجمي المصطلحي الأوروبي ثلاثي الأبعاد :



نرى النظام المصطلحي العربي المقابل ثنائي الابعاد :



إن هذا الوضع ليشكل في حد ذاته مفارقة مزدوجة لا بد من التوقف عندها قليلا.

- ففي حين أنه لا توجد في الفرنسية أو الانكليزية صيغة صرفية مختصّة بالـ «passif» دون سواه (إذ أنّ المركب المتكون من فعل الكينونة - être - وصيغة المفعول - participe passé - تستعمل أيضا للتعبير عن انقضاء الحدث أو الحالة الناجمة عن حدوثه بالنسبة الى أفعال لازمة مبنية للفاعل : il est sorti، He is born ...)، نجد النحو الفرنسي أو الانكليزي يرى ضرورة في إدراج الصيغتين، صيغة الـ actif وصيغة الـ - passif - في اطار وظيفي مشترك هو إطار «la voix» (انكليزية : "voice").

- وفي حين أنه يوجد صيغتان مختصتان اختصاصا كاملا في المبني للفاعل والمبني للمفعول (فَعَلَ / فُعِل) - وهما صيغتان تشكلان زوجا صرفيا ونحويا منتظما - فإن النحو العربي لم ير حاجة الى نحت مفهوم (أو مصطلح) أعم، يعبر عن الوظيفة المشتركة بين الصيغتين.

2. 1. 1 ولا يسمح المجال هنا بمحاولة تفسير هذه الظاهرة التي تطرح اشكاليات ابستيمولوجية هامة، ولكن يكفي التذكير بأن النحاة

العرب (وكثير منهم كانوا متضلعين في المنطق) كانوا على معرفة جيدة بالمقولات العشر المستخرجة من الـ «أورغانون» لأرسطو والتي كانت التاسعة والعاشرة منها تترجمان عادة بـ «التأثير» و«التأثر»[6]، ورغم ذلك فإنهم لم يروا موجبا لاستعارة هذا الزوج المفهومي والنسج على منوال اليونانيين في جمع ما يتناسب مع هاتين المقولتين على صعيد اللغة تحت عنوان مشترك من نوع الـ «دياثيزس». وما من شك في أن هذا الاحجام ذو دلالة بالغة، بل إنه يشكل الخط الابستيمولوجي الفاصل بين :

- مدرسة لغوية (أوروبية) تنظر الى الظاهرة المعنية هنا من زاوية الفاعل النحوي هل يعود على «مؤثر» أم على «متأثر» فتميز انطلاقا من ذلك بين بناء الفعل والجملة «التأثيري» (actif) وبناء الفعل والجملة «التأثري» (passif) ؛

- ومدرسة لغوية (المدرسة العربية) تنظر الى هذه الظاهرة من زاوية الفاعل المعنوي هل هو معلوم (مذكور) أم مجهول (غير مذكور) فتميز بين بناء الفعل والجملة للمعلوم وبنائهما للمجهول.

---

(6) كانت المقولات العشر منتشرة على نطاق واسع في الحلقات والمدارس في مختلف الاقطار العربية والاسلامية حيث كانت تشكل مادة دراسية شبه اجبارية، مما يفسّر صياغتها في شكل منظوم لتسهيل حفظها. وهذا مثال من نظمها على يد «عبد الرحمان بن محمد الصغير الاخضري» (من القرن العاشر الهجري) :

«إن المقولات لديهم تُحصَرُ ... في العَشْر وهي عَرَضٌ وجوهرُ
فأولٌ له وجودٌ قامَا ... بالغيْرِ والثّاني لنفس داما
ما يقبَل القسمة في الذّات فكَمُّ ... والكيفُ غيرُ قابل بها ارتسمْ
أينٌ حصولُ الجسم في المكان ... متى حصولٌ خُصّ بالأزمان
ونسبة تكرّرت إضافة ... أبوةٍ أخا لطافةْ
وَضْعٌ عُروضُ هيئة بنسبة ... لجُزئِه وخارجٍ فأثبتْ
وهيئةٌ بما أحاط وانتقلْ ... ملكٌ كثوبٍ أو إهابٍ اشتملْ
إن يفعَلِ التأثيرُ أنْ ينفعِلا ... تأثُرٌ مادامَ كُلٌّ كَمُلا.

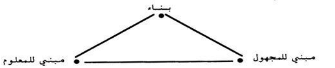
[عن «السُّلَم المنورق» ويليه «المقولات العشر» القاهرة، 1934].

فالجملة «التأثرية» - ان صح التعبير - هي جملة يعود فاعلها النحوي على «متأثر» وقع عليه الفعل. في حين ان الجملة المبني فعلها للمجهول هي جملة لم يسم فيها القائم بالفعل.

ولعلّه ليس صدفة أن تكون الثنائية **«معلوم / مجهول»** قد تغلّبت في ممارسة التحليل النحوي المتداولة (خاصة في الحقل التدريسي بتأثير واضح من ألفية ابن مالك وتواصلا مع عبارة «ما لم يسمّ فاعله»، التي كانت شائعة في كتب النحو) على الثنائية **«مبني للفاعل / «مبني للمفعول»** التي كانت تستعمل منذ بداية التفكير النحوي.

فهذه الثنائية الأخيرة أقرب الى الثنائية الارسطية («مؤثر» / «متأثر») ولكنها أقل ملاءمة لما تختص به الجملة المعنية في اللسان العربي، أي وظيفتها **الخطابية** - البراغماتية المتعلقة بالخصوص بنيّة المتكلم في اخفاء هوية القائم بالفعل أو ماهيته أو مصدر الحدث. وسنرى كيف أنه بالامكان الابقاء على هاتين الثنائيتين العربيتين معا، ولكن بادراجهما في مستويين مختلفين: مستوى نية المتكلم في التركيز على **المفعول** بمعنى الواقع به **الفعل** أو على المفعول بمعنى الحدث ذاته من ناحية، ومستوى انعكاس ذلك على الدلالة الخطابية للجملة («حجب القائم بالفعل أو مصدر الحدث»).

3. 1. I. الا أن غياب طرف معجمي ثالث يربط بين طرفي الخط بين «المعلوم» و«المجهول» لا يعني غياب المفهوم المشترك الذي كان على هذا الطرف المعجمي التعبير عنه. بل إن هذا المفهوم موجود بالقوة، حتى على الصعيد المعجمي، في صيغة «مبنيّ» ذاتها، التي تفترض «البناء»، وبالتالي فانه بالامكان تصوير النظام المعجمي المصطلحي العربي في شكل مثلث مماثل للمثلث المعجمي الفرنسي أو الانكليزي:



2. I. عدم ذكر القائم بالفعل كوظيفة (خطابية) أساسية

1. 2. إنّ الوظيفة الاساسية لصيغة **فُعِلَ** ومثيلاتها (**أُفعِل**، **فُعِّل**، الخ ...) عند جميع النحاة العرب، هي أن تكون علامة على عدم التنصيص على هوية القائم بالفعل أو مصدر الحدث، الذي يكون مذكوراً في شكل فاعل نحوي في الجملة التي فعلها على صيغة **فَعَلَ** (أفْعَلَ، فَعَّل، الخ ...) وغير مسمّى في الجملة التي فعلها على صيغة **فُعِل** المبنية للمجهول.

واذا سلّمنا بأن الجملة التي يحيل فاعلها النحوي على القائم بالفعل هي الأصل[7] واعتبرنا الى جانب الحالات التي يكون فيها الفعل متعديا تلك التي يكون فيها لازما أو متعديا بحرف، فإن العلاقة التحويلية بين المبني للمعلوم (1) والمبني للمجهول (2) يمكن تمثيلها كما يلي :

---

(7) مسألة ما اذا كان المبني للفاعل ام المبني للمفعول هو الأصل مسألة تقليديّة في النقاش بين النحاة العرب وكذلك الشأن بالنسبة للتأثير والتأثر في اللسانيات. إلا أنّ المعطيات الاحصائية (الجمل المبنية للمجهول أو التأثرية قليلة جدّا بالنسبة للجمل المبنية للفاعل أو التأثيريّة) والاعتبارات الصرفيّة (البنية التأثرية «موسومة» - marquée - والبنية التأثيرية «غير موسومة» non marquée) تدفع الى اعتبار البناء للفاعل أصلا ... ولكن تجاوز هذه الثنائية ممكن بارجاع البنيتين الى بنية مجرّدة مشتركة وهذا ما أميل اليه شخصيا.

(1) فَعَلَ + فَاعِل مرفوع + مُتَمِّم (منصوب)

← (2) فُعِل + مُتَمِّم (مرفوع)

ويدل القوسان المحيطان بعلامة الاعراب في «المتمم» على صبغتها الاختيارية حسب طبيعة هذا المتمم. فاذا كان المتمم مفعولا به كان منصوبا في (1) ومرفوعًا في (2)، أي أنه، في هذه الجملة الاخيرة، «يرث» عن فاعل الجملة (1) المحذوف محلّه الاعرابي وعلامته (الضمّة) وجميع الخاصيات النحوية والصرفية باستثناء معنى «الفاعلية». أمّا اذا كان المتمم جارا ومجرورًا أو ظرفا فانه يحتفظ بعلامة إعرابه أثناء تحوله من (1) الى (2). ويعني ذلك أن لدينا في كل من (1) و (2) جملتين ممكنتين :

• **الجملة** (1) **الأولى** : ضَرَبَ ضاربٌ عليًّا.

← **الجملة** (2) **الأولى** : ضُرِبَ عليٌّ

• **الجملة** (1) **الثانية** : سَارَ سائِرٌ [بالابل / يوم الجمعة]

← **الجملة** (2) **الثانية** : سِيرَ [بالابل / يوم الجمعة]

أما تمثيل الفاعل في كلا الوجهين من الجملة (1) باسم فاعل نكرة (ضاربٌ، سائرٌ) فالمقصود به هو التنصيص في هذه «القاعدة التحويلية» على أن القائم بالفعل موسوم في البنية النحوية المجرّدة ـ بنية الانطلاق ـ بسمة «اللاتخصيص» (**ضارب** = ضارب ما ؟ **سائر** = سائر مَا) وأن وجود هذه السمة ملازمة للفاعل هو الذي يجعل استعمال صيغة المبني للمفعول في (2) ممكنا. ولا تتناقض سمة «اللاتخصيص» هذه مع كون هوية القائم بالفعل يمكن أن تكون معروفة لدى المتكلم (وهي الحالة التي تكون فيها صيغة المبني للمفعول تعبيرا على نية إخفائها عن المخاطب)

ولكنها تسمح أيضا بإدراج الحالات التي يكون فيها القائم بالفعل مجهولا حقا لدى المتكلم.

ويمكن أن نخرج من هذه الصياغة الجديدة للعلاقة بين «المبني للفاعل» و«المبني للمفعول» بعدة استنتاجات أهمها :

أ - ان البنية التي اعتبرناها بنية الانطلاق هي البنية المجردة المشتركة بين صيغتي «المعلوم» و«المجهول»، وهي بنية يمكن أن يحمل فاعلها إحدى السمتين : [مخصّص] أو [غير مخصص]. فإذا كان الفاعل مخصصا فإن الجملة المجردة تُنجز في الكلام في شكل جملة فعلها مبني للمعلوم وفاعلها يحيل الى كائن معروف أو متاحة معرفته للمخاطب :

• **الجملة** (1) **الأولى** : ضَرَبَ [زيدٌ / أحدهم] عليّا

• **الجملة** ('1) **الثانية** : سار [الراعي / أحدهم] بالابل / يوم الجمعة

واذا لم يكن الفاعل مخصصا فإن الجملة يمكن انجازها على نحوين :

- بإبقاء الفعل على صيغة المبني للفاعل (فَعَل) مع فاعل نحوي لا يحيل الى كائن معين، كما في : **ضَرَبَ ضاربٌ زيدًا أو سَارَ سَائرٌ بالابل**

- باستعمال صيغة المبني للمجهول (فُعِلَ) مع حذف الفاعل وإحلال المفعول به محلّه اذا كان الفعل متعديا (كما في : **ضُرِبَ عليٌّ**) أو الاكتفاء بالمتممات من نوع الجار والمجرور والظرف (كما في : **سِيرَ بالابل** أو **سِير يوم الجمعة** أو **سير بالابل يوم الجمعة** ...)؛

ب - إن تطبيق «القاعدة» التحويلية» التي تحول المبني للفاعل الى مبني للمفعول تطبيق اختياري حتّى في صورة إضفاء سمة «اللاتخصيص» على الفاعل في «بنية الانطلاق» المجردة. وهذا يعني أنّ ما أسمّيه «الحجب» ليس مرتبطا بالضرورة باستعمال صيغة المبني للمفعول أو أنه على الاقل ليس متناقضا مع استعمال صيغة المبني للفاعل رغم وجود فروق بين الصيغتين في درجة الحجب وفي الوظيفة الخطابية ؛

ج - إن البنية النحوية للجملة التي فعلها على صيغة «فُعِل» تختلف باختلاف طبيعة الفعل : فإذا كان الفعل في بنية الانطلاق متعديا مباشرة الى مفعول كان للضمير المستكن (أو المستتر) في هذه الصيغة الصرفية علاقة اشتراك إحالي (coréférence) مع المفعول الذي يحتل المحل الاعرابي للفاعل، سواء أكان هذا الفاعل النحوي الجديد مذكورًا، كما في : **ضُرِبَ عليٌّ**، أو مقدرًا، كما في : **ضُرِبَ** (هو).

أما اذا كان الفعل في جملة الانطلاق لازمًا أو متعديا بحرف فإن الضمير المستكنّ في صيغة «فُعِل» هو **ضمير منعدم الإحالة تماما** كما سنرى بالتفصيل في الجزء الثاني من هذا البحث.

2. 2. I إن هذا التحليل للعلاقة بين المبني للفاعل والمبني للمفعول يمكن سحبه بسهولة على العلاقة الموجودة في لغات أخرى كالفرنسية مثلا، بين الجملة «التأثيرية» (phrase active) والجملة «التأثرية» (phrase passive).

فإذا افترضنا أن بنية الانطلاق تحتوي على فعل متعدّ من نوع «قتَلَ» (tuer) ومفعول به من نوع «جاك» (Jacques)، فإن الفاعل في هذه البنية يمكن أن يكون مخصّصا [+ Spécifié] أو غير مخصص [- Spécifié]. فإذا كان من النوع المخصّص مثل «شارل» (Charles) فإن البنية المعنية يتم إنجازها في شكل جملة تأثيرية مثل (3) أو جملة تأثرية مثل ('3) التي يحتل فيها الواقع عليه الفعل محل الفاعل النحوي ويأخذ فيها الفعل شكل صيغة

المفعول مسبوقة بفعل الكينونة (être + part. passé) في حين يعبّر فيها عن القائم بالفعل عند الحاجة (أي في حالات نادرة نسبيا) بواسطة مركب حرفي. واذا كان فاعل بنية الانطلاق من النوع غير المخصص، فان الجملة المنجزة تكون إما جملة تأثيرية فاعلها ضمير مبهم مثل «on» كما في (4) أو جملة تأثرية يحيل فاعلها النحوي على المقتول كما في ('4). أما اذا افترضنا أن فعل بنية الانطلاق لازم مثل «courir» (= جَرَى) أو متعدّ بحرف مثل «parler» (= تحدث)، فانها تنجز في شكل جملة تأثيرية من نوع (5) أو (6) إذا كان فاعلها مخصصا وتتجسم - إذا كان فاعلها غير مخصص - إما في صورة جملة تأثيرية فاعلها ضمير مبهم من نوع ('5) أو ('6) أو في في صورة جملة تأثرية فاعلها النحوي ضمير خاو، منعدم الاحالة (pron.impersonnel *il*) من نوع ("5) أو ("6) :

(3) Charles a tué Jacques	(قتل شارل جاك)
(3') Jacques a été tué (par Charles)	(قتل جاك [من طرف شارل])
(4) On a tué Jacques	(قتل قاتل [مجهول] جاك)
(4') Jacques a été tué	(قُتل جاك)
(5) Jacques a couru dans un stade	(جرى جاك في هذا الملعب
(6) Jacques a parlé de cette question	(تحدث جاك عن هذه المسألة)
(5') On a couru dans ce stade	(جرى جار [مجهول] في هذا الملعب)
(6') On a parlé de cette question	تحدث متحدث [مجهول] عن هذه المسألة)
(5") Il a été couru dans ce stade	(جُري في هذا الملعب)
(6") Il a été parlé de cette question	(تُحُدّث عن هذه المسألة)

وكما سبق أن رأينا في الفقرة (1.1) فان عدم توضيح هوية القائم بالفعل (أي عدم تخصيص الفاعل في البنية المجردة) هو القاسم المشترك بين الجمل المماثلة لـ (4) و ('4) و ('5) و ("5) و ('6) و ("6)، مما يجعل

الابنية في هذه الجمل أنواعا من «الحجب» متشابهة رغم تفاوتها في درجة هذا الحجب وفي الأغراض الخطابية. وحتى الجمل من نوع ('3)، التي تبدو بنيتها مختلفة عن بنية الجملة العربية ذات الفعل المبني للمجهول، فانها يمكن اعتبارها مثالا عن «حجب» يتبعه «كشف» لهوية القائم بالفعل، كما في **قُتِلَ عليٌّ، قتله زيد**، أي أن فيها فرعا للتخصيص عن الفاعل المعنوي ثم إعادة لهذا التخصيص.

I.2.3. ورغم ما قد يبدو من غرابة في هذا التحليل للعلاقة بين الـ "actif" والـ "passif" في الفرنسية بالنظر الى المعتاد في دراسات النحو الفرنسي، فإن الفكرة القائلة بأن صيغة الـ passif تدل بالأساس على اخفاء هوية القائم بالفعل موجودة لدى عدد من كبار اللسانيين والنحاة الفرنسيين وغيرهم.

فهذا «ما يّي» (Meillet) يؤكد أن «الدور الحقيقي» لهذه الصيغة «هو التعبير عن الحدث في الحالات التي لا يؤخذ فيها القائم بالفعل بعين الاعتبار»[8] وهذا «يسبرسان» (Jespersen) يذكر في طليعة الدواعي الخمسة الكامنة حسب رأيه وراء استعمال الصيغة في اللغة الانكليزية ثلاثة أسباب هي : عدم معرفة القائم بالفعل أو وضوح هويته في السياق الخطابي أو وجود أسباب خاصة لعدم الافصاح عن هذه الهوية[9]. وهي

---

(8) انظر بالخصوص مقاله «في خاصيات الفعل» (Sur les caractères du verbe) في المرجع رقم 24، ص 175. 198 وخاصّة ص 196. حيث يقول أيضا : «نجد في اللاتينية "**dicit**" (يقول) عند ما يتعلق الامر بشخص يتكلم والى جانب ذلك نجد "**dicitur**" (يقال) للدلالة على قائل مبهم. و"dicitur" مرادفة لـ «يقولون» بفاعل نكرة وللفرنسية "on dit". وفيما يتعلق بالسامية، حيث البناء التأثري جزء لا يتجزأ من النظام الفعلي فإن هذا الدّور قد اعترف به النحاة العرب».

(9) انظر كتابه «فلسفة النحو» ـ الترجمة الفرنسية ـ [المرجع عدد : 28]، ص 228 ـ 230.

نفسها الأسباب التي اعتادت عليها كتب النحو العربية منذ قرون[10]. وهذا «بوتيي» (Pottier) يستنتج من المقارنة بين الفرنسية والاسبانية أن وظيفة الصيغة المعنيّة ومثيلاتها هي «نزع الشخصنة» (impersonnalisation) عن الحدث[11] ؛ وهذا «شوميان» (Shaumjan)، مؤسس نظرية «النحو التطبيقاتي» (grammaire applicative) يقدم نظاما تحليليا مدققا مبنيا أساسا على نفس الاعتبارات[12]، الخ ...

3. I اختزال البنية التعلقية للفعل

ولئن كان المجال لا يسمح بالتعمّق في المستندات النظرية وادراج الآمثلة الحية من لغات مختلفة، فإنه بالامكان القول بأن هناك فضاء في اللسانيات العامة يمكن لنظرية مستوحاة من النحو العربي كنظرية «الحجب» أن تحتله، شريطة أن يربط فيها الجانب الوظيفي المعنوي الخطابي بالجانب النحوي والمعجمي، بحيث يتضح ان الصيغ الصرفية المختلفة من لغة الى أخرى (أو حتى في اطار نفس اللغة) ما هي إلّا علامات على آليات مجرّدة متشابهة إن لم نقل متضاهية الى حدّ بعيد.

---

(10) طالع تلخيصا لهذه الأسباب في تعليقات محمد محيي الدين عبد الحميد على «شرح الفية ابن مالك» لابن عقيل [المرجع عدد : 3، ص 499] : «... وأما الاسباب المعنوية [لحذف الفاعل] فكثيرة : منها كون الفاعل معلوما للمخاطب ... ومنها كونه مجهولا للمتكلم ... ومنها رغبة المتكلم في الابهام على السامع ... ومنها خوف المتكلم في اظهار تعظيمه للفاعل ... ومنها رغبة المتكلم في اظهار تحقير الفاعل ... ومنها حذف المتكلم من الفاعل ... ومنها خوف المتكلم على الفاعل ...».

(11) انظر بالخصوص مقاله «اللاشخصنة في الفرنسية والاسبانية» [المرجع رقم 9 (a)].

12) حول نظرية «شوميان» راجع مجلة Langages، عدد 33 والترجمة الانكليزية لكتابه التأسيسي «مبادئ اللسانيات البنيوية» [المرجع عدد 14] وكتابه الوارد في المرجع رقم 14 (b). أمّا عن تطبيق هذه النظرية على البنية «التأثيرية» فالمرجعان الاساسيان هما المرجعان رقم : 12 (a) و 12 (b) : بالاشتراك مع «ديكلي» (Desclés) و«قنتشيفا» (Guentchéva).

I .3.1. فإذا أردنا ان نجد لهذه الوظيفة المعنوية والخطابية المتمثلة في عدم الإفصاح عن هوية القائم بالفعل أو ماهية مصدر الحدث ركيزة على مستوى البنية المعجمية والنحوية للغة، فإن في «نحو التعلقات» (Syntaxe valencielle) كما وصفه اللساني الفرنسي «تينيار» (Tesnière) ما يسمح ببناء منظومة نظرية متكاملة تتمحور حول مفهوم «البناء» أو الـ «دياتاز» (diathèse) كضرب من ضروب التغيير في عدد متعلقات الفعل، أي عدد الأطراف المعنية بالحدث والتي يسمّيها «تينيار» : "les actants" أو «الفواعل»[13].

لكل فعل في المعجم نظام تعلقي فاعلي (structure actancielle) خاص به بحسب عدد متعلقاته : فالأفعال اللازمة لها متعلق وحيد هو الفاعل ولذلك سميت «أحادية التعلق» (verbes monovalents) وللأفعال المتعدية تعديا مباشرا متعلقان هما الفاعل والمفعول به ولذلك سميت ثنائية التعلق (v. divalents) وكذلك الشأن بالنسبة للمتعدية بحرف (من نوع ل - وغيره) لأنه يتعلق به الفاعل و «المفعول له»، أما الأفعال ذات المفعولين فإنها «ثلاثية التعلق» (v. trivalents).

وينطبق «البناء» المسمّى بالدياتاز على جميع هذه الأنظمة التعلقية فيغيرها :

---

(13) راجع كتابه «مبادئ النحو البنيوي» المرجع عدد : 10، ص 238 ـ 282. عن تطبيق نظرية تينيار على الانكليزية انظر :
D.J. Allerton : "valency and the English verb" .London 1982
وعن الفرنسية.
راجع كتاب اللساني الألماني هـ. «فاينريش»
(**Grammaire Textuelle du français**, Paris, 1989). : (H. Weinrich)

1 ـ **بالزيادة** كما في (7) مقارنة بـ (6) :

(6) عَلِمَ زيدٌ أن عليًا قادمٌ
متعلق أول متعلق ثان
1 2

(7) أعْلَمَ محمّدٌ زيـدًا أن عليا قادم
1 2 3

2 ـ أو **بالتقليص** (أي بالتنقيص من عدد المتعلقات) وهو ما يمكن تسميته «**اللااختزال التعلقي**»: انها عمليّة يمكن أن تعني أيّا من هذه المتعلقات :

• **اختزال المتعلق الثالث**، كما في (9) مقارنة بـ (8) :

(8) باع صالحٌ حمارًا لعليّ
1 2 3

(9) باع صالحٌ حمارًا
1 2

• **اختزال المتعلق الثاني**، كما في (11) مقارنة بـ (10) :

(10) أكل صالحٌ الفطيرة
1 2

(11) أكَلَ صَالحٌ
1

• **اختزال المتعلق الأول**، كما في (12) مقارنة بـ (10) :

(12) أُكِلَتِ الفطيرةُ
1

(فنحن إذن في (11) إزاء مثال لفعل «لم يسمَّ مفعوله» وفي (12) ازاء مثال لفعل «لم يسمَّ فاعله». وهما نمطان من الاستغناء يمكن اعتبارهما

من الناحية الوظيفيّة الخطابية وجهين متقابلين لعمليّة واحدة هي عمليّة «الحجب»: «حجب المفعول» (أو الواقع عليه الفعل) و «حجب الفاعل» (أو القائم بالفعل).

I.3.2. وقد تفطّن النحاة العرب الى هذا التقابل فأقاموا مقارنة بين نوعي الاستغناء أو الحذف وربطوهما بنيّة المتكلم في الإخبار عن أحد المتعلّقين - (المفعول أو الفاعل) دون الآخر. إنها فكرة نجدها على درجة عالية من الوضوح في «المفصّل» للزمخشري وشرحه لابن يعيش.

• يقول الزمخشري :

. «وحذف المفعول به كثير وهو في ذلك على نوعين أحدهما أن يحذف لفظًا ويراد معنى وتقديرًا والثاني أن يجعل بعد الحذف نسيا منسيا كأن فعله من جنس الأفعال غير المتعدية كما ينسى الفاعل عند بناء الفعل للمفعول به».

• ويعلّق ابن يعيش :

«وشبّهه بالفعل اذا بني للمفعول من حيث لم يكن الغرض الإخبار عن الفاعل وإنما كان الغرض بيان من وقع به الفعل فصار الفاعل نسيا منسيا واشتغل الفعل بالمفعول وارتفع وتم الكلام به من غير تشوف الى سواه فكذلك قد يكون الغرض الاخبار عن الفاعل لا غير من غير تعرض لذكر المفعول» (الجزء الثاني، ص 40).

I.3.3. إن الواضح من هذين المقتطفين هو أن نوعي حذف المفعول به نوعان من الظاهرة التي سميتها «الحجب»، وهما لا يختلفان الا من حيث درجة الحجب، التي ترتفع مع النوع الثاني الى حدّ تحويل الفعل المتعدّي الى فعل لازم لا يختلف جذريا عن الافعال المعتادة اللزوم.

ولكن يمكن القول أيضا إن هذا التحوّل في الفعل المحذوف مفعولهُ يحصل بطريقة مشابهة في الفعل المحذوف فاعله، لأن بناء الفعل للمفعول، بوصفه اختزالا لبنيته التعلقية، يجعل منه فعلا أحادي التعلق بعد أن كان ثنائي التعلّق، هو ضرب من ضروب «التلزيم» (intransitivisation). فجملة من قبيل : **قُتِلَ زيدٌ** لا تختلف عن جملة من نوع : **ماتَ زيدٌ** (التي فيها أيضا معنى «المفعولية») إلاّ في كون **قُتِلَ** يفترض وجود كائن غير «زيد» قام بالفعل (أي **القاتل**).

وبإمكان الاختزال التعلقي أن يطبّق على الفعل «المحذوف مفعوله» فيحوّله من فعل أحادي التعلّق الى فعل «منعدم التعلق» (verbe avalent) كما في : **أكلَ عَلَى مَائدَتِي**، وكذلك الشأن بالنسبة الى الأفعال اللازمة القابلة للاختزال بالبناء للمجهول (أي غير الافعال من فصيلة مَرِضَ وحَسُنَ التي يمكن اعتبارها مبنيّة معنويا للمفعول) كما في : **جُلِسَ على سَرِيرِي**.

وانطلاقا من مثل هذه الحالات التي لا يحيل فيها الضمير المستكن في الفعل المستعمل بصيغة **فُعِل** الى أي كائن محدد فيصير **الفعل** مجرّد تعبير على الحدث منظورا اليه في حدّ ذاته بقطع النظر عن أي قائم به أو أي متسبب في حدوثه، فإنه بالامكان تناول عبارة «مبني للمفعول» كعبارة مزدوجة الدلالة تعني فيها كلمة «المفعول» تارة الكائن الواقع عليه الفعل وطورا الفعل في حد ذاته، أي **الحدث المحض**.

وبذلك يكون البناء للمفعول، من حيث أنه تركيز للانتباه على «المتأثر» بالحدث أو على الحدث أو على كليهما بقطع النظر عن الكائن «المؤثر»، هو الوسيلة التي يتم بها حجب هوية هذا الكائن أو ماهيته ـ أو حتى مجرد وجوده كما سيأتي ـ عن الانظار.

* * *

II. الجزء الثاني

قراءة نقدية في مفهوم المبني للمجهول

تبدو ظاهرة «الحجب» كما قدمتها الى حد الآن متناغمة مع مفهوم «المبني للمجهول» و«المبني للمفعول»، الا أنها في حاجة الى مزيد البلورة برفع ما من شأنه أن يغشيها أو «يحجبها» من المفاهيم النحوية المتصلة بها كمفهوم «نائب الفاعل» وبتعزيز تركيز مفاهيم أخرى غير متصلة بها تقليديا كمفهوم «ضمير الشأن».

1. II. حول مفهوم «نائب الفاعل»

II.1.1 ما دام مفهوم نائب الفاعل يطبق على الجمل ذات الأفعال المتعدية والتي لم يتعرض فيها المفعول به المعنوي الى الحذف، فإنه لا يطرح أي اشكال، لأن الفرق الوحيد بين «الفاعل» ونائبه هو فرق معنوي يتلخّص في الفرق بين دور «الفاعلية» ودور «المفعولية» (مثلا في الفرق بين «ضاربية» «زيد» و«مضروبية» علي في قولك : ضَرَبَ زيدٌ عليا وقولك ضُرِبَ عليٌّ). فالفاعل ونائبه :

1 ـ يحتلان نفس الموقع بالنسبة للفعل في السياق الخطي للجملة ؛
2 ـ يحتلان نفس المحل الاعرابي ويحملان نفس العلامة الاعرابية (أي الضمّ).
3 ـ تربطهما بالفعل نفس العلاقة الاسنادية، أي علاقة المسند اليه بالمسند ؛
4 ـ تربطهما بالفعل نفس العلاقة التطابقية كالمطابقة في الجنس ؛
5 ـ يحافظان على هذه العلاقة التطابقية، مع زيادة المطابقة في العدد، عند تحويل الجملة الفعلية الى جملة إسمية أي عند تحويل كل من الفاعل أو نائبه الى مبتدأ ؛

(1) ضَـرَب الأولاد البناتِ ← ('1) الأولادُ ضَـرَبُوا البنات

(2) ضُرِبَ (تِ) البناتُ ← ('2) البناتُ ضُرِبْنَ

II .1.2. ولكن إذا غادرنا عالم الأفعال المتعدية مباشرة الى مفعول صار من الصعب قبول هذا المفهوم ـ مفهوم نائب الفاعل ـ رغم ما دأبت عليه جل كتب النحو من اعتبار المختص من المصادر والظروف المتصرفة والمجرورات (أو حتى المركبات الحرفية عند ابن مالك مثلا) المصاحبة للفعل المبني للمفعول والمحذوف مفعوله، نائب فاعل في محل رفع :

«ومثال القابل من كل منها [النيابة الفاعل] قولك : سِيرَ يومُ الجمعة، **وضُرِبَ ضربٌ شديدٌ ومُرَّ بزيد**» (شرح ابن عقيل على الفية ابن مالك، ص 508)

فإذا صرفنا النظر مُؤقتا عن المصادر المختصّة وتناولنا مثلا الظروف المختصّة من نوع «يوم الجمعة»، من زاوية النقاط الخمس المشتركة بين الفاعل ونائبه، وجدنا أن اثنتين فقط من هذه النقاط يمكن أن يشترك فيهما الظرف مع الفاعل وهما النقطتان (1) و (3) ـ هذا اذا قبلنا أن الجملة : **سير يوم الجمعة** نوع من الجواب عن سؤال ضمني مثل : «**ماذا وقع يوم الجمعة** ؟» ـ في حين ان الاشتراك بين الظرف والفاعل في الخاصيتين (4) و (5) محل شك شديد، مما يجعل ضم «يوم» في سِيرَ **يَوْمُ الجمعة** (النقطة ـ I ـ) ضربًا من التعميم السياقي ناتجا عن القرار النظري المسبّق باعتبار الظرف نائب فاعل في محل رفع، أي ضربا مما تسميه اللسانيات المعاصرة "artefarct" لا تجسيما لقاعدة لغوية حقيقيّة.

ويكفي للدلالة على ذلك تعويض «يوم» بـ «ليلة» مثلا، وهوتعويض يجعلنا أمام جملة مشكوك في سلامتها من نوع :

؟ ؟ سِيرَتْ لَيْلَةُ الجمعة

وكذلك الشأن بالنسبة لنظيرتها الاسمية :

؟ ؟ أما ليلةَ الجمعة فقد سيرت[14].

فهل نحن إزاء خلط لا مبرر له بين مستويين في التحليل هما مستوى «الاسناد» ومستوى «العمل» و«المحل» ؟ أم أن تناول النحو العربي لمسألة الوظيفة النحوية على أنها أساسا (إن لن نقل مطلقا) قضية «محل» محدد في السياق الخطي للجملة هو الذي يؤدّي بالضرورة الى الحاجة الى نائب فاعل واضح المعالم ؟

1.3 . II. ومهما كان نوع الجواب على هذين التساؤلين فإن ظاهرة صرفية هامة تستوجب التفسير ويمكن تفسيرها في إطار نظري غير بعيد جوهريا عن التمشي الحقيقي للنحو العربي. هذه الظاهرة هي بقاء الفعل المبني للمجهول على صيغة ضمير الغائب المذكر المفرد في كل الحالات اذا كان فعلا لازما أو متعديا بحرف أو متعديا حذف مفعوله، كما في «سيرَ صباحًا» و «مُرَّ بزَيد» و«شُرِبَ في كَأسِي».

انها ظاهرة يمكن تفسيرها بتوخي أحد الاتجاهين الآتيين :

- اتجاه أول يعتمد على مفهوم «المصدر» والمفعول المطلق
- واتجاه ثان يقوم على قراءة ملائمة لمفهوم «ضمير الشأن»

2. II. المصدر ونائب الفاعل

يسمح الاعتماد على مفهوم المصدر بالمحافظة على مفهوم «نائب الفاعل» مع ضمان تناغمه مع التمشي العام لنحو المحلات : فلما كان

---

(14) هاتان الجملتان يمكن أن تعنيا ان السير استغرق ليلة الجمعة بكاملها، كما أن «سير فرسخان» يمكن أن تعني أنّ مسافة السير فرسخان، وفي هذه الحالة تكون «ليلة الجمعة» (وكذلك الفرسخان) مفعولا به لا ظرفا - بمعنى «كان تاريخ السير يوم الجمعة». ولا ينطبق تحليلنا بطبيعة الحال إلاّ على هذا المعنى الثاني للجملة.

المصدر صيغة ممكنة لكل الافعال وكل فعل قابلا للاستعمال متبوعا بمفعول مطلق[15]، صار بالامكان أن يحتل محل نائب الفاعل كل مفعول مطلق يستجيب الى شروط منها التخصيص كما في : **ضُرِبَ ضربٌ شديدٌ**.

وبالامكان ان يكون هذا المفعول المطلق نائب الفاعل ضمنيا أي ممثّلا بالضمير المستتر المكتمن في الفعل المبني للمجهول كما في :

«**وَحِيلَ بينَهُم وبين ما يشتَهُون**» (سبأ، الآية 53)
(أي : «وَحِيلَ الحؤولُ»)
لذلك يمكن استخراج القاعدة التالية :

كل فعل في صيغة فُعِل مصحوب بنائب فاعل يكون :

1 ـ اما مفعولا به أصليا، ظاهرا أو مقدرا، اذا كان الفعل المعني فعلا متعديا نحو : «**ضُرِبَ زيدٌ**» و«أما زيدٌ **فقد ضُرِبَ**».

2 ـ واما مفعولا مطلقا أصليا، ظاهرا أو مقدرًا، اذا كان الفعل المعني فعلا لازما أو متعديا بحرف أو متعديا مباشرًا حذف مفعوله (أي استعمل كفعل لازم) نحو : «**ضُرِبَ ضربٌ شديدٌ**» و «**سِيرَ صباحًا**» و«**مُرَّ بزَيْدٍ**» و«**شُرِبَ في القدَحِ**».

واننا لنجد في النصوص العربية أمثلة عديدة لأفعال متعدية مبنية للمجهول تستعمل أحيانا مصحوبة بنائب فاعل ظاهر وأحيانا أخرى بمفردها لكن مع إمكانية تقدير نائب فاعل مصدري (انظر علامة Ø في الامثلة ـ ب ـ الآتية) :

---

(15) يقول ابن يعيش [شرح المفصّل، الجزء 1، ص 110] : «اعلم ان المصدر هو المفعول الحقيقي لأن الفاعل يحدثه ويخرجه من العدم الى الوجود وصيغة الفعل تدل عليه والافعال كلها متعدية اليه سواء كان يتعدّى الفاعل أو لم يتعدّه ... وليس كذلك غيره من المفعولين، الا ترى أن زيدًا في قولك ضربت زيدًا ضربا ليس مفعولا لك في الحقيقة ... وانما قيل له مفعول على معنى أن فعلك وقع به ...»

- أ - وأُوحيَ اليّ هذا **القرآنُ** (الأنعام، الآية 19)
- ب - وقال أُوحِيَ اليّ Ø ولم يوحى اليه شيء (الأنعام، الآية 93)
- أ - وان كان طائفة منكم آمنوا بما أُرسلتِ به (الأعراف، الآية 85)
- ب - فلنسألنّ الذين أرسلَ اليهم **Ø** ولنسألنّ المرسلين (الأعراف، الآية 5)
- أ - و**نُودُوا** ان تلكم الجنة (الاعراف، الآية 41)
- ب - يا أيها الذين آمنوا اذا نُودِيَ **Ø** للصلاة من يوم الجمعة (الجمعة، الآية 9)

II .3. نحو تعديل لمفهوم «ضمير الشأن»

عوض اعتبار ضمير الغائب المذكر المفرد المستكن في صيغة **فُعِلَ** للأفعال اللازمة وشبه اللازمة ضميرًا مقدرا بضمير المصدر المفهوم من الفعل كما ذهب الى ذلك ابن درستويه والسهيلي وأبو علي الرندي في اطار اللابقاء على مفهوم نائب الفاعل، فإنه بالامكان الانطلاق من فهم معدّل لما يسميه النحاة «ضمير الشأن» (أو «ضمير المجهول» على اصطلاح أهل الكوفة). فهذا الضمير يؤول في المفهوم التقليدي «كأنه راجع في الحقيقة الى المسؤول عنه بسؤال مقدّر [...] ويسميه الكوفيون ضمير المجهول لأن ذلك الشأن مجهول لكونه مقدرًا الى ان يُفسر، ولا يعود الى ضمير من الجملة التي هي خبره» (شرح الرضي على الكافية، الجزء II، ص 464 - 467) أي أنه يعود الى مُفسّر ضمني سابق للتلفظ به من ناحية وله تفسير لاحق له في شكل جملة خبرية من ناحية أخرى :

(سؤال مقدر : «ما الشأن؟») ... **هو** **الأمير قادم**

مفسّر ← ضمير ← جملة

شأن خبرية

مبتدأ

أما الضمير «المحايد» المستكن في الفعل اللازم المبني للمجهول فلا يحيل على شيء سابق أو لاحق ولا يُخْبَر عنه ولا يمكن ربطه بضمير شأن سابق له كما في «إنه سِيرَ **يوم الجمعة**» لأن علاقة المساواة قائمة بين هذا الضمير الظاهر (ـهُ) والجملة التي بعده **ككل** لا بينه وبين الضمير المستكن في «سِيرَ» وحدهُ.

ومن جهة أخرى يمكن أن يكون ضمير الشأن مؤنثا ـ ويسمّى عندئذ «ضمير القصة» كما في : «**إنها لا تعمى الابصار**» ـ في حين ان الضمير المستكن في الفعل اللازم المبني للمجهول لا يؤنث له الفعل كما سبق أن بيّنّا.

ولكن رغم ذلك ليس هنا لك حرج في تعديل مدلول عبارة «ضمير الشأن» بناء على ان هذا الضمير ليس كغيره من الضمائر لكون أقصى ما يمكنه أن يحيل اليه كائن **كلامي بحت**، بحيث يمكن اعتبار حصيلة اندماج السمات الثلاث : «غائب» + «مفرد» + «مذكر» (أي الضمير المستكن في اللازم المبني للمجهول) درجة قصوى من التجريد بلغها ضمير الشأن حتى صار ضميراً غير عائد، أو «خاويا»، أو غير حقيقي، أي نوعا من «الضمير الكوني» ("personne d'univers")على اصطلاح اتباع «قِيّوم» (G. Guillaume) في اللسانيات الاوروبية الحديثة[16].

وبالعودة الى مفهوم «الإختزال التعلقي» يمكن القول ان صيغة المبني للمجهول هي بالأساس صيغة اختزالية وظيفتها الرئيسية اختزال متعلقات الفعل بحذف المتعلق الأول، بما يحوّل الفعل المتعدي (ثنائي التعلق) الى فعل أحادي التعلق ويجعل من الفعل اللازم (أحادي التعلق) فعلا «لا تعلّقيا» (avalent).

---

(16) حول مفهوم «ضمير الكون» في اللسانيات القيّومية، انظر ج. موانيي (G. Moignet) المرجع رقم : 26، ص 93. ـ 94.

ففي الحالة الأولى يحتل المتعلق الثاني مكان المتعلق الأول المحذوف ويأخذ جميع خاصياته النحوية والحرفية (باستثناء خاصياته المعنوية). أما في الحالة الثانية فإن الوظيفة النحوية للمتعلق الأول (والوحيد) المحذوف يقوم بها ضمير غير عائد هو ضمير الشأن **المجرد** كما أوّلته.

ان هذا التأويل لضمير الشأن نتيجة منطقية لاعتبار صيغة «فُعِلَ» أساسًا كعلامة على عدم تخصيص هوية القائم بالفعل : فبما أن الاختزال التعلقي ينطبق على فعل أحادي التعلق - أي نظرًا لعدم وجود أي متعلق آخر يستطيع احتلال «المحلّ» النحوي للفاعل - فإن هذا المحل الشاغر : يحتله آليا الضمير المستكن في الفعل والذي يشكل «الدرجة الصفر» للضمير أي أنه ضمير مطلق يصح أن تطلق عليه عبارة «اللاضمير» التي يستعملها «بنفنيست» (Benveniste) لنعت ضمير الغائب بوجه عام[17].

II.4 فعل بلا فاعل ؟

وخلاصة ما سبق أن هذه القراءة للضمير المستكن في **الأفعال اللازمة** وشبه اللازمة المبنية للمفعول تنتج عنها إعادة النظر جديا في **المفهوم** التقليدي لنائب الفاعل.

فرغم أن هذا المفهوم يسمح بالتفريق بين الخصائص النحوية (الوظيفة) والخصائص المعنوية للإسم المرفوع المصاحب للفعل ويأخذ بعين الاعتبار كون صيغة «فُعِلَ» لا تكاد ترد بمفردها في الجملة، الا أنه من شأنه أن يكون رغم ذلك سببا في نوع من الخلط المصطلحي من ناحية وحاجزا نظريا من ناحية أخرى :

---

(17) انظر إ. بنفينيست (E. Benveniste) وخاصّة المقال «بنية العلاقات الشخصنية في الفعل» (Structure des relations de personne dans le verbe) في الباب 18 من الجزء الاول من كتابه إالمرجع عدد 8إ، ص 228 ، ونحن نستعمل عبارة «اللاضمير» هنا في معنى أقل شمولا ...

- فهو يطمس ما الإسم المرفوع المصاحب لصيغة «فُعِلَ» من تساو وظيفي مع الاسم المرفوع المصاحب لصيغة «فعلَ» وكأنّ الأول أقل «فاعلية» نحويا - من الثاني، كما يولي أهمية مفرطة للمحلات بوصفها مواقع شكلية في البنية السطحية للجملة؛

- وهو يمنع نظرية «المبني للمجهول» من استنفاذ كل إمكانياتها المتاحة منطقيا بوصفها نظرية لظاهرة اللاتخصيص، و«اللاشخصنة» (impersonnalisation).

أما فرضية ضمير الشأن المجرد فإنها تسمح بتفسير بقاء الفعل اللازم أوشبه اللازم المبني للمجهول على صيغة الغائب المجرد المذكر وتربط بين هذا اللاتغيّر وعدم تخصيص هوية القائم بالفعل، كما تعني أن كل فعل، سواء أكان مبنيا للمعلوم أم مبنيا للمجهول، يفترض أن يكون له فاعل نحوي منفصل عنه و / أو مستكنّ فيه.

إن كل التحاليل التي قدمتها في سياق مناقشة مفهوم «نائب الفاعل» تتنزّل أساسا في نفس الاطار النظري الذي يشترط أن يكون لكل فعل فاعل أو نائب عن الفاعل.

فسواء اعتبرنا الجمل من نوع «سير يوم الجمعة» جملا مكوّنة من (1) فعل مبني للمجهول + نائب فاعل ظرفي (مرفوع)، أو من (2) ف.م.م. + نائب فاعل مستتر تقديره ضمير منفصل عائد على (السّير) + ظرف، أو من (3) ف.م.م. فاعله ضمير شأن مجرد مستكن فيه + ظرف، فإننا في جميع هذه الحالات الثلاث نحاول إيجاد مكوّن نحوي من شأنه أن يحتل وظيفة الفاعل أو ما يضاهيها.

ولكن بالامكان توخي تمشّ نظري آخر يعتبر «ببساطة» أن الفعل في جملة من هذا القبيل هو فعل بلا فاعل، بخلاف الجمل من نوع «ضُرِبَ زيدٌ» أو «أما زيد فقد ضُرِبَ» حيث الفاعل النحوي اسم

(زَيدٌ) أو ضمير مقدّر (هُوَ). بل إن تمشيا كهذا يبدو أكثر تلاؤما مع منطق النحو العربي من جهة ومع جوهر هيكلة نظام الفعل في اللغة العربية من جهة أخرى :

1 ـ انه متناغم مع مفهوم «الضمير» بوصفه علامة عن «مُضْمَر» (مخفي) يفترض امكانية «الاظهار» أو التقدير. ولما انتفت الحاجة الى ايجاد فاعل انتفت أيضا الحاجة الى افتراض ضمير مستكن من نوع «ضمير الشأن المجرّد» الذي تعرضنا اليه والذي يتناقض مع حدّ الضمير من منظور النحو العربي الكلاسيكي ؛

2 ـ انه مطابق لمنطق مقولة المبني للمفعول بما لكلمة «مفعول» من دلالة مزدوجة : فالفعل في صيغة «فُعِلَ» مبني للمفعول به في جمل مثل **ضُرِبَ زَيدٌ** ومبني «للمفعول الحقيقي» ـ أي الفعل ـ في جمل من نوع «**سِيرَ (يوم الجمعة)**». وعلاوة على ذلك، يضمن هذا التحليل تطابقا بين مختلف الجوانب (الجانب النحوي والجانب المعجمي والجانب المعنوي) في عملية «اختزال البنية التعلقية»، حيث إن حذف المتعلق الوحيد للفعل يتزامن مع حذف فاعله النحوي.

3 ـ انه يجعل من صيغة الغائب المفرد المذكر مجرّد علامة على «فعلية الفعل» ـ إن صح التعبير ـ وهو ما تؤكده استحالة ورود أي فعل في المعجم العربي بدون أن يكون على مثل هذه الصيغة[18].

---

(18) ما نقوله هنا عن الفعل العربي اللازم المبني للمفعول ينسحب أيضا على الأفعال المائلة في لغات مثل اللاتينية تلك صيغة مختصة للفعل غير «المتصرّف (l'infinitif) والملفت للنتباه ان النحاة اللاتينيين من أمثال «بريسيان» (Prisien) كانوا قد انشغلوا هم أيضا طويلا بالبحث عن «فاعل» للأفعال من قبيل **Curritur** (يُركَضُ) أو **itur** (يُذهب). انظر مقال ف. «ديبورد» (Desbordes) في كتاب «ماَيار» (M. Maillard)، المرجع عدد 23 وينزع الباحثون المعاصرون في النحو اللاتيني الى اعتبار أفعال كهذه أفعالا «بلا فاعل» (verbes asubjectaux) ، راجع في هذا الصّدد مقال «مايّار»، المرجع نفسه، ص + 227 ـ 254).

ومهما يكن من أمر فان صيغة الغائب المفرد المذكر، حتى اذا نظر اليها كمجرد تجسيم للشرط الأدنى لفعلية الفعل، تبقى في حاجة الى تفسير، بما يسمح لافتراض «ضمير الشأن المجرد» بوصفه «الدرجة الصفر» لمفهوم الضمير بالمحافظة على كامل مشروعيته.

III. الجزء الثالث

تطبيق عملية «الحجب» يتجاوز

حدود صيغة «المبني للمجهول»

إذا كانت الوظيفة الاساسية لصيغة «المبني للمجهول» هي غض النّظر عن القائم بالفعل الى درجة جعله «نسيا منسيا» كما يقول ابن يعيش، مما يسمح بتركيز الاهتمام على الواقع عليه الفعل (مبني «للمفعول» في المعنى الأول للكلمة كما في **ضُرِبَ زَيْدٌ**، أو على الحدث في حد ذاته (مبني «للمفعول» في المعنى الثاني للكلمة كما في **سِيرَ صَبَاحًا**)، فانه بالامكان اعتبار صيغ أخرى، صرفية ـ معجمية أو نحوية، وسائل مماثلة الى حد ما لأداء نفس الوظيفة الخطابية، وبالتالي إدراج تلك الوسائل في باب «الحجب».

III . 1 «أفعال المطاوعة» وما يشابهها في لغات أخرى

III . 1. 1. ان الافعال التي تدرجها كتب النحو في باب «أفعال المطاوعة» والتي هي صيغ اشتقاقية (أي أفعال مشتقة من أفعال) يمكن اعتبارها وسائل صرفية ـ معجمية لـ «حجب» هوية القائم بالفعل بوجه من الوجوه وتركيز الاهتمام على المفعول من جهة ولاختزال البنية التعلقية للفعل الأصلي من جهة أخرى.

فالأفعال من نوع «انْفَعَلَ وتَفَعَّلَ وافْتَعَلَ وتَفَعْلَلَ ...» تدل على حدث معين هو نتيجة لحدث آخر تعبر عنه أفعال من نوع «فَعَلَ وأَفْعَلَ وفَعَّلَ

وفَعْلَلَ ...،، بحيث يتسنى لمفاعيل هذا النوع الأخير من الأفعال أن تكون فواعل الأفعال الأولى المشتقة منها، تماما كما هي الحال بالنسبة الى صيغة المبني للمجهول التي تسمح لمفعول الفعل فيّ صيغة «فَعَلَ» بأن يصبح فاعلا للفعل نفسه في صيغة «فُعِلَ». لذلك يمكن تلخيص عملية «الحجب» على النحو التالي (ح = علامة الحجب) :

(1) فعل + اسم 1 مرفوع + إسم 2 منصوب

← ('1) فعل ح + اسم 2 مرفوع

فاذا كان الفعل في الجملة (1) من نوع «كَسَرَ» مثلا، فانه يصبح في ('1) «**كُسِرَ**» أو «**انْكَسَرَ**»، واذا كان «كَسَّرَ» «يصير «**كُسِّرَ**» أو «**تَكَسَّرَ**» ؛ واذا كان «ملأ» يصير «**مُلِئَ**» أو «**امْتَلأَ**» ؛ واذا كان «**خَلْخَلَ**» يصير «**خُلْخِلَ**» أو «**تَخَلْخَلَ**»، الخ ...

لكن تجدر الملاحظة أنّ مثل هذا التشابه في عملية حجب «القائم بالفعل» والتنقيص في عدة متعلقات الفعل لا يعني أنّ هناك ترادفا مطلقا بين بناء الفعل للمجهول، الذي هو عملية صرفية نحوية، وبين اشتقاق أفعال المطاوعة، الذي هو عملية صرفية ـ معجميّة أساسًا.

ومن الناحية المعنوية تعني صيغة «**فُعِلَ**» دائما وجود قائم بالفعل أو مصدر للحدث «خارج» عن المتأثر بالحدث ومتميز عن الحدث، في حين لا يفهم من الأفعال المشتقة دائما وجود مثل هذا الكائن المختلف عن الفاعل النحوي ... ذلك أن القائم بالفعل أو مصدر الحدث في هذه الافعال قد يكون موجودًا في «داخل الحدث»، يؤثر ويتأثر في نفس الوقت كما بيّن ذلك «بنفنيست» في تحليله لما يسمّى بالبناء الوسيط (voix moyenne) في الهندو ـ أوروبيّة.

ففي الجملة (2) لا يفترض الحدث بالضرورة تدخل قوة خارجة عن الكائن الذي يحيل اليه الفاعل النحوي حيث إنّ «الجمع» يمكن أن يتفرق

من تلقـاء نفسـه. ولكن هذه «التلقائية» غير موجـودة مبدئيا في الجملة ('2) :

(2) تَفَرَّقَ الجمْعُ ≠ ('2) فُرِّقَ الجمْعُ

الا أن مثل هذه الفروق المعنوية الهامّة لا تمنع من اعتبار أفعال المطاوعة المشتقة مظهرا من مظاهر الاختزال التعلقي وظيفته المعنوية إدخال نوع «من الخلط» على ملامح القائم بالفعل، بحيث يمّحي الفرق بينه وبين الواقع عليه الفعل (كما في الجملة (2)) أو تغيب فكرة الفاعلية تماما فيقدم الحدث بوصفه «حادثا بدون محدث» وواقع على كائن هو متأثر مطلق :

(3) تَجَمَّدَ النَّهْرُ وانقَشَعَ الضبابُ

فنحن إذن أمام ظاهرة لغوية هي حجب القائم بالفعل سواء بإخفاء هويته مع افتراض وجوده (في المبني للمجهول) أو بطمس معالم الفاعلية الى درجة يمكن أن يصبح فيها افتراض وجود قائم بالفعل أمرا مستحيلا. وهي ظاهرة تنعكس في النظام الصرفي ـ النحوي أو الصرفي ـ المعجمي ـ النحوي، في ما يمكن اعتباره ضربا من ضروب تحويل الأفعال المتعدية الى أفعال لازمة، أو بالأحرى ضربا من ضروب الاختزال التعلقي[19].

---

(19) هذه العبارة اكثر دقة لأن الفعل الذي تخضع بنيته التعلقية الى مثل هذا اللاختزال يمكن ان يكون متعديا الى مفعولين فيصير بعد الاختزال متعديا الى مفعول واحد كما في المثال :

زَوّجنا كها (زوجناها إياك) ← تزوّجتها

↑ ↑ ↑ ‏ ‏ ↑ ↑ ↑ ‏ ‏ ↑ ↑

1 2 3 ‏ ‏ 1 2 3 ‏ ‏ 3 2

حيث يبدو أنه بالامكان اعتبار **التاء** في بداية **تزوجتها** نوعا من «الأثر» لمتعلق رقم 1 محذوف، أي ان الفاعل في هذه الجملة هو الذي يقوم بـ «التزويج» (1) لنفسه (3) ... فالتّاء إذن عبارة على صيغم انعكاسي (réflexif)

وحتى الفوارق الدلالية بين صيغة الفعل المبني للمجهول وصيغة الفعل المطاوع المشتق قد تكون أحيانا ضئيلة الى حدّ الترادف شبه التام كما يتضح من المقارنة بين الآيتين 119 و 121 من سورة «التوبة» الواردتين في (4) و ('4) :

(4) (ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم) وعلى الثلاثة الذين **خُلِّفُوا** ...

('4) ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن **يتخلّفوا** عن رسول الله ...

1.2. III. وتؤكد ما ذهبنا اليه المعطيات التاريخية التي نلاحظها في تطوّر العديد من اللغات التي تنتمي الى «عائلات» مختلفة أو حتى التي هي فصائل من نفس «العائلة» اللغوية. وسنكتفي هنا بادراج بعض الامثلة المأخوذة من العربيّة والسّامية من ناحية، ومن الهندو - أوروبية وبعض اللغات الرومانشية (langues romanes) من ناحية أخرى.

أ - ففي المجال العربي والسامي هناك ظاهرة معروفة هي الاندثار شبه التام لصيغة المبني للمجهول من نوع «فُعِل» في جل اللهجات العربية المعاصرة، التي حافظت كلها على أفعال المطاوعة مع الحد من الصيغ الصرفية لهذا النوع من الاشتقاق أحيانا، مما يدل على أنّ الوظيفة التي تؤدّى في الفصحى بأكثر من وسيلة لغوية يمكن أن تؤدي في اللهجات بوسيلة واحدة :

(5) **تونس العاصمة :**

ت + فعَلْ ← تِفعَلْ (تِجْرَحْ [20] = جُرِحَ)

تـ + فَعْلَ ← تَفَعّلْ (تْكسَّرْ)

---

(20) يرمز الخط العمودي على المقطع الأخير للفعل الى نبرة تشديد ضرورية للتمييز بين هذه الصيغة وصيغة المبني للفاعل في ضمير المخاطب المذكر : تِجْرَحْ (أنت تَجرَحُ) [اشكر الأستاذ صلاح الدين الشريف على تنبيهي إلى هذه الظاهرة].

(6) **جرجيس** (الجنوب الشرقي التونسي[21] :

انْ + فَعَلْ ← **انْفَعَلْ** (انجَرَحْ = جُرِحَ)

اـتـ + فَعَلْ ← **افتعَلْ** (اذا كانت الفاء = م، ن، ر، ل.) :

- مْلِي (مَلأَ) ← انْتلِي (امتلأ)
- نقبْ (نقَبَ) ← إنتقبْ
- رِبَطْ (رَبَطَ، سجَنَ) ← ارتبَطْ (سُجن)
- لَمْ (لَمَّ) ← الْتَمْ (التمّ)

ملاحظة : تطبق صيغ الاشتقاق حتى على الأفعال اللازمة على نحو يضاهي ما رأيناه بالنسبة لصيغة المبني للمجهول، بحيث تصبح الأفعال بلا فاعل أي أن الضمير المكتمن فيها «ضمير شأن مجرّد».

(7) **تونس العاصمة :** فلان ما يتقْعدش معاه (فلان لا يستحق أن يجلس معه) فلان ما يتْعَمّلش عليه (فلان لا يعوَّل عليه).

(8) **جرجيس :** فلان ما ينقعدش معاه / ما يتعمّلش عليه

أما على صعيد اللغات السامية (والحامية) بوجه عام فان دور **التاء** و **النون** (مـزيدة في بداية الافعال أو داخلها) في الدلالة على معنى الانعكاس - أي وقوع الفعل على فاعله نفسه - أو على معنى شبيه بالمبني للمفعول في الافعال اللازمة - معروف :

«نجـن» (= جُنّ) و «نمسكن» (= صار فقيرا) في العربي - الجنوبي المعاصر ؛ «انْقَطْقَطَ» و «تنقَطْقَطَ» (= ارتعش) و «تَنْكَرْكَرْ» (تدحرج) في التّغري (أثيوبيا) الخ[22]...

---

(21) تعرف لهجة جرجيس صيغا أخرى مثل التامع «فَعْلْ» و«فعْلَلَ» (تحرْكْ / تكركب = تدحرج) وصيغة **استفعل** بالنسبة للأفعال المشتقة من أسماء استَبْرَدَ (اصابه زكام ...)، استَبْرنته (خِلته «برّاني» اي أجنبي (= لم اطمئن اليه او لم أعرفه)).

(22) انظر في هذا الصدد مقالي م. كوهين (M. Cohen) (المرجع عدد 19).

ب ـ ونجد في مجموعة اللغات الهندو ـ أوروبية ظواهر تطورية مماثلة تبيّن العلاقة الوثيقة بين الصيغ الفعلية «الوسيطة» (voix moyenne) من ناحية والصيغ «التأثرية» (voix passive) من ناحية أخرى، حيث إن الصيغ الثانية قد انحدرت تاريخيا من الأولى(23).

وتبدو هذه الظاهرة واضحة أيضا داخل اللغات الرومانشية (ذات الأصل اللاتيني) مثل الاسبانية والايطالية ـ وحتى الفرنسية الى حد ما ـ وهي لغات تكونت فيها صيغ ذات دلالة تأثرية إنطلاقا من الضمير «الانعكاسي» (pronom réfléchi) «SE» أو «SI» (في الايطالية) المنحدر من الضمير اللاتيني «SUI» (نفسه).

والسمة البارزة في هذه الصيغة ـ التي تشبه الى حد بعيد صيغ افعال المطاوعة المشتقة في العربية ولهجاتها ـ هو أنها حقا صيغة بناء الفعل للمفعول لأنها، خلافا للصيغة التأثرية المركبة من فعل الكينونة وصيغة المفعول (مثل «être + part. passé» في الفرنسية) الموجودة أيضا في هذه اللغات، لا تسمح بالتعبير عن القائم بالفعل بواسطة متمم فاعلي (complément d'agent)، علاوة على أنها في الاسبانية (انظر (8) مقارنة بـ (7)) والايطالية (انظر (10) مقارنة بـ (9)) ـ الوسيلة الوحيدة لبناء الافعال اللازمة للمجهول (passif impersonnel) على نحو يذكّر بالأفعال العربية المبنية للمفعول على صيغة «ضمير الشأن المجرّد» :

(7) Estas casas [han sido construidas / se han construido] en poco tiemps

---

(23) انظر في هذا الصّدد أ. «مايبي» (A.Meillet)، المرجع نفسه وإ. «بنفينيست» (E. Benveniste) ؛ الباب 14 من الجزء الأول من كتابه [المرجع نفسه] : «التأثيري والوسيط في الفعل» (Actif et moyen dans le verbe)، ص 168 وما بعدها.

ان هذه المنازل [بُنيت / أنبنت] في وقت قصير.

(8) [Sera procedido / Se procedera] a una autopsia.

(سوف يتم القيام بتشريح الجثة).

[* Ha sido / Se ha] dormido en esta cama.

(لقد رُقد في هذا السّرير).

(9) Roma non [fu / si è] fatta in un giorno

(إن روما لم [تؤسس / تتأسس] في يوم واحد)

(10) _ [? Sara proceduto / Si procederà] a un' autopsia

[* Estato / Si è] dormito in questo letto

(انظر (8)).

ج - أنواع الحجب ودرجاته في الافعال الانعكاسية وأفعال المطاوعة.

اذا صرفنا النظر عن الفوارق الموجودة بين الأفعال الانعكاسية أو أفعال المطاوعة المشتقة من جهة والصيغ الأخرى المتكاملة أو المتنافسة معها في نفس اللغة (كما هي الحال في الفرنسية وفي العربية الفصحى مثلا) من جهة أخرى، وعن الاختلافات في الاستعمال بين الافعال الانعكاسية وأفعال المطاوعة، وانشغلنا بما يجمع بن هذين الصنفين من الأفعال، فإنه بإمكاننا

اعتبار ضمير الانعكاس الفرنسي SE والصياغم من نوع «تـ ـ» أو «انـ ـ» في العربية ولهجاتها علامات صرفية لعملية لغوية مزدوجة تدخل في إطار عملية الحجب وتتمثل على الصعيد النحوي في الاختزال التعلقي وعلى الصعيد المعنوي في «عدم التمييز» بين القائم بالفعل وغير القائم بالفعل.

وباستبعاد الصيغة الانعكاسية الصرف التي لا تكاد توجد في العربية مع غير «أفعال القلوب» (**إني أراني أعصر خمرًا**)، الا في التركيبة النحوية (كما في : **رأى نفسَهُ في المرآة**)، يمكن ترتيب «عدم التمييز» بين القائم، بالفعل وغير القائم بالفعل على الطريقة التنازلية التالية :

1 ـ «**الصيغة الوسيطة**» : هي صيغة يكون فيها الواقع عليه الفعل هو ذاته القائم بالفعل أو مصدر الحدث منظورا اليه بوصفه غير خارج عن الحدث بل «مفعولا فيه» (إن صح التعبير)، حيث أنه مكان وقوع الحدث ومصدره في الآن نفسه. وعلى الصعيدين النحوي والمعجمي فإن المقارنة بين الجمل (أ) و (ب) في الامثلة الآتية تبين أن الافعال (أ) قد تم تقليص عدد متعلقاتها فصارت لازمة بعد أن كانت متعدية :

(11) ـ أ ـ (= أغاض ميشال جاك) Michel **a énervé** Jacques

ـ ب ـ (= اغتاض ميشال) Michel **s'est énervé**

(12) ـ أ ـ **نقل** زيد بضاعته من بغداد الى البصرة

ـ ب ـ **انتقل** زيدٌ من بغداد الى البصرة[24]

---

(24) في الدارجة :

ـ علي **نرفز** صالح ← علي **تنرفز** (اغتاض علي) [تونس العاصمة]

ـ علي **خنق** صالح ← علي **انخنق** (اختنق علي) [جرجيس].

2 ـ **«الصّيغة الوسيطة ـ التأثريّة»** : هي صيغة «محايدة» بين الصّيغة السابقة والصيغة ـ 3 ـ لا يقابل فيها الواقع به الفعل بأي قائم بالفعل لأن الحدث المؤثر في الكائن الذي يحيل اليه الفاعل النحوي لا يفترض وجود قائم بالفعل (خلافا لما نجده في صيغة المبني للمجهول مثلا) :

(13) ـ أ ـ [أغلق ميشال الباب] Michel a refermé la porte

ـ ب ـ [انغلق الباب (من تلقاء نفسه)] La porte s'est refermée (toute seule)

(14) ـ أ ـ كَسَّر / كسَّر عليٌّ الكأس ؛ ـ ب ـ انكسر / تكسَّر الكأس(25)

3 ـ **«الصيغة التأثريّة»** : هي صيغة لا يقابل فيها الواقع عليه الفعل بقائم بالفعل ظاهر ولكن هذا القائم بالفعل «محجوب» مفهوم وجوده من سياق الكلام ويمكن إظهاره بالالتجاء الى صيغة الفعل المتعدي العادية مصحوبة بفاعل غير مخصص (اسم فاعل نكرة في العربية، ضمير on في الفرنسية، الخ). فهي صيغة مرادفة تماما لصيغة الفعل المبني للمفعول في العربية (قارن بين [15 ـ أ ـ] و [15 ـ ب ـ]) وللصيغة التأثرية المركبة في الفرنسية التي يتسنّى معها التعبير على القائم بالفعل عن طريق «متمّم فاعلي» خلافا لنظيرتها الانعكاسيّة (قارن بين [16 ـ أ ـ] و 16 ـ ب ـ]) :

(15) ـ أ ـ سُرِقَتْ سيّارتي / [هذا الماءُ] لا يُشْرَبُ.

ـ ب ـ كَرْهبتي **تسرْقت** (لهجة تونس العاصمة) / [ها الميّ] ما ينشربش ـ أي إنه غير قابل للشرب ـ (لهجة جرجيس)

---

(25) في الدارجة :
ـ علي يسكّر الباب ← الباب تسكْر (وحدو) [تونس العاصمة]
ـ علي غلق الباب ← الباب انغلق (بروحه [جرجيس].

Les rosiers **sont taillés** en hiver (par le jardinier) - أ - (16)

[يُزبَرُ شجر الورد في الشتاء (من طرف البستاني)]

Les rosiers **se taillent** en hiver (* par le jardinier) - ب -

2. III. استعمال صيغة الجمع أو ما يضاهيها في المعنى

2.1. III. اننا نجد حجة أخرى تؤكد صحة نظرية «الحجب» (كظاهرة لغويّة وخطابية. برغماتية عامة لا يمكن اختزالها في صيغة معينة مثل المبني للمجهول أو الـ «passif» أو حتى أفعال المطاوعة المشتقة أو الأفعال الانعكاسيّة) في أنّ العديد من لغات العالم لا تملك أية صيغة من هذا القبيل فتلجأ الى وسائل أخرى لتقديم الحدث بغضّ النظر عن القائم به مع الابقاء على الفعل المتعدّي في صيغته الصرفية وبنيته النحوية الأصلية.

ولعل الوسيلة الأكثر شيوعا لأداء هذه الوظيفة (حتى في اللغات التي لها وسائل صرفية أو نحوية مختصة) هي استعمال الفعل في صيغة ضمير الغائب الجمع دون أن يعود هذا الضمير على مجموعة معينة من الافراد كما يتضح من المقارنة بين الجملتين (أ) و(ب) في المثال التالي المأخوذ من لغة اسمها «الكرو»[26]:

(1) - أ - To po slà na
1 2 3 4

(«تو» + بنى + بيت + أداة تعريف = بنى «تُو» البيتّ)
4 3 2 1

- ب - I po slà na
1 2 3 4

(ض. غ. ج. + بنى + بيت + أداة تعريف = بنوا البيت)
4 3 2 1

(26) مثال مأخوذ عن «كين»، المرجع 21، ص247.

2.2. III. ومما يؤكد أن استعمال صيغة الجمع له وظيفة تضاهي وظيفة المبني للمفعول هو أن كثيرا من اللغات تلتجئ اليها للدلالة على نفس المعنى (أي حجب هوية القائم بالفعل) رغم أن نظامها يحتوي على صيغ صرفية أو نحوية مختصة[27].

(2) [انكليزية] They found her nude body on the beach last night

(عثروا على جثتها عارية على الشاطئ الليلة الماضية)

(3) [روسية] Muje Kupili jesco ranec

1 2 3 4

(إليّ + اشتروا + مجدّدًا + محفظة)

4 3 2 1

(4) [عبرية] Ganvu li et ha — mexonit

1 2 3 4

سرقوا + لي + علامة المفعول به + السيارة)[28]

4 3 2 1

وبناء على هذه المعطيات وعلى أن الفعل المبني للمفعول قد يحافظ في بعض اللغات (مثل «الكمبندو» وهي لغة من أنغولا) على صيغة الجمع رغم أن الواقع عليه الفعل المبني له هذا الفعل مفرد (انظر المثال (5))، هنالك من اللسانيين من لا يستبعد أن كون أصل الصيغة التأثرية (passif) جملة يتصدّرها المفعول به مصحوبا بفعل «تأثيري» (actif) في صيغة الجمع المبهم[29] ...

(27) المثال (2) مأخوذ عن «جيفن» [المرجع عدد 13] و(3) و(4) عن «كين».

(28) لاحظ أن الفعل موجود في الدارجة التونسيّة (خنب) بنفس المعنى.

(29) كين، المرجع عدد 21.

(5) - أ -	A - mu - mono

1 2 3

(هم - هو رأوا)

3 2 1

- ب -	Nzua a — mu — mono kwa meme

1 2 3 4 5 6

(«نزوا» هم - هو - رأوا منـ (ي) أنا، أي : شوهد «نزوا» من طرفي أنا)

1 2 3 4 5 6

III .23 الدارجة التونسية نموذجا

إنّ ظاهرة استعمال الفعل المتعدّي في صيغة ضمير الجمع المذكّر المبهم (أي الذي لا يحيل على مجموعة معينة من الأفراد) موجودة بصفة مكثفة في الدارجة التونسية حيث امكانية استعمال صيغة المطاوعة ليست متاحة في جميع الحالات وحيث صيغة المبني للمجهول كما تعرفها الفصحى قد اندثرت اندثارا يكاد يكون كاملا[30].

لنأخذ مثلا لهجة تونس العاصمة التي تلجأ عادة الى حرف «التاء» كصيغم مزيد في بداية الفعل المتعدّي، فتشتق على سبيل المثال من فعل «سَلِّفْ» (أعار) فعلا آخر هو «تْسَلَّفْ». ولكن هذا الفعل يمكن أن يعني في المضارع إمّا «يَسْتَعِيرُ» أو «يُعار» :

(6) **علي تسلّفْ كتاب** (= استعار عليٌّ كتابا) / علي موش باش يتْسلف الكتاب (= علي سوف لن يستعير الكتاب)

(7) **ها الكتاب ما يتْسَلّفْش** (= هذا الكتاب لا يعار)

---

(30) انظر الهامش 28، حيث يشكل فعل «خنبْ» في لهجة جرجيس إالى جانب عدد من الأفعال الأخرى مثل «جرِحْ» (= جُرِحَ» و«نفسْتْ» (نُفست) الخ ...إ مثالا عن بقاء رواسب من صيغة المبني للمجهول الفصيحة. انظر كذلك اللهجة الحسانية في موريتانيا التي حافظت على جزء من هذه الصيغة إد< كومين، المرجع 20 (ض)إ.

فإذا أُريد الدلالة على أن «هذا الكتاب لا يُستعار» اصطدم بحدود صرفية فصار استعمال فعل «تسلّف» في صيغة الجمع المذكر أمرًا إجباريا :

('7) **ها الكتاب ما يتسلفوهش، يشريوه** (هذا الكتاب لا يسعيرونه بل يشترونه، أي : «إنّ مثل هذا الكتاب لا يستعار بل يشترى).

ولكن حدود استعمال صيغة المطاوعة ليست بالأساس حدودًا صرفية أو فونولوجية كما قد يتبادر الى الذهن بناء على المثالين السابقين، لأن العديد من الأفعال المتعدية لا يمكن أن تشتق منها صيغة المطاوعة الا في الزمان المضارع «الواسع» أي غير المتزامن مع لحظة الخطاب[31] :

(8) **يتْشاف، يتْرى / ما يتْشافِشْ، ما يتْراش** في الليل

(= إنه يُرى / لا يُرى ليلاً)

لذلك فإن الطريقة العادية للدلالة على الفعل المجهول فاعله بوصفه حدثا وقع في زمن محدّد على كائن معين ليست صيغة المطاوعة:

('8) * علي **تشاف / اترى** البارح في السوق

(شوهد علي أمس في السوق)

بل جملة فعلية فاعلها ضمير الجمع المذكر المبهم مستعملة كخبر لمبتدأ يحيل على الواقع عليه الفعل «ان جاز اعتبار» رأى» فعلا خاضعا لارادة «فاعل»)[32] :

(9) علي **شَافُوه / رَاوُوه** البارح في السوق

---

(31) فكرة التمييزين «غير التزامن» في الماضي والمضارع (concomitant / non concomitant) موجودة لدى «د. كوهين» [المرجع 26 (ط)].

(32) انظر الهامش 5. ففاعلية فاعل «رأى» أضعف من فاعلية فاعل «نظر» أو «تفحّص» الخ ... حول هذا المفهوم للفاعلية واللافاعلية ومشروعية استعماله لتفسير عديد الظواهر النحوية راجع «م. قروس» (M. Gross) : **مناهج في النحو** (Méthodes en Syntaxe)، باريس 1975، ص 31 ـ 33.

3. III. وضع الاسم الذي يحيل الى الواقع عليه الفعل في الصدارة

III. 3.1 لقد تبيّن مما سبق أنّ هناك ترابطا بين «حجب» القائم بالفعل من جهة وتركيز الاهتمام على الواقع عليه الفعل من جهة أخرى، باستعمال وسائل لغوية عدة منها مثلا وضع علامة الرفع في آخر الفعل (كما في الفصحى)[33] وخاصّة إحلاله مكانة بارزة في السياق الخطي للجملة تعني أنه صدر الكلام (topique) ومحط الأنظار ومركز الاهتمام.

هذا الترابط واضح في اللغات التي ليست فيها علامات إعرابيّة مثل الفرنسيّة واللانكليزية. فوظيفة كل من الفاعل والمفعول به ظاهرة في هذه اللغات من موقعهما في السياق الخطي للجملة (الفاعل قبل الفعل والمفعول بعده) وموقع الفاعل النحوي هو ذاته موقع الصّدارة ولذلك كان تحويل الجملة «التأثيرية» (phase active) الى جملة «تأثرية» قلبا لسياقها الخطي وإحلالا للمفعول محل الفاعل في صدر الكلام وابعادًا للاسم يحيل على القائم بالفعل من مكانه الأصلي الى موقع هامشي - موقع «المتمم الفاعلي» - يتسنّى فيه الاستغناء عنه عند الحاجة (وهو ما يحدث فعلا في أغلب الأحيان)[34].

ولئن كان هذا «الانقلاب» في السياق الخطي للجملة عند تحولها من المبني للفاعل الى المبني للمفعول متزامنا في الفرنسية والانكليزية مع

---

(33) الرفع في حد ذاته سمة من سمات الابراز لأنه سمة الفاعل (العمدة) والمنادى وسمة الابتداء وكذلك سمة الاسم اذا استعمل خارج نطاق الجملة (كما في العناوين). ان خاصية الرفع هذه تبدو ظاهرة لغوية عامة في اللغات «المفعولية» (langues accusations) على الأقل. انظر «ج.5. ميلنر» [المرجع عدد 25 (a)] «وشيباتاني» [المرجع عدد 15] و«جيفن» [المرجع عدد 13] الخ ...

(34) أغلب لغات العالم التي تعرف البناء «التأثري» لا تذكر بالمرة القائم بالفعل في شكل «متمم فاعلي» وحتّى تلك التي تذكره فإنها تحبذ في ثلثي الحالات استعمال الجملة «التأثرية» القصيرة (دون متمم فاعلي). أنظر في هذا الصدد «كين» [المرجع 21] وغيره.

تحوّل في صيغة الفعل المتعدّي من البناء التأثيري الى البناء التأثري، فإن إخراج الفاعل من صدر الجملة وإحلال المفعول به مكانه (في الصدارة) يمكن أن يكون في عديد اللغات الأخرى الوسيلة الوحيدة[35] لأداء نفس المعنى. ذلك ما نجده مثلا في «اللنقو» وهي لغة من صحراء النيل في الشرق الافريقي[36]:

- أ - (ا)

Dako o — juvat — o loca

1 2 3 4 5

(امرأة + ض. غ. مفرد (فاعل) ـ ضرب ـ ض. غ. م. (مفعول) + رجل)

5 4 3 2 1

(= المرأة تضرب الرجل)

- ب -

Locà dako o — jwat — o

1 2 3 4 5

(رجل + امرأة + ض. غ. م. (فاعل) ـ ضرب ـ ض. غ. م. (مفعول))

5 4 3 2 1

(الرجل مضروب من المرأة)

كما أن هناك لغات أخرى تستعمل صيغة صرفية معينة (تأثرية) وتنقل المفعول به الى صدر الكلام لكنها تبقي على وظيفته النحوية الاصلية ومحله الاصلي من الاعراب مع تغييب الفاعل الاصلي (القائم بالفعل)

---

(35) من اللغات التي لا تملك أية صيغة صرفية أو نحوية مماثلة للمبني للمجهول أولد "passif" اللغات التشادية ـ أي الموجودة حول بحيرة التشاد ـ (باستثناء «الهاوسا») ولغات غينيا الجديدة وغيرها ... لكن التعبير عن معنى مماثل يبقى متاحا في هذه اللغات باستعمال ترتيب متعلقات الفعل حسب نمط معين دون تغيير صيغة الفعل أو المحل الاعرابي للأسماء. انظر «فولي وفان فالين» [المرجع 17].

(36) أمثلة مأخوذة من «فولي وفان فالين»، الـ م.ن. ص 326.

تغييبا كليا. هذا ما يظهر جليا في اللغة الفنلندية (انظر (2))[37] وأيضا في اللغة الألمانية عندما يكون المفعول المعني مفعولا ثانيا، أي «مفعولا له» (datif)، كما في (3)[38]:

(2) Han — et jatettiin kotiin
1 — 2 3 4

(هو ـ مفعول به ـ تُرك + في المنزل)
1 2 3 4

(3) ـ أ ـ Das Mädchen hat mir ein Buch geschenkt
1 2 3 4 5 6

(الـ (علامة فاعل) بنتُ قد إليَّ كتابًا أهدت)
1 2 3 4 5 6

= أهدت الي البنت كتابا)

III .3.2 إنّ كل هذه المعطيات، إضافة الى معطيات أخرى لا يتسع المجال لذكرها[39]، تبين أنّ وضع الاسم الذي يحيل على الواقع عليه الفعل في صدر الكلام ظاهرة لغويّة تبدو مستقلة عن مختلف الصيغ الصرفية والنحوية «التأثرية» أو المبنية للمفعول وإن كانت تتزامن معها أحيانا (كما في الفرنسية والانكليزية). لكنها خاضعة بالأساس الى عملية لغوية أشمل

(37) المرجع نفسه، ص 309.

(38) المرجع نفسه، ص 322.

(39) هناك مجموعة كاملة من اللغات ـ هي اللغات «الفيليبينية» ـ نظامها النحوي مبني على أساس ما يسمّى بـ «التصدير» (topicalisation) أي ان الجملة مركبة والفعل مصاغ على نحو يفهم منه ما إذا كان القائم بالفعل أم غير القائم بالفعل هو الذي يحتل الصدارة ويشكل مركز الاهتمام (انظر «شيباتاني»، المرجع عدد 15).

تستجيب الى وظيفة خطابية هي تهميش أحد الأطراف المعنية بالحدث (القائم بالفعل في أغلب اللغات)[40] أو إلغائه تماما من الكلام والجملة.

وتبيّن معطيات العربية ولهجاتها المعاصرة وخاصة منها معطيات الدارجة التونسيّة إذا ما قورنت بما تتصف به لغات أخرى كالفرنسية أو الانكليزية ونظر اليها من زاوية تجسيم هذه الوظيفة الخطابية العامة، مدى التداخل والتكامل بين مختلف الصيغ الصرفية والأبنية النّحوية واشتراكها في الاستجابة الى حاجيات التّعبير. فقد ساعد النظام النحوي العربي، بتواجد نمطين من الجملة في صلبه هما «الجملة الفعلية» و «الجملة الاسمية» على إدراج بنية المبتدأ والخبر ضمن الوسائل اللغوية المستعملة في عملية حجب القائم بالفعل وبناء الجملة للمفعول بإحلاله موقع الصدارة وبدء الكلام به والاخبار عنه بجملة فعلية فعلها متعدّ على صيغة «فَعَلَ» وفاعلها ضمير جمع مبهم. ولا تقتصر الجملة الاسمية على ذلك بل تسمح بالحجب ورفع الحجب في نفس الكلام ممّا يجعل منها أداة لانجاز نوعين من «المبنى للمفعول» : نوع يمكن اعتباره مبنيا للمجهول نحو : «**كرهبتي سرقوها**» (سيارتي سُرقت) ونوع لا يتناقض مع الكشف عن هوية المسؤول عن الفعل نحو : «**كرهبتي سرقوها أولاد الجيران**» (سيارتي سرقها أولاد الجيران) وهو نوع لا يشترط أن يكون الفعل في صيغة

---

(40) وهي اللغات «المفعولية» (accusatives) التي تنتمي اليها اللغات الساميّة والهندو - أوروبية مثلا، والتي تتصف بكون فاعل الفعل اللازم وفاعل الفعل المتعدي يحملان نفس العلامة (الرّفع) في حين يحمل مفعول الفعل المتعدّي علامة مميزة (النصب). أما في اللغات التي تعطي نفس العلامة الاعرابية لمفعول الفعل المتعدي وفاعل الفعل اللازم (علامة «إطلاقية» أو absolutif) وعلامة اعرابية متميزة لفاعل الفعل المتعدي (علامة «فاعلولية» أو ergatif) والتي تتصف ببناء صرفي - نحوي، موسوم، (marqué) بالنسبة للبناء الاعتيادي هو البناء «اللاتأثري» (antipassif) فان عملية «الحجب» تنطبق على الواقع عليه **الفعل** فتلغيه تماما، أو تدغمه في الفعل أو تهمشه بادخال علامة اعرابية معينة عليه. [انظر «جيفن»، المصدر نفسه، ص 624 - 628].

الجمع لأن جملة مثل : «**كرهبتي يسوق فيها ولدي**» (**سيارتي يقودها ابني**) هي أيضا «مبنيّة للمفعول» بالمقارنة مع «**ولدي يسوق في الكرهبة**» التي هي «مبنية للفاعل». والفرق بين هاتين الجملتين هو أن صدر الكلام يحتله الواقع به الفعل في الأولى والقائم بالفعل في الثانية، وهو فرق يتضح أكثر إذا ترجمنا هما الى الفرنسيّة مثلا :

Ma voiture est conduite par mon fils

Mon fils conduit ma voiture

فيتبيّن أنّ القائم بالفعل في ترجمة الجملة الأولى يحتل موقعا هامشيا في البنية النحويّة بالمقارنة مع الموقع البارز الذي يحتله الواقع به الفعل، ولذلك يمكن القول إنّ هذا النمط من بناء الجملة للمفعول عن طريق الجملة الاسمية في الدارجة التونسية هو ضرب من ضروب «الحجب»، وإن كان أضعف من الحجب التام الذي نجده في جملة اسميّة خبرها فعل في صيغة الجمع المذكّر المبهم مثل «**كرهبتي سرقوها**»، التي يمكن ترجمتها الى الفرنسيّة سواء بجملة «تأثرية» من نوع ma voiture a été volée اذا أردنا الحديث عن السيارة أو بجملة «تأثيرية» فاعلها ضمير مبهم من نوع on m'a volé ma voiture اذا كان المقصود الحديث عن «المتأثر» أو المتضرّر بالحدث ...

III. 3. 3، فنحن إذن في الدارجة إزاء نظام لغوي ثري بامكانيات التعبير عن نفس الغاية الخطابية، فيه صيغ المطاوعة المشتقة كما رأينا، وفيه إضفاء الابهام على هوية القائم بالفعل أو المسؤول عن الحدث بالالتجاء الى صيغة الجمع، وفيه كل ما يتيحه التكامل بين بنية الجملة الفعلية وبنيتها الاسمية من مرونة وطواعية، ممّا مكن معظم اللهجات العربية الدارجة من أن تحيّى وتتطور وتستجيب الى حاجيات متكلميها (ومن ضمنها الحاجة الى «حجب» مصدر الحدث وتركيز الاهتمام على المفعول به أو على الحدث المحض) مع الاستغناء عن صيغة صرفيّة من نوع صيغة المبني للمجهول الكلاسيكية.

ويؤكد هذا التطوّر الذي شهدته الدارجة التونسية وغيرها من اللهجات العربية المعاصرة أن الظاهرة اللغوية التي سميتها «الحجب» هي ظاهرة قارّة يتسنّى التعبير عنها حتى في صورة اندثار الصيغة الصرفية التي قد تبدو مختصّة في «البناء للمجهول» أو في صورة عدم توفّر إمكانية استعمال صيغة تعويضية مثل صيغة أفعال المطاوعة المشتقة.

وهذا يعني أن مسألة **بناء الفعل** للمفعول كمقابل لبنائه للفاعل مسألة ثانوية ما دامت اللغة تتيح **بناء الجملة** للمفعول مقابل بنائها للفاعل وتسمح باستعمال وسائل متنوعة لاخفاء هوية القائم بالفعل أو طمسها أو تهميشها تبقى نافذة في صورة الاحتفاظ ببناء الفعل «للفاعل» على الصعيدين الصرفي والنحوي.

فمفهوم «الحجب» مفهوم يسمح بتنسيب ما يعرف في اللسانيات العامة «بالبناء» (أي الـ (diathèse) وإدراجه في إطار وظيفي أوسع قادر على تفسير ظواهر لغوية موجودة حتى في اللغات التي **لا** تملك صيغة نحوية أو صرفية معينة كالصيغة «التأثرية» (le passif) مقابلة للصّيغة التأثيرية (l'actif) فتلجأ الى صيغة الفعل «المبني للفاعل» الجمع (انظر اللغة المجرّية مثلا[41]) أو الى التصرّف تصرفا خاصّا في ترتيب الاسم الذي يحيل

---

(41) انظر الجملة "A klubot flépétték" (= النادي بنوا) التي تعني «بُني النادي» أو «إن النادي قد بُنيَ» ولكنّ هذا المعنى لا يستفاد من صيغة الجمع في حد ذاتها (لأن الضمير أن يكون مفسرا) بل من سياق الكلام. وطبيعي، في غياب صيغة صرفية مختصة، أن يكرن للسياق مثل هذا الدور الأساسي : انها ظاهرة لغوية عامة [انظر الدراجة التونسية].

على القائم بالفعل والاسم الذي يحيل على غير القائم بالفعل كما تفعل بعض لغات البنتو[42] ومعظم اللغات الفيليبينية الخ ...

وواضح ان لظاهرة الحجب علاقة بمسألة اختيار الاسم الذي يحتل أبرز موقع في الجملة (وهو على الصعيد النحوي يكون عادة موقع الفاعل) فيكون اختيار الواقع عليه الفعل تهميشا أو إلغاء للقائم بالفعل، الخ ... وكما سبق أن رأينا في بداية هذا البحث (الفقرة 2 من المقدمة) فإن هذا الإلغاء قد يتم بمجرّد اختيار أي اسم غير القائم بالفعل كالآلة مثلا أو باختيار ضمير لا يحيل الى كائن محدد ـ كما يحصل عادة مع ضمير الغائب الجمع[43] ـ بالتوازي مع وضع غير قائم بالفعل في صدر الكلام أو بالاكتفاء بالفعل وفاعله المبهم اذا كان الغرض التركيز على الحدث في حد ذاته ...

---

(42) سبق أن أشرنا (الجزء III، ف 3.2.2) الى لغة من هذه العائلة هي «الكمبندو»، وهذه أمثلة من لغة «بنتو» أخرى الـ «دزمبا» [عن «جيفن»، المصدر نفسه، ص 607] :

(1) O - Poso a - tom - aki mukanda
1 2 3 4 5 6

معرف ـ «يوزو» + هو ـ بعث ـ ماضي + رسالة [= بعث «يوزو» رسالة]
6 5 4 3 2 1

(2) i - mukanda mu - tom - aki o - Poso
1 2 3 4 5 6 7

معرف ـ رسالة + هي ـ بعث ـ ماضي + معرف ـ «يوزو»
7 6 5 4 3 2 1

(3) i - mukanda o Poso a- Poso a-mu-tom-aki

معرف ـ الرسالة + معرف = «يوزو» + هو ـ هي ـ بعث (= الرسالة «يوزو» بعثها).

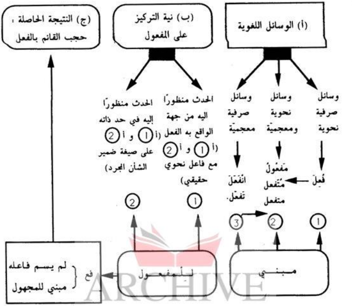
(43) وكذلك ضمير المتكلم الجمع وضمير المخاطب وحتى تاء التأنيث («يوم تقف عن ساق» = يوم قيام الساعة) أو اسم فاعل غير مخصص («ولقائل أن يقول» = وقد يُقال (...)، الخ ...

الخاتمـــة :

لقد مكنتنا فرضية «الحجب» كوظيفة خطابيّة - معنويّة - برغماتيّة، من إعادة النظر في هيكلة اللغة العربيّة وتبعا لذلك في البنية النظرية للنحو العربي، ومن القيام بقراءة لمفهوم «المبني للمفعول» من زاوية هذه الوظيفة.

1. وقد بينت هذه القراءة النقديّة أنّ الحدود المقامة بين الصيغة الصرفية - النحويّة التي تدعى صيغة «المبني للمفعول» أو «المبني للمجهول» أو «الفعل الذي لم يسمّ فاعله» من ناحية والصيغ الصرفية - المعجمية المدرجة في باب أفعال المطاوعة من ناحية أخرى هي حدود قابلة للتجاوز في الاطار العام لمفهوم البناء للمفعول.

وبادراج صيغة «المفعول» - التي هي تعبير عن النتيجة الحاصلة من وقوع حدث على كائن ما - والتمييز بين الوسائل اللغوية (النحوية والصرفية والمعجمية) المستعملة (أ) ونيّة المتكلم في تركيز الاهتمام على المفعول - بالمعنيين المتاحين لهذا اللفظ - (ب) والنتيجة المعنوية - الخطابية - البرغماتية الحاصلة - أي حجب القائم بالفعل (ج)، يمكن إعادة هيكلة النّظام النحوي المعني هنا على الشّكل التالي حيث يدل «البناء» على الوسائل المستعملة وحرف اللاّم (لِـ -) على نية المتكلم و«المفعول» على المنوي التركيز عليه، فيما تدل عبارتا «الفعل الذي لم يسم فاعله» و«الفعل المبني للمجهول» على الغاية التي يتمّ إدراكها :



كما بيّنت هذه القراءة بعض المعيقات النظريّة المرتبطة بمفهوم «نائب الفاعل» وخاصّة وقوف هذا المفهوم حاجزًا معرفيًا (ابستيمولوجيا) أمام استغلال كل الامكانيات النظرية لمفهوم المبني للمفعول بوصفه حذفا للفاعل (أي ما سميته «المتعلق الأول») وتقديما للحدث منظورًا اليه في حدّ ذاته (بالنسبة للأفعال اللازمة والأفعال المتعدية التي حذف مفعولها)، ممّا يجعل الفعل قادرًا على أن «يتمّ الكلام به»[44] دونما حاجة الى «فاعل» أو «نائبه»، ذلك أنه يكفي القيام بتحوير خفيف على مفهوم «ضمير الشأن» وتجريده

---

(44) أو بالأحرى أن يتم الكلام به ويتمتم ظرفي : «سيرَ صباحًا / سير على بركة الله سيروا والشمس في كبد السماء «سير على أنغام الموسيقى» سير بخطى ثابتة الخ ...

من كل امكانية إحالة الى كائن، أي تحويله الى ضمير مستتر «دائم اللإستتار» إن صحّ التّعبير، ليصبح البحث عن مكون نحوي من شأنه الحلول «محلّ» الفاعل غير ذي موضوع ولتستردّ عبارة المبني للمفعول كامل معناها فتدل على أن الصيغة المعنيّة هنا هي صيغة المبني «للمفعول الحقيقي»، أي الفعل ...

2. وبهذا يمكن لنظريّة المبني للمفعول أن تطبّق على لغات أخرى كالفرنسية والانكليزيّة وأن تكون أكثر قدرة على تفسير البنى النحويّة والصرفية المعنيّة في هذه اللغات من نظرية الصّيغة «التأثريّة» أو «البناء التأثري» المتداولة في النّحو التقليدي الأوروبي وحتى في أكثر النظريات اللّسانية المعاصرة لأن هذه النظريات لم تتخلص في معظمها من ثنائية «التأثير» و«التأثر» الأرسطية ولأن فهمها للبنية التأثرية كمجرد «قلب» للبنية التأثيريّة وانشغالها شبه الكامل بالجمل ذات الأفعال المتعدية جعلها لا تولي كل الأهمية لعدم ذكر القائم بالفعل.

3. ولكن مجال تطبيق المبني للمفعول بوصفه أحد أشكال حجب القائم بالفعل لا يقف عند هذا الحدّ بل ينسحب على بُنَى نحويّة أخرى عادة ما تعتبر أفعالها مبنيّة للفاعل ولكنها يمكن اعتبارها ترتيبًا معينا لمكونات الجملة بهدف وضع الاسم الذي يحيل على الواقع به الفعل في صدر الكلام، وقد بين مثال الدّارجة التونسيّة واستغلالها للجملة الإسميّة، الى جانب ما تختصّ به لغات أخرى في العالم، أنّ الفروق بين البناء الصرفي للفاعل والبناء الصّرفي للمفعول يمكن أن تكون ثانويّة اذا نظر اليها من زاوية الوظيفة الخطابيّة وما تتطلبه من إبراز للواقع عليه الفعل وتهميش للقائم بالفعل.

4. وقد يحصل هذا التّهميش للقائم بالفعل بمجرّد استعمال فاعل مبهم في شكل ضمير لا يحيل الى كائن محدد مثل ضمير الجمع، وهنا

أيضا نجد في الدارجة التّونسيّة وفي عديد اللغات الأخرى (ومنها لغات لا تعرف إلاّ هذا الشكل من بناء الفعل للمفعول) أمثلة واضحة تدلّ على أن «العدد» هو أيضا وسيلة من وسائل «الحجب» قد تستعمل مع وضع الواقع عليه الفعل في صدر الكلام وقد تستعمل دون ذكر المفعول فتضاهي بذلك الدور الذي يقوم به ضمير الشأن المجرد» في العربية أو صيغ «اللاشخصنة» (l'impersonnel) في لغات أخرى.

5. لذلك يمكن تصنيف ظاهرة «الحجب» الى صنفين : صنف يتجسّم بالتقليص في عدد متعلقات الفعل ونسميه «**الحجب الاختزالي**» (occultif récessif)، وصنف يتجسم بوسائل لغوية أخرى غير الاختزال التعلقي.

ـ أ ـ وينقسم الصنف الأوّل بدوره الى ثلاثة أصناف بحسب الصيغة المتوخاة في اختزال البنية التعلقية، وهي :

- **الحجب الاختزالي** «المفعولي» (فُعِل) أو «التأثّري» (passif) ؛
- **الحجب اللااختزالي** «المطاوعي» (انفعل، تفعّل ...) أو «**الانعكاسي**» (réflexif) ؛

- **الحجب الاختزالي** المبقي على صيغة الفعل الاصليّة ونجده في الانكليزية على نطاق واسع وفي الفرنسيّة أحيانا[45] .

وتختلف تبعات الاختزال التعلّقي وحجب القائم بالفعل فيما يخصّ نوعيّة صدر الكلام بحسب عدد متعلقات الفعل الأصلي. فإذا كان الفعل الاصلي أحادي التعلق (أي لازما أو متعديا حذف مفعوله) كان صدر

---

(45) انظر مثلا : Mary washed the woolens well (غسلت ميري الصوف جيدا) The woolens washed wel ← (انغسل الصوف انغسالا جيدا) / Le vent a cassé la branche (كسرت الريح الغصن) ← La brance a été cassée (اكسر الغصن).

الكلام هو الفعل. واذا كان متعديا لمفعول أو أكثر فإن اختيار صدر الكلام مرتبط بالطريقة التي ترتب بها كل لغة مكونات الجملة. ففي الفرنسيّة حيث يأتي الفاعل قبل الفعل يحتل صدر الكلام في أغلب الأحيان المفعول به بعد أن صار فاعلا نحويا بحكم حذف الفاعل الاصلي، ولكن اذا كان المفعول نكرة فإن الفعل هو الذي يأتي قبله في الجملة عادة وذلك في شكل «لا شخصني» (impersonnel)(46). أما في العربيّة، حيث توجد الجملة الفعلية الى جانب الجملة الاسميّة، فإن الصدارة تكون إمّا للفعل والمفعول (**قُتل زيدٌ** في الحرب الأهلية) أو للمفعول فقط (**زيدٌ قُتل** في الحرب)(47).

ب ـ أمّا «الحجب اللااختزالي» (occultif non récessif) فإنه أضعف درجة من الحجب الاختزالي لأنّه لا يمس البنية التعلقية للفعل ولأنّ دلالته مرتبطة شديد الارتباط بسياق الكلام. وهو يتجسّم كما رأينا بإحدى الوسيلتين التاليتين أو بكلتيهما معا : إحلال الواقع عليه الفعل صدر الكلام مع وضع القائم بالفعل في موقع هامشي بالجملة / استعمال الفعل في صيغة ضمير مبهم (on في الفرنسية، Man في الألمانية ؛ They في الانكليزية، ضمير الجمع المذكر في العربيّة وخاصة في لهجاتها المعاصرة الخ ...)

6. إنّ العلاقة بين إمكانية الاختزال التعلّقي وبعض المفاهيم كالتضاد بين «العاقل» و«غير العاقل» وبين «المفرد» و«الجمع» قد لفتت انتباه العديد من اللسانيين. وفي هذا المجال يبدو أن لمفهوم «الحجب» أهمّية تفسيريّة لأنه يسمح بالرّبط بين درجة «البروز» (saillance) لاسم ما وقابليته أو عدم

---

(46) انظر : Il a été trouvé une montre (عُثر على ساعة).

(47) تجدر الاشارة هنا الى أن المفعول المعنوي يبقى بارزا حتى في الحالة الأولى نظرا لعلامة الرفع التي هي في حد ذاتها علامة صدارة.

قابليته للحذف أو للحجب : فبقدر ما يكون هذا الإسم «بارزًا» بقدر ما تكون عملية الحجب مستبعدة. وبناء على ذلك فإن أحد المواضيع التي تستحق تعميق البحث هو محاولة ضبط سلّم للبروز أو لل «بارزيّة» في المجال المعنوي (قائم بالفعل > منتفع بالفعل > واقع عليه الفعل، الخ ... / كائن حي عاقل > كائن حي غير عاقل > جماد ... / معرّف > نكرة مختصة > نكرة غير مختصّة ... / مفرد > مثنى > جمع ...) وفي المجال النحوي والاعرابي (فاعل > مفعول به > مفعول متعد بحرف ...) ويكتسي تعريف مفاهيم أخرى مثل «الفاعلية» المعنويّة و «الحدث» تعريفا أكثر دقّة أهمية بالغة لأن استحالة اختزال البناء التعلقي لبعض أصناف الأفعال كـ «disparaître» (اختفى) مقارنة بـ «courir» (جرى) في الفرنسيّة أو مجموعة الأفعال التي على صيغة «فَعُلَ» و«فَعِلَ» في اللغة العربية راجع أساسًا الى كون هذه الأفعال لا تمثل أحداثا بقدم ما هي صفات أو تغيرات في الصفات تطرأ على كائنات فاقدة للتدخل النشيط والمبادرة والمسؤولية فيما يطرأ بها أو عليها، أي أنها من الناحية المعنوية مفاعيل لا فواعل ...

7. ولئن كانت نظرية «الحجب» في حاجة الى مزيد البلورة خاصّة على صعيد العلاقة بين المستويات الصرفية والنحويّة والمعجميّة وإلى مزيد من المعطيات عن مختلف الأنظمة اللغوية في العالم، فإنها محاولة أوّلية لبيان ما في التراث النحوي العربي من إمكانيات نظريّة يمكن للسانيين العرب أن يستغلّوها على ضوء المكتسبات النظريّة والمنهجية لعلوم اللسان الحديثة في اتجاه زيادة توضيحها وتدقيقها وإبراز ما تتيحه من مفاهيم ومقولات ثرية قادرة على أن تلعب دورًا لا يستهان به في بناء منظومة نظرية ذات بعد كوني حقيقي أي محرّرة أكثر من التأثير المفرط (والذي لا يخلو أحيانا من نزعة الى الأرو ـ مركزية) للتراث النحوي واللغوي الغربي على الدراسات اللسانية العامة.

المصـادر المراجـع

1 ـ **ابراهيم** (أحمد) : [بصدد الطبع بتونس] :

L'"occultif" : hypothèse pour un traitement translinguistique du "passif" et des structures apparentées.

2 ـ **ابن جنّي** (أبو الفتح عثمان) : «الخصائص»، في 3 أجزاء؛ بيروت : دار الهدى للطباعة والنشر، الطبعة الثانية (بدون تأريخ).

3 ـ **ابن عقيل** (بهاء الدين عبد الله) : «شرح ابن عقيل على ألفيّة ابن مالك»، في 2 جزئين؛ بيروت : دار إحياء التراث العربي (بدون تأريخ).

4 ـ **ابن مالك** (محمد جمال الدين) : «شرح عمدة الحافظ وعدة اللافظ»، القاهرة، 1975.

5 ـ **ابن يعيش** (موفق الدين) : «شرح المفصّل»، بيروت : عالم الكتب والقاهرة : مكتبة المتنبي (بدون تاريخ).

6 ـ **الاسترابادي** (رضي الدين) : «شرح الرضي على الكافية»، منشورات جامعة بنغازي، في 3 أجزاء، 1973.

7 ـ **بكر** (السيد يعقوب) : «نصوص في النحو العربي من القرن الثاني الى الرابع»؛ بيروت : دار النهضة العربية، 1970.

8 ـ **بنفنيست** (إميل) : BENVENISTE (Emile) :

— "Probèmes de linguistique générale" (1966) vol I, Gallimard, Paris, 1975.

9 ـ بوتيي (برنار) : POTTIER (Bernard)

a) "L'impersonnalisation en français et en espagnol" in "Mélanges W. V ou Wartburg", Tübingen, 1968.

b) - "Les voix du français" in : "Cahiers de Lexicologie", n° 19, pp. 3-37.

10 ـ تينيار (لسيان) : TESNIERE (Lucien) :

"Eléments de Syntaxe structurale"; Paris, Klincksieck, 1959 (éd de 1975).

11 ـ ديبورد (ف) : DESBORDES (F) :

— "L'ipersonnel d'après les textes théoriques de l'Antiquité" in MAILLARDI ed (انظر رقم 23)

12 ـ ديكلي (جان بيار) فنتشيفا (زلكتا) و شوميان (سبستيان) : DESCLÉS (Jean — Pierre) :

شوميان (سبستيان) GUEN TCHÉVA (Zlatka) 8c SHAUMYAN (Sebastian)

a) "Theoretical aspects of Passivization in the Framework of Applicative Grammar"; in **Pragmatics and Beyond**, vol VI, 1, J. Benjamius P.C. Amsterdam (1985).

b) "Theoretical Analysis of Reflexivization in the Framwork of Applicative Grammar", in : Linguisticae Investigationes, x / 1 (1986) pp 1 - 65.

13 ـ جيفون (تلمي) : GIVON (Talmy) :

— "**Syntax : a Functional Typological Introduction**", vol II chap 14 : "voice and de - transitivization", Amsterdam, J. Benjamins P.C, 1990.

14 ـ شوميان (سبستيان) : SHAUMYAN (Sebastian) :

a) Principles of Structural Linguistics (1965) [English Translation] The Hage, Mouton, 1971.

b) Applicational Grammar as a semantic theory of natural language, Chicago (CUP), 1977.

15 ـ شيباتاني (ماسيوشي) : SHIBATANI (Masayoshi) :

— "Passive and related constructions" in **Language**, vol 61 / 4 (1985)

— "Voice in Philippine Languages" in SHIBATANI (ed) "Passive and voice, 'T L S n° 16 (1988).

16 ـ عبد الحميد (محيي الدين) تعليقات على شرح ابن عقيل [انظر رقم : 3]

17 ـ فولي (وليم) وفان فالين (روبرت) : FOLEY (William A.) 8c :

VAN VALIN, Jr (Robert) :

— "Information packaging in the clause" in T. SHOPEN (ed) : Language Typology and Syntactic Description, vol I, Chicago (CUP) 1985; pp 282 - 364.

18 ـ كُمري (برنار) : COMRIE (Bernard) :

— "Ergativity" in W.R. LEHMAN (ed) : Syntactic typology, Studies in the Phenomonology of Language, The Harvester Press, Sussex, 1978, PP. 329 - 394.

19 ـ كوهين (مرسال) : COHEN (Marcel) :

a) Verbes déponents internes (ou verbes adhérents) en sémitique, MSL, XIII, 1924, pp 225 - 248.

b) "Sur l'affixe N dans des verbes expressifs de diverses langues chamito - sémitiques, in Mémoires de l'Institut Français d'Archeologie Orientale, Tome 66, 1934, pp 704 - 719.

20 ـ كوهين (دانيد) : COHEN (David) :

a) "Le dialecte arabe (hassaniya) de Mauritanie" Paris, 1963.

b) " L'aspect verbal" Paris, PUF (1989).

21 ـ كينن (ادوارد) : KEENAN (Edward) :

— "Passive in the world's languages" in T.SHOPEN (ed) : Language Typology and syntactic Description, I, Chicago, 1985, pp 243 - 281.

22 ـ لابوف (وليم) (مع هـ. فانير)

LABOV (W) 8c WEINER (H) :

— "Constraints ou agentless passives", in Journal of Linguistics", 19 (1983), pp 29 - 57.

23 ـ مايار (ميشال) : MAILLARD (Michel) :

— "Vers une théorie unitaire de l'impersonnel" in MAILLARD (ed) : L'impersonnel, Mécanismes linguistiques et fonctionnements litttéaires. Grenoble, CEDITEL, 1989, pp 227 - 254.

24 ـ مايـي (انتـوان) : MEILLET (Antoine) :

Linguistique historique et linguistique générale (1921 - 1936). 2 vol. Champion et Klincksieck, Paris, 1958.

25 ـ ملنـار (جان كلود) : MILNER (Jean Claude) :

a) "Pour un usage du concept de marque en syntaxe comparative" in Langages, n° 50, 1978.
b) "Le système du réfléchi en latin", **in langages**, n° 50, 1978.
c) "Inroduction à un traitement du passif". Université. Paris VII, 1989.

26 ـ موانيي (جرار) : MOIGNET (Gérard) :

— "Systématique de la langue française" Paris, Klincksieck, 1981.

27 ـ هريدي (عبد المنعم أحمد) : تحقيق وتقديم .شرح عمدة الحافظ وعدة اللافظ. لابن مالك [انظر رقم : 4].

28 ـ يسبرسان (اتـو) : JESPERSEN (Otto) :

— "La philosophie de la grammaire" (1924) tr. franç. Paris, Minuit, 1971

أوجه الكلام في الإخبار من خلال كتاب سيبويه

بقلم : حسن حمزة

الكلام عند النحويين عشرة أقسام كما يقول الزجاجي، وعند بعضهم ستة أقسام، وهو مذهب الأخفش. وقال قطرب وجماعة من الحُذّاق : "الكلام كله أربعة أقسام : خبر واستخبار وطلب ونداء" فجعل الأمر والنهي داخلين تحت الطلب، وجعل التمني داخلا تحت الخبر. (**شرح رسالة أدب الكاتب**، 35 وجه). وأيا ما كان هذا العدد فإن سيبويه لم يتناول في مقدمة كتابه إلا قسما واحدا من هذه الأقسام وهو الخبر الذي اتفقت الجماعة على أن الصدق والكذب لا يقعان إلا فيه (الزجاجي : **اشتقاق أسماء الله تعالى**، 173). فقد عقد في رسالة الكتاب، وهي المقدمة التي تحدد الإطار النظري في كتابه، بابا سماه : "باب الاستقامة من الكلام والإحالة". وذكر من وجوه الكلام في الإخبار خمسة هي : المستقيم الحسن، والمحال، والمستقيم الكذب، والمستقيم القبيح والمحال الكذب. ويثير هذا التصنيف أسئلة عن عدد الأصناف وعن معاييره ومستوياته.

يقوم التصنيف بداية على مصطلحين اثنين هما الاستقامة والإحالة، وهما يشكلان زوجين يستدعي واحدهما الآخر ولا يوجد إلا بوجوده :

فالكلام إما مستقيم وإما محال. وهذا التقابل على طريق التضاد[1] ينطبق على زوجين آخرين هما الحسَن والقبيح. فها هنا أربعة مصطلحات ينتظم كل مصطلحين منها في زوجين. وهناك مصطلح خامس ليس له ما يقابله في نص سيبويه، وهو الكذب. وتقتضي مقابلة المعاني التي أشرنا إليها بين المصطلحات الأربعة وجود مصطلح سادس هو الصدق أو الحق يكون زوجا للكذب، فتتم بذلك ستة أزواج تكفي في كل زوجين منها معرفة أحد المصطلحين لمعرفة الآخر، فلا نكون في حاجة إلا إلى ثلاثة حدود، إذ يُستخرَج حد المصطلح بمعرفة حد زوجه الذي يقابله. وقد ذكر الزجاجي الذي يتبنى وجهة نظر سيبويه ويدافع عنها، هذا المصطلح السادس، مصطلح الحق في مقابل مصطلح الكذب، فكتب أن الكلام في الإخبار على ستة أوجه : مستقيم حق ومستقيم كذب، ومستقيم قبيح ومستقيم حسن، ومحال ومحال كذب (اشتقاق أسماء الله تعالى، 170).

غير أن التصنيف الذي يقدمه الزجاجي فيذكر فيه المصطلح السادس الغائب عن كتاب سيبويه لا يحل مشكلة عدد أقسام الكلام وإن انتظمت عنده في ستة أزواج. فتعاقب المصطلحات في تركيبة ثنائية أساسها الاستقامة والاحالة[2] يفضي من الوجهة النظرية، أي من الوجهة الحسابية البحتة، الى ثمانية أصناف، لا الى خمسة كما هو الحال في كتاب سيبويه، ولا الى ستة كما هو الحال في اشتقاق أسماء الله تعالى للزجاجي.

فالتركيبة الثنائية لستة أزواج تعطي حسابيا ثمانية احتمالات : $2^3 = 2 \times 2 \times 2 = 8$ وهذا ما يظهره الجدول التالي :

(1) تقابُل المعاني على أربعة أوجه : إما على طريق الاضافة مثل الأب للابن، وإما على طريق التضاد مثل الاسود للابيض، وإما على طريق القُنْية والعدم مثل البصير للاعمى، والموسر للفقير، وإما على طريق النفي والاثبات مثل "زيد جالس" و"زيد ليس بجالس" (أبو طاهر البغدادي : قانون البلاغة، 39).

(2) يُفترض ان يكون باب الكتاب مبنيا على هذا الاساس ، فعنوانه : "هذا باب الاستقامة من الكلام والاحالة" وقد بُنيت الاستقامة والاحالة مع الحسَن والقبح والكذب0

أمّا ما ذكره سيبويه والزجاجي فيمكن أن يوضحه الجدول التالي :

	حسن	قبيح	حق	كذب
مستقيم	س + ز	س + ز	ز	س + ز
محال	×	×	× [3]	س + ز

رسم رقم 1

واضح ما في هذا الجدول الثاني من الخلل والاضطراب. فالمستقيم الحق الذي أضافه الزجاجي ليستقيم له تصنيف المستقيم غائب عن تصنيف سيبويه. غير أن هذا الغياب لا يثير مشكلة في حقيقة الامر، ولا يحتاج الى نقاش طويل، فالمستقيم الكذب يستدعيه، والزجاجي يذكره. وربما كان غياب التركيبين الآخرين : المحال الحسن والمحال القبيح من تصنيفي سيبويه والزجاجي أمرا ميسورا يمكن تجاوزه لأن الحسن والقبح يتعلقان باللفظ. أما علاقة المحال بالحق والكذب فلا بد من الوقوف عندها . فسيبويه يجعل الكلام محالا أو محالا كذبا. وكانت مقابلة المعاني تقتضي أن يذكر المحال الحق في مقابل المحال الكذب، أو أن يذكر المحال وحده في مقابل المستقيم دون ذكر للمحال الكذب.

يبدو لي أن مفتاح العلاقة بين الاحالة والكذب في نص سيبويه هو في اختلاف مستويات النظر الى القضية. فالازواج الستة التي ذكرها سيبويه وهي الاستقامة والاحالة، والكذب والصدق أو الحق، والحسْن والقبح تقع على ثلاثة مستويات مختلفة : فالحسْن والقبح يتعلقان باللفظ، وبالتركيب تحديدا، أي بالمستوى النحوي للكلام وبمطابقته للمعيار

الصوابي. والصدق والكذب يتعلقان بالمعنى وبمطابقة هذا المعنى للحقيقة الخارجية. والاستقامة والاحالة تتعلقان بالمستوى التداولي للكلام وبمطابقته لمعايير التواصل بين المتخاطبين ليؤدي الكلام وظيفته.

أ - المستوى النحوي (مطابقة المعيار الصوابي) :

الكلام على هذا المستوى حسن أو قبيح. وقد حد سيبويه القبيح بقوله إنّه وضع اللفظ في غير موضعه، ومثّل له بقوله : قد زيدا رأيت، وكي زيدا يأتيك [3]. والمقصود بالمثالين استخدام حرفين هما "كي" و"قد" أمام الاسم ؛ وهما حرفان إذا اجتمع بعدهما اسم وفعل كان الأولى أن يليهما الفعل مقدما على الاسم[4] ويثير حد سيبويه للقبح مسألتين هامتين، فقد يوحي حده والمثالان اللذان قدمهما بأن المقصود بذلك هو التقديم والتأخير أو موقع اللفظ في سلسلة الكلام. وليس الامر كذلك، فليس التقديم والتأخير وموقع اللفظ في سلسلة الكلام الا وجهين من وجوه القبح، وإن كانا أبرز وجهين في هذه الوجوه. فقولك : كان زيد هو منطلقا قبيح عند سيبويه حتى تعرّف (المنطلق) فتقول : كان زيد هو المنطلقَ، لأن هذه اللفظة "هو" ،لا يحسن أن تكون فصلا حتى يكون ما بعدها معرفة أو ما أشبه المعرفة. (الكتاب، 392/2). وقد يوحي حد سيبويه للقبح بأن الحسن والقبح يرتبطان بجواز التركيب وعدم جوازه. غير أنني أعتقد أي هذين المصطلحين، مصطلحي الحسْن والقبح، يقعان في داخل دائرة الجواز اللغوي، فالحسَن جائز والقبيح جائز وفي كتاب

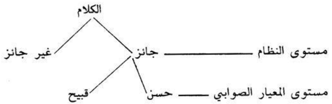
---

(3) كذا في النص المطبوع بنصب زيد وهو مرفوع في كتاب اشتقاق اسماء الله تعالى للزجاجي الذي يتبنى وجهة نظر سيبويه ويستعير امثلته (**اشتقاق اسماء الله تعالى**، ص 170)

(4) يقول ابو هلال العسكري في التعليق على مثال : (قد زيدا رأيت) : ،وانما قبُح لانك افسدت النظام بالتقديم والتأخير. (كتاب الصناعتين، 70).

سيبويه وفي كتب النحاة العرب بعده تلميحًا أو تصريحًا ما يقطع بذلك(5). يقول سيبويه في باب الحروف التي لا يليها الا الفعل : «فمن تلك الحروف (قد) لا يفصل بينها وبين الفعل بغيره [...] و(لمّا فعل) و(قد فعل) انما هما لقوم ينتظرون شيئا، فمن ثم أشبهت (قد) (لمّا) في أنها لا يفصل بينها وبين الفعل» (الكتاب، (3 / 114 ـ 115) ويشرح السيرافي قائلا : «أراد على وجه الاختيار [...] ومما يوجب ألاّ يفصل بينها وبين الفعل أنها نقيض. (لمّا)، و(لما) حرف جازم. تقول : ركب زيد ولما يتعمم، فيقول الراد : بل ركب وقد تعمم. معناه : ركب وهذه حاله. الا أنهم أجازوا الفصل بينها وبين الفعل (الكتاب، 3 / 115، الحاشية رقم 1).

إن الفصل بين (قد) والفعل جائز على قبح. فالجواز في مستوى النظام. أما الحسْن والقبح فيقعان على مستوى أدنى من مستوى النظام، هو مستوى المعيار الصوابي. فالكلام نحويا جائز أو غير جائز. والجائز حسن أو قبيح. وذلك يعني أن الحسن والقبح قسمان واقعان في داخل دائرة الجواز لا في خارجها. وهذا ما تظهره الشجرة التالية :



رسم رقم 2

(5) انظر، Hassan HAMZE: La coordination à un pronom "conjoint" PP. 249-271, notamment 258-260, 267-270.

ب - المستوى المعنوي (مطابقة المعنى للحقيقة الخارجية) :

يذكر سيبويه من وجوه الكلام المستقيم الكذب والمحال الكذب ويستدعي الكذبُ الحقَ كما يستدعي المحالُ المستقيم، والقبيحُ الحسنَ. غير أنّ سيبويه لا يحد الكذب كما حد المحال والقبيح وربما كان ذلك لأن هذه اللفظة ليست من أوضاع النحو ولا من مقاييسه أو لانها واضحة لا تحتاج الى حد. ألا ترى أنْ لو أنّ انسانا «سألك عن الواضح ، شقّ عليك أن تأتي بما توضح به الواضح» ؟ (الكتاب، 235/4). غير أن الزجاجي عرّف الحق والكذب فقال :

«فأما المستقيم الحق فقولك : خرج عبد الله أمس [...] إذا أخبرت بذلك وقد كان. وأما المستقيم الكذب فأن تخبر بذلك ولم يكن، فيكون مستقيما في الوضع كذبا. ومنه : شربت ماء البحر إذا أردت جميعه [...] فهذا مستقيم في الوضع كذب لان البيّنة تدفع أن يكون هذا» (**اشتقاق اسماء الله تعالى**، 170).

وقد عبر الشنتمري عن هذا المعنى في شرحه للكتاب، وعلل ما مثّل به سيبويه للكذب فقال :

«إنما خصّ (حملت الجبل) و(شربت ماء البحر) لان قولها يدل على كذب قائلها قبل التصفح والبحث. والا فكل كلام تكلم به مخبره على خلاف ما يوجبه الظاهر كذبٌ عُلم أو لم يُعلم» (الشنتمرى : **النكت في تفسير كتاب سيبويه**، (1 / 133 ـ 134).

إن معيار الحكم على الكلام بالصدق أو الكذب إنما هو مطابقة الكلام للواقع الخارجي الذي جاء الكلام تعبيرا عنه. فلفظة من قبيل (بعْت) إن قصدنا بها الإخبار، أي إن لم نقصد بها الانشاء الايقاعي، لا بد لها من بيع خارج حاصل بغير هذا اللفظ، نقصد بهذا اللفظ مطابقته لذلك

الخارج. فإن حصلت المطابقة المقصودة فالكلام صدق، والا فهو كذب. فلهذا قيل إن الخبر محتمل للصدق والكذب. (الاسترباذي : **شرح الكافية**، 225/7). غير أنّ صدق الكلام أو كذبه ليسا من أوضاع النحو ولا من مقاييسه، فلا شأن للنحوي بهما. ولا ريب في أنّ سيبويه يريد بهذا المثال أن يقول إن قبول النحوي لجواز كلام ما لا علاقة له بصدق محتواه أو بكذبه[6].

ج - المستوى التداولي (مطابقة المعنى لمعايير التواصل بين المتخاطبين) :

ليس هذا المستوى من شأن علماء المعاني فحسب، بل هو من شأن النحويين كذلك، لانه يبحث في جدوى الكلام والشروط الضرورية التي يتم بها التواصل بين المخاطِب والمخاطَب ليقوم الكلام بالوظيفة التي وجد لاجلها. وقد جعل سيبويه هذا المستوى أساس تصنيفه، وركبه مع المستويين الآخرين لتكتمل له وجوه الكلام في الاخبار. فقد جعل الكلام مستقيما أو محالا، وحد المحال بقوله : «واما المحال فأن تنقض أول كلامك بآخره فتقول : اتيتك غدا، وسآتيك امس» (**الكتاب**، 25/1).

اختار سيبويه الزمان مثالا في حده للاحالة لوضوحه. فالزمان خط متصل وفي الفعل دليل عليه لأنّ الفعل كما يقول سيبويه «بني لما مضى منه وما لم يمض» (**الكتاب**، 36/1). فقولك : (أتيتك) يفرض أن يكون الحدث في الزمن الماضي لأن هذا الفعل (أتى) بني لما مضى من الزمان. وقولك : (غدا) يفرض أن يكون الحدث في الزمان المستقبل لان

---

(6) ينقل ابن فارس رأي "اهل النظر" فيقول : «الخبر ما جاز تصديق قائله او تكذيبه [...] ثم يكون واجبا وجائزا وممتنعا فالواجب قولنا : النار محرقة، والجائز قولنا : لقي زيد عمرا، والممتنع قولنا : حملت الجبل» (*الصاحبي*، 179).

الظرف دليل عليه. وهذا التناقض بين ما يدل عليه الفعل وما يدل عليه الظرف يعطّل التواصل، فلا يعرف المخاطَب مراد المتكلم.

وللمعترض أن يقول إن هذا الكلام ليس محالا، فقد يقصد المتكلم الى غرض بلاغي بخروجه عن المألوف، فيستخدم الفعل الماضي لما لم يمض رغبة منه في تأكيد الحدث. فالمستقبل في عالم الغيب والاحتمال، والماضي في عالم الواقع الثابت. والقائل لا يقصد باستعمال الماضي الى القول أنّ الحدث وقع فعلا، بل الى القول إنّه واقع لا محالة، اي أنّه يخرجه من دائرة الاحتمال الى دائرة التوكيد.

ولا نظن أنّ سيبويه لا يفطن لمثل هذا الاعتراض، فالامثلة كثيرة في العربية على ما قد يبدو للنظرة الآلية تناقضا وإحالة، كما هو الحال في الآية :

يقدُم قومه يوم القيامة فأوردهم النار (القرآن، 98/11)(7)

وليس هذا الكلام محالا لان السامعين، وهم العرب الذين يوجه اليهم هذا الخطاب يفهمونه ولا يجدون فيه تناقضا، وإن كان التطبيق الآلي لمثال سيبويه يجعله متناقضا محالا لانه يُتبع الفعل الذي "بُني لما لم يمض من الزمان" وهو قوله : (يقدُم يوم القيامة) فعلا بُني لما مضى منه، وفي هذا خروج عن المعروف في العطف بالفاء. غير أنّ السامع يعرف أنّ ما

---

(7) يبدو أنّ هذه الآية لم تستوقف النحويين، فلم يعلق عليها سيبويه في *كتابه*، ولا الفراء في *معانيه*، ولا الأخفش في *معانيه*، ولا المبرد في **المقتضب**، ولا الجرجاني في **المقتصد**، الخ. واكتفى السيوطي بذكرها في *همع الهوامع* (24/1) مثالا على الماضي الذي يمكن أن ينصرف معناه الى المستقبل اذا عُطف على ما عُلم استقباله. ولم يتوقف المفسرون طويلا أمامها فاكتفوا بالقول إن الفعل قد ذُكر بلفظ الماضي والمراد به المستقبل (القرطبي : الجامع لأحكام القرآن، الطبرسي : *مجمع البيان* ، الخ).

يبدو متناقضا في هذا المثال إنما يأتي لنكتة أرادها واضعه. ولو صدر هذا الكلام عمن لا يتقن اللغة ولا يعرف أسرارها لَعُدّ الكلام متناقضا محالا[8] ويبدو أن سيبويه حين يقول عن الامثلة التي ذكرها إن آخرها ينقض أولها يقف موقف السامع الذي يرى أنّ اول الكلام يدعوه الى شيئ وآخره يدعوه الى شيئ آخر، فلا يدرك كنه الخطاب. إن تتبع أمثلة المحال في كتاب سيبويه تبرز هذا الدور الاساسي للمخاطب في الحكم على الكلام بالاستقامة أو بالاحالة[9] وهو حكم لا يأخذ الكلام مقطوعا عن إطاره وعن مجمل الظروف التي أنتجته، ولذلك يحكم سيبويه بالاحالة على امثلة تبدو في ظاهرها، مجردة عن اي سياق، مستقيمة لا نقض فيها، وانما جاءها النقض من السياق الذي وردت فيه. فأنت قد تقول مخبرا : أنا عبد الله لمن لا يعرفك، غير أنّك لا تقول ذلك مخبرا لمن يعرفك، بل تقوله فاخرا أو موعدا، الخ. وإن كانت صيغته صيغة الخبر. فان قلت لا فاخرا ولا موعدا لمن يعرفك (انا عبد الله) كان الكلام محالا لان آخره ينقض اوّله. ووجه النقض فيه أنّ السامع الذي يعرفك لا ينتظر منك أن تخبره انك عبد الله لانّ هذا قد استقر عنده. يقول سيبويه : إن قولك لمن يعرفك : (انا عبد الله منطلقا في حاجتك) محال إن كنت تريد الإخبار عن الانطلاق وان لم تكن توعد او تفخر او تصغّر نفسك لانك في هذه الاحوال تعرّف ما ترى انه قد جُهل، او تُنزّل المخاطب بمنزلة من

---

(8) وربما يقرب من هذا التمييز بين المتكلمين في الحكم على الكلام ما يقوله السكاكي في التمييز بين قولك : (أفأنتم شاكرون ؟) وقوله تعالى في الآية 30 من سورة الانبياء: (فهل أنتم شاكرون ؟)() يقول السكاكي : .ولكون (هل) ادعى للفعل من الهمزة لا يحسن : (هل زيد منطلق ؟) الا من البليغ، كما لا يحسن نظير قوله : (ليبك يزيد ضارع لخصومة) من كل احد (**مفتاح العلوم**، 149). يريد بذلك ان البليغ يعرف مواقع (هل) وانها ادعى للفعل من الهمزة. فان ترك الفعل معها فليس ذلك عن جهل بموقعها ووظيفتها، وانما هو خروج متعمد عن هذا الموقع وتلك الوظيفة ليكون ذلك ابلغ في تنبيه السامع.

(9) انظر : M.G. CARTER : An Arab grammarian of the eight century a.d., p. 149

يجهل فخرا او تهددا او وعيدا ،لانه انما أراد أن يخبر بالانطلاق، ولم يقل (هو) ولا (انا) حتى استغنيت انت عن التسمية [...] الا ان رجلا لو كان خلف حائط او في موضع تجهله فيه فقلت : (من انت؟) فقال : (انا عبد الله منطلقا في حاجتك كان حسنا)» (**الكتاب**، (2 / 30 ـ 31).

ويفترض أن يدخل في المحال عند سيبويه ما كان فيه الجزء الثاني تكرارا للجزء الاول كقولك مخبرا : (عبد الله عبد الله)، فليس عقد الاخبار على ذلك، كما يقول ابن جني (*الخصائص*، 3 / 336 ـ 339) «لانه يجب ان يستفاد من الجزء الثاني ما ليس مستفادا من الجزء الاول»، لانك اذا قلت : (عبد الله) وعدت السامع بان تقدم له خبرا تبنيه عليه ثم نقضت ذلك بتكرير الاسم. اما قول القائل : (انا ابو النجم وشعري شعري)، وقولهم : (إذ الناس ناس والبلاد بلاد) فهو كلام مستقيم كما يقول ابن جني لانه «محمول على معناه دون لفظه. ألا ترى أنّ المعنى : وشعري متناه في الجودة على ما تعرفه وكما بلغك. وقوله (اذ الناس ناس) اي إذ الناس أحرار، والبلاد احرار [...] فلولا هذه الاغراض وانها مرادة معتزمة لم يجز شيء من ذلك [...] فهذه طريقة استحالة المعنى» (**الخصائص**، 3 / 336 ـ 339).

يبقى أن نشير الى مسألة يثيرها تصنيف سيبويه وهي علاقة الاحالة بالصدق والكذب[10] فقد ذكر سيبويه من اوجه الكلام ما هو محال وما هو محال كذب. ويفترض المحال الكذب أنّ المحال الذي ذكره سيبويه دون زوجه انما هو المحال الحق. ولا ريب في انه لولا وجود المحال الكذب في تصنيف سيبويه لامكن أن يقال إن المحال الذي ورد دون تركيب لا يصح القول فيه إنه صدق او كذب، وهذا ما قال به الاخفش. فالمحال عنده «ما

---

(10) انظر في علاقة الاحالة بالكذب في الشعر عند حازم القرطاجني بشكل خاص . شكري المبخوت : المعنى المحال في الشعر، صص 137/71.

لا يصح له معنى، ولا يجوز ان تقول فيه صدق ولا كذب، لانه ليس له معنى. الا ترى انك اذا قلت : (اتيتك غدا) لم يكن للكلام معنى تقول فيه صدق ولا كذب» (حاشية **الكتاب**، 26/1). فان كان الامر كذلك كانت اوجه الكلام في الاخبار عند الاخفش على ما يلي :

	حسن	قبيح	حق	كذب
مستقيم	أ[9]	أ	أ	أ
محال	أ	أ	×	×

رسم رقم 3

غير أنّ النسخ التي بين أيدينا من كتاب سيبويه، وهي ما نعوّل عليه الا إن ظهر ما يعدله[11] تذكر المحال الكذب. والزجاجي الذي يذكر قول الاخفش بنفي المحال الكذب يعلق قائلا : «والقول ما ذهب اليه سيبويه، لانه قد فرق بين المحال ومحال الكذب بما يستغنى به عن اعادته» (**اشتقاق اسماء الله تعالى**، 171)، ولكن ليس في كتاب سيبويه تعليل وشرح لهذا الفرق بين المحال والمحال الكذب، ولا كيف يكون الكلام كذبا وهو محال ينقض آخرُه أوّله.

---

(11) تقول جنفياف هومبرت Geneviève Humbert في مقالة لها بعنوان : Un témoin fossille du Kitâb de Sîbawayhi. انها عثرت على نسخة من الكتاب تختلف اختلافا واضحا عن النسخ المطبوعة منه، وتعتقد انها اقدم من هذه النسخ وقد سمعت، وانا اعد هذه المقالة للنشر ان محمد كاظم البكاء قد عثر على نسخة اخرى من كتاب سيبويه ونشر الجزء الاول منها.

يبدو لي أنّ الحكم باحالة الكلام وكذبه عند سيبويه حكمان اثنان لا حكم واحد، يقعان على مستويين مختلفين دائما : مستوى الكل ومستوى الجزء، او مستوى السياق ومستوى النص.

يقول سيبويه : «واما المحال الكذب فان تقول : سوف اشرب ماء البحر امس». هذا الكلام محال لان آخره ينقض اوله، وهو كذب لان شرب ماء البحر ليس في طاقة احد. غير ان الحكم بكذب الكلام هنا لا ينطبق على الكلام باكمله، بل على جزء منه، وهو قوله : ساشرب ماء البحر. فالكذب اذن سابق للاحالة لان تكذيب المتكلم يقع قبل ان يُحكم على الكلام بالاحالة. فلا يصح الحكم بالكذب وبالاحالة على الكلام الا اذا كان فيه اكثر من خبر واحد، فياتيه الكذب من وجه، وتاتيه الاحالة من وجه آخر. ان الحكم بالكذب في مثال سيبويه انما هو على شرب ماء البحر. اما الاحالة فتاتيه من وجه آخر، وهو وضع هذا الحدث في الزمان. فالنقض حاصل بين الزمان الماضي والمستقبل، لا بين الشرب وعدمه. فالكلام كذب باعتبار الحدث، ومحال باعتبار الزمان. ولا عبرة بالاحالة من جهة الزمان لنفي كذب الخبر، فالخبر كذب كيفما قلبت الزمان. ان قلت : ساشرب ماء البحر غدا، او ساشرب امس، او شربت غدا، او شربت امس، فالكذب من وجه والاحالة من وجه آخر. ولو كان مثال سيبويه : (سوف اشرب امس) دون ذكر لماء البحر، لما أمكن أن يقال في الكلام إنه كذب. ويبدو أن الاخفش اختار لهذا السبب مثالا آخر يبرر به رفضه للحكم على الكلام بالاحالة والكذب فقال : «الا ترى أنك إذا قلت : أتيتك غدا) لم يكن للكلام معنى يقال فيه صدق ولا كذب ؟». فمثل

الاتيان كمثل الشرب لا يمكن أن يحكم عليه وحده بالصدق ولا بالكذب كما يحكم على شرب ماء البحر[12]. وربما سمح هذا التعليل وتقسيم الكلام الى خبرين يحكم على احدهما بالكذب وعلى ثانيهما بالاحالة، بالحديث عن المحال الحق. وذلك بان يكون في الكلام خبر قد ثبت وقوعه، كذكر حدث من احداث التاريخ على سبيل المثال فيكون الكلام صدقا، ثم ينقض اول الكلام بآخره فيكون الكلام محالا. اما اذا أُخذ الكلام على مستوى واحد، فلا يصح الحديث في الاحالة عن صدق او عن كذب[13].

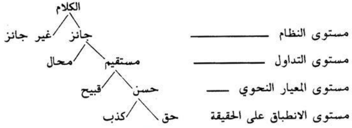
ومما يقوي هذا الراي ويعضده أنّ سيبويه يعتبر كلاما من مثل : (انا عبد الله منطلقا في حاجتك) يقوله عبد الله لاحد اخوانه محالا، وهو عين الحقيقة، وان ابن جني يعتبر كلاما من مثل : (انا انا) او (عبد الله عبد الله) محالا وليس في الكلام ما هو اكثر انطباقا على الحقيقة الخارجية منه. فهذا الكلام من المحال الحق. غير ان الصدق والاحالة ياتيانه من وجهين مختلفين : فالكلام محال لان آخره ينقض اوله. ووجه النقض فيه انه خبر ولا خبر فيه، فهو ينقض ما ينتظره السامع من الخبر، وبذلك يتعطل التواصل بين المتكلم والسامع. على ان هذا الكلام حق ان لم ينظر الى مجمل الظروف التي انتجته لان عبد الله هو عبد الله، والكلام

---

(12) ربما كان تقسيم الكلام الى خبرين هو ما عناه العسكري في حديثه عن المحال الكذب حين قال : «ويجوز ان يكون الكلام الواحد كذبا محالا، وهو قولك : (رأيت قائما قاعدا) و(مررت بيقظان نائم)، فتصل كذبا بمحال، فصار الذي هو الكذب هو المحال بالجمع بينهما، وإن كان لكل واحد منهما معنى على حياله وذلك لما عقد بعضها ببعض حتى صارا كلاما واحدا» (**كتاب الصناعتين**، 70).

(13) يقول ابو طاهر البغدادي : «فاما المستحيل فهو الشيء الذي لا يوجد، ولا يمكن مع ذلك ان يُتصور في الفكر» (**قانون البلاغة**، 23)

على هذا المستوى يطابق الحقيقة الخارجية، فالحكمان بالحق وبالاستحالة يقعان على مستويين مختلفين. وربما سمح اختلاف المستويات التي يعتمد عليها سيبويه في هذا الباب برسم الشجرة التالية



رسم رقم 4

ويبدو أنّ الخبر عادة انما هو في الجانب الأيمن من هذه الشجرة فهو مستقيم حسن حق، الا إن قلنا إنّ أعذب الكلام اكذبه.

ثبت المصادر والمراجع الواردة في البحث

باللغة العربية :

ابن جني : **الخصائص**، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، 1955.

ابن فارس : **الصاحبي في فقه اللغة**، تحقيق مصطفى الشويمي، مؤسسة بدران، بيروت، 1964/1384.

ابو طاهر البغدادي : **قانون البلاغة في نقد النثر والشعر**، تحقيق محسن غياض عجيل، مؤسسة الرسالة، ط 2، 1989/1409.

ابو هلال العسكري : **كتاب الصناعتين**، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد ابو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، 1989/1406.

الأخفش سعيد بن مسعدة : **معاني القرآن**، تحقيق فائز فارس، ط 2، 1401 / 1981

الاسترابادي رضي الدين : شرح **الكافية في النحو**، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

الجرجاني عبد القاهر : **المقتصد في شرح الايضاح**، تحقيق محمد كاظم بحر المرجان، منشورات وزارة الثقافة والاعلام، بغداد، 1932.

الزّجاجي : **اشتقاق أسماء الله تعالى**، تحقيق عبد الحسين المبارك، مؤسسة الرسالة، ط2، 1936/1406 ؛ شرح **رسالة ادب الكاتب**، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم 39 ش ادب

السكاكي : **مفتاح العلوم**.

سيبويه : **الكتاب**، تحقيق عبد السلام هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1971/1391 ـ 1977/1397.

السيرافي : شرح كتاب سيبويه. انظر سيبويه : **الكتاب**

السيوطي : **همع الهوامع**، تحقيق عبد العال سالم مكرم، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1992/1413.

الشنتمري : **النكت في تفسير كتاب سيبويه**، تحقيق زهير عبد المحسن سلطان، منشورات معهد المخطوطات العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ط1، الكويت، 1407/1937

الطبرسي : **مجمع البيان في تفسير القرآن**، منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي، مطبعة العرفان، صيدا، 1333

الفراء : **معاني القرآن**، تحقيق محمد علي النجار واحمد يوسف نجاتي، عالم الكتب، بيروت، ط3، 1403/1993.

القرآن الكريم

القرطبي : **الجامع لأحكام القرآن**، دار الكتب العلمية، ط/، 1408/1938

المبرد : **المقتضب، تحقيق** محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت، د.ت.

المبخوت (شكري) : المعنى المحال في الشعر، **في صناعة المعنى وتأويل النص**، منشورات كلية الآداب، تونس، 1992، صص 71 - 137

بغير اللغة العربية :

Carter M.G. : An arab grammarian of the eight century a.d., *J.A.O.S.*, 93, 1973, pp. 146-157.

Hamze Hassan : La coordination à un pronom "conjoint", in *Arabica*, XXXVI, 1989, pp. 249-271.

Humbert Geneviève : Un témoin fossille du Kitâb de Sîbawayhi, in G. Bohas : *Développements récents en linguistique arabe et sémitique*, IFEAD, Damas, 1993, pp. 121-139.

الإبهام : معناه وتفسيره : كم نموذجا

بقلم : **الشاذلي الهيشري**

يتحدث النحاةُ عن الابهام في مواطنَ عدّةٍ من مؤلفاتهم ضمن مقولاتٍ نحويةٍ مختلفة. فهم يتحدثون عنه في الاعراب ومعانيه[1] وفي التنكير[2] وفي الأسماء المبنية[3] وفي الحروف[4] وفي الظروف والأسماء الملازمة للإضافة[5] وفي الموصولات[6]... ويبدو أنّ الابهام في هذه المواطن يتراوح بين مفهومين : عام واصطلاحي. فما الابهام ؟ وما صلته بالنظام

---

(1) انظر مثلا تعريف النحاة للتمييز ،والتمييز يشبه الحال في رفع الابهام، شرح المفصل ج2 / 70.

(2) ،الاسم النكرة مبهم لا يخصّ واحدًا بعينه، الإنصاف في مسائل الخلاف ج1 / 562.

(3) ،الأسماء المبهمة هذا وهذان وهذه وهاتان وهؤلاء وذلك وذانك وتلك وتانك وتينك وأولئك وهو وهي وهما وهم وهنّ وما شابه هذه الأسماء، الكتاب ج 2 / 77 ـ 78.

(4) ،الحرف وحده لا معنى له أصلاً إذ هو كالعلم المنصوب بجنب شيء ليدل على أنّ في ذلك الشيء فائدة ما. فإذا أفرد عن ذلك الشيء بقي غير دال على معنى أصلا، شرح الكافية ج 1 / 15.

(5) الظروف المضافة هي الظروف الدّالة على الجهات الست :،فوق ـ تحت ـ أمام ـ قدام ـ خلف ـ وراء ـ تلقاء ـ حذاء ـ تجاه، وغيرها : ،عند ـ لدن ـ لدى ـ بين ـ وسط ـ دون،.
والأسماء اللازمة للإضافة من غير الظروف مثل : ،شبه ـ نحو ـ غير ـ بيد ـ قيد ـ قاب ـ أي ـ بعض ـ كل ـ كلا ـ ذو ـ حسب،.

(6) ،الموصولات كلّها حرفية كانت أو إسمية ـ يلزم أن يقع بعدها صلة تبيّن معناها، شرح ابن عقيل ج 1 / 153.

النحوي القائم على الوضوح والبيان ؟ وإلى أي قسم من أقسام الكلام ينتمي المبهمُ ؟ وما هي خصائصه الصوتيةُ والصرفية والتركيبية والإحالية ؟

الإبهـام العـام :

يربط النحاةُ مفهومَ الإبهام عامة بحاجة اللفظ الى اللفظ لقصوره مفردًا عن الإفادة. فالحروف جميعها مبهمة لحاجتها الى الاسم (حرف التعريف مثلا) والفعل (حرف الاستقبال) والجملة (حرف النفي). ولكون الحرف «لا يدل على معنى إلا في غيره افتقر الى ما يكون معناه ليفيد معناه فيه»[7]. والفعل مبهم لاحتياجه الى معانٍ نحوية تقيده وتكمله (الفاعلية المفعولية) وبدونها يكون ناقصا فلا يتصرّف ولا يعمل وهو معنى قول النحاة «ولا يجوز إخلاء الفعل عن الفاعل»[8]. فلا يتصور اكتفاء الفعل بنفسه ولو كان ذلك من وجهة علم الصرف وهو علم يُعنى بذوات الكلم المفردة وذلك لأن الفعل صيغة صرفية تتشكل من عناصر معجمية واشتقاقية وتصريفية لابدّ أن تتلاءم ومقتضيات تركيبه مع الفاعل.

ويتعذّر أن يقع الإسم خارج التركيب، فأنتَ على سبيل المثال حين تستعمل إسما لا بدّ لك من أن تضعه في إحدى حالاتِ الإعراب الثلاث، لأنّ في ذهنك بحكم الملكة اللغوية بُنًى تركيبةً راسخةً لا بدّ أن ينتظم ذلك الإسم في إحداها فيكون مرفوعا أو منصوبا أو مجرورًا بحسب احتياجه أن يُخبر به أو يُخبر عنه.

وهذا يعني أنّ الكلام قائم على التركيب أي أنه محكوم في الأساس بقواعد النحو. والتركيب مبنيّ على العلاقات الوظيفية بين المكوّنات النحوية ولا تكونُ العلاقات دون افتقار المكوّنات الى تعالق بعضها ببعض.

---

(7) شرح المفصل ج 8 / 118.
(8) شرح المفصل ج 1 / 75.

وكلّ عنصر خارج التركيب الضروري له فهو في عداد المبهمات. غير أنّ العناصر اللغوية تتفاوت في درجة افتقارها الى التركيب. ويمثل تفاوتها هذا درجاتٍ في إبهامها، من ذلك أن الإسم الموصول أكثرُ إبهامًا من الفعل، والحرفَ أكثر إبهامًا من الإسم الموصول وهكذا ... ومن المؤكّد أن النحاة لم يطلقوا مصطلح الابهام على جميع العناصر اللغوية بالرغم من احتياجها جميعًا الى التركيب، وحصروه في قائمة مغلقة من الأسماء، من ضِمْنها (كَمْ). ففي أيّة درجة من درجات الاحتياج التركيبي استعمل النحاة مصطلح الابهام ؟ ولماذا وسموا به طائفة من الأسماء دون غيرها من الأسماء والأفعال والحروف ؟

الإبهام الإصطلاحي :

يستعمل النحاة مصطلح (الابهام) في مقابل مصطلح (التعيين) «المبهم ضدُّ المفصّلِ المعيّن كالمجهول ضدّ المعهود المعلوم»[9] وهم يميّزون بينهما دلاليًا بنوع الإحالة المرجعية لكل منهما. فالمعيّن ما انطبق عليه حدُّ الإسم[10] وهو الدّال حقيقةً على مسماه مثل إسم الجنس، والإسمُ العلمُ والإسمُ الصفةُ. أمّا المبهم فهو ما اختص بالإحالة على المعنى العام المجمل أي أنه لا يدلّ على مسمّى معيّن، فهو خارج عن حدّ الإسم، مثلُ إسم الاشارة يشار به الى كل شيء، وضمير الغيبة يكنّى به عن الشخص واللاّشخص من الجماد والحيوان. و(كم) يكنّى بها عن العدد قليلاً كان أو كثيرًا ـ مذكّرًا أو مؤنّثًا، فخاصيتها المرجعية هي الابهام في الجنس والمقدار[11].

---

(9) الأشموني ـ شرح الألفية جا / 188 ـ 189.

(10) الكلمة «إن دلت على معنى في نفسها غير مقترنة بزمان فهي الإسم» ابن عقيل شرح الألفية جا / 15.

(11) المرادي ـ الجنى الداني في حروف المعاني ص 261.

ويلاحظ المتأمّلُ في الإسم أن المعيّن منه أقلُّ احتياجًا الى التركيب من المبهم. فهل بين المفهوم الدلالي (الإحالي) والمفهوم الإعرابي (التركيبي) من علاقة ؟ لننظر أوّلاً في اسم معيّن، وهو بالأساس مُعرب، مثل (كتاب). إنّ هذا اللفظ معبّأ مرجعيًا بالدلالة على مسمّى معيّن وهو مهيّأ نحويًا لأن يكون في محلات الفاعلية والمفعولية والإضافة. وهو لا يختصّ بعامل معيّن لذلك لا يحتاج الى تركيب خاص يتقيّد به وهو بهذا الاعتبار اسم تام. وإذا نظرنا في إسم مبهم، وليكن ظرفًا غير منقطع عن الإضافة مثل (إذ)، فإننا نلاحظ أن (إذ) مرجعيًا «تقع على الأزمنة الماضية كلها، مبهمةً فيها لا اختصاص لها ببعضها دون بعض»[12]. أما نحويًا فإنها تحتاج بالضرورة الى عامل هو الفعل، ووظيفتها مفعول فيه ولا بدّ أن تضاف الى الجملة الفعلية أو الإسمية إضافة احتياج «وهي مبنية لافتقارها الى ما بعدها من الجمل»[13]. ولذلك فهي من قبيل الأسماء الناقصة المحتاجة الى الصلات.

من المثالين السابقين نستخلص مبدأين لغويين :

أوّلا : تمام الإحالة المرجعية تُضعف الحاجة الى التركيب.

ثانيا : نقصان الإحالة المرجعية تقوي الحاجة الى التركيب.

واستنادا الى هذين المبدأين يمكن القول إنه تتوفر في كل لفظ علاقةُ تناسب عكسي بين خاصيته الإحالية وخاصيته التركيبية. ولذلك فإن الربط بين المفهومين الإحالي والتركيبي ضروري في فهم خصائص المبهمات.

المبهمـــات :

تتمثل المبهمات في قائمة مغلقة من العلامات هي في أقسام الكلم أضربٌ إسمية ذاتُ خصائص صوتية واشتقاقية وتركيبية وإحالية تميّزها عن

---

(12) شرح المفصل ج4 / 95.

(13) الجني الداني في حروف المعاني ص 186.

سائر الأسماء. وهي أسماء الإشارة والأسماء الموصولة والضمائر والأسماء المضافة من الظروف ومن غير الظروف، والكنايات وأسماء الاستفهام وأسماء الشرط وأسماء الأعداد وأسماء المقادير.

وهي في أغلبها خارجة عن الأصل الاشتقاقي العادي، وهذا لا ينفي إمكانَ اشتقاقها إذ الاشتقاق في رأينا أوسعُ من أن ينحصر في أصلين ثلاثي ورباعي. ولا معنى لأن تكون العربية لغة اشتقاقية ومجموعات كثيرة من وحداتها توجد خارج دائرة الاشتقاق. فالاشتقاق أهم خصيصة من خصائصها. وهو قوّة توالدية فيها ممّا يدفع الى الافتراض بأن كلّ الكلمات في العربية مشتقة. ويحسن أن نستدلّ على شرعية هذا الافتراض بالنظر في البُنية الاشتقاقية لاسم مبهم، وقد اخترنا (كَمْ) مثالا لذلك لطرافة بنيتها الاشتقاقية من ناحية وقوّة الابهام فيها من ناحية أخرى.

كم إسم مشتقّ

يذهب الكوفيون في أكثر المسائل المتعلقة بأصل الكلمات الى القول بتركيبها[14] أي باشتقاقها وهو مذهب قائم على الافتراض ولكنه افتراض مُفيدٌ باعتبار أن الكلمة العربية لا تنشأ في رأينا من عدم بصورة مكتملة دُفعة واحدة، بل تتولد على مراحل من عناصر لغوية تتناسب وتتركب على هيئة مخصوصة.

ونحن نفترض افتراضهم في اشتقاق (كَمْ)[15] مع زيادةٍ في الشرح والتوضيح. وللاستدلال على اشتقاقها لابدّ من الانطلاق من طريقة العرب في التعبير عن الكمية والمقدار بالسؤال عنهما أو الإخبار بهما. وقد جاء في القرآن من ذلك قوله تعالى :

(14) انظر الإنصاف في مسائل الخلاف ـ المسألة 59 ج2 / 669 وهي تتعلق بـ «ذا» و«الذي». والمسألة 96 ج2 / 677 وهي تتعلق بـ «هو» و«هي».

(15) الإنصاف في مسائل الخلاف ج1 / 298 ـ المسألة 40.

«سَلْ بني اسرائيل كَمْ آتيناهُم من آيةٍ بَيِّنَةٍ» سورة البقرة الآية 211.
وقوله كذلك :

«وكَأيِّنْ من آيةٍ في السَّماواتِ والأرض يَمُرُّونَ عليها وهمْ عَنها مُعْرِضُونَ» سورة يوسف آية 105.

فالعربية تستعمل في السؤال عن الكمية والمقدار والإخبار عنهما إسمين هما : (كَمْ) و(كَأيِّنْ) وَهُمَا في معنى (كَأيِّ شَيْء) ؟

وتستعمل اللهجة التونسية (قدّاش) وأصلها «قدر أيِّ شيء». وغيرُ خفيٍّ الشبهُ بين (كَأيِّ شيء) و(قدْر أي شيء).

وتتركب (كأيِّ شيء) من ثلاثة عناصر :

- كاف التشبيه وهي أداة حركة نحو التسوية، تتجه بالمشبه نحو المشبه به ولا تبلغ به المساواة.
- أيّ وهي إسم استفهام.
- شيء وهو اسم جنس مبهمٌ لوقوعه على كل الموجودات بل هو أصل المبهمات في النحو كما أنّ (س) أصل المبهمات في الرياضيات.

إنّ للركب الحرفي (كأيّ شيء) معنى إنشائيّا هو الاستفهام، ولاختصاص المعاني الإنشائية بأدوات مناسبة، فقد تولّد عن هذا المركب النحوي أداتان تفيدان الاستفهام حسب التوضيح التالي :

1) كأيّ شيء ← كأيّ (...) ن.

نفترض أن إسم الجنس النكرةَ المبهم (شيء) قد حُذف فينتج عن حذفه بالضرورة أن يلحق الإسم المضاف (أيّ) التنوينُ، والتنوين علامة التنكير وأمارة على إبهام الإسم «النكرة إسم مبهم في جنسه»[16] وهو أيضا

---

(16) شرح المفصل ج5 / 85.

علامة على نهاية الكلمة وعدم وصلها بغيرها، لذلك لا يجتمع مع الإضافة، فاذا حضر التنوين غابت الإضافة والعكس بالعكس. وتلاحظ هذه الظاهرة في كثير من الأمثلة :

كُلُّكم صادقٌ = كلٌ صادق
جاء جَميعُنا = جِئْنَا جَميعًا

يقول ابن يعيش = إضافة الإسم الى الإسم إيصاله اليه من غير فصل، وجعلُ الثاني من تمام الأوّل يتنزل منه منزلة التنوين.[17]. فالتنوين تعويض للمضاف اليه المحذوف. ولهذا فمن حيث المكوّنات لا يختلف (كأيّ شيء) عن (كأين) إلاّ في وسم الإضافة في الأوّل، ووسم التنوين في الثاني إلاّ أنّ (كأيّ شيء) تعبيرٌ عن المعنى الإنشائي بالمركب النحري و(كأين) تعبيرٌ عنه بالأداة.

ويبدو أن الاستفهام بـ (كأيّن) ظلّ رهْنَ بعض النصوص القديمة (القرآن - الشعر العربي القديم)[18]. فقد غلّب الاستعمال عليه الاستفهام بـ (كَمْ) قديما وحديثا. ولعلّ ذلك يعود الى أن (كَمْ) أقرب في بُنيتها الصوتية. الى الأداة من (كأيّن)، فهي أقل منها أصواتًا، وهي ساكنة والأصل في ما زاد على حرف واحد من الأدوات أن يكون ساكنًا.

2) كأيّ شيء ← كَمْ

يمكن على سبيل الافتراض أن نعوّض المركب الإضافي (أيّ شيء) بـ (مَا) الاستفهامية لأدائهما نفس المعنى. يقول ابن هشام : «ما الاستفهامية

---

(17) شرح المفصل ج2 / 118.

(18) انظر نماذج من ذلك في مغني اللبيب ج 1 / 210. وقد رسم التنوين في الآيات القرآنية بنون «لأن التنوين لما دخل في التركيب أشبه النون الأصلية» حسب ابن هشام في نفس المرجع ونفس الصفحة.

معناها أيّ شيء»[19]. فقولك : أيُّ شيء تبحث عنه مُسَاوٍ لقولك : ما تبحث عنه ؟ أو عمَّ تبحث ؟

يُمكّن هـذا التعويـضُ من الحصول على مركـب من (كاف) التشبيه، و (ما) الاستفهامية : (كمَـا). فبمَ نفسّر التحوّل من (كَمَا) الى (كَمْ) ؟ يمكن أن نستند في هذا التفسير الى القياس كما فعل الكوفيون. لقد قَاسُوا (كمـا) في الاستفهـام على (لِمَا) وهي أداة يُسأل بها عن سبب وقوع الشيء وتتركب من :

حرف الجر (لِ) + (ما) الاستفهامية.

قصّرت الفتحةُ الطويلة من (مَا) أوّلاً للفرق بين الاستفهام والإخبار «ويجب حذف ألف (ما) الاستفهامية إذا جُرّتْ وإبقاءُ الفتحة دليلاً عليها نحو فِيمَ، وإلاَمَ وعَلاَمَ ولِمَ [...] وعلّة حذف الألف الفرقُ بين الاستفهام والإخبار»[20].

ثم حذفت الفتحة القصيرة تماما لِمَ ← لِمْ

«وربما تبعت الفتحةُ الألفَ في الحذف»[21] فقالوا : «لِمْ فَعَلْتَ كَذَا» ؟ بمعنى «لِمَ فَعَلْتَ كَذَا» ؟

وعلى هذا القياس نفترض تغيّر (كَمَا) تدريجيا الى (كَمَ) أوّلاً ثم الى (كَمْ) ثانيا. كَمَا ← كَمَ ← كَمْ. والقياس في هذه الحالة جائز للتماثل في البنية الصرفية النحوية بين (لِمَا ـ كَمَا). فكلاهما مركب من حرف الجرّ ومن اسم الإستفهام (مَا).

---

(19) مغني اللبيب ج 1 / 328.

(20) نفس المرجع ـ نفس الصفحة.

(21) نفس المرجع ـ نفس الصفحة.

تراوح (كَمْ) بين مقولتين

(كم) كناية أي رمزٌ وعلامة على العدد والعددُ سلسلة غير متناهية من الأرقام، تُحصى بها الموجودات (إنسان ـ حيوان ـ جماد) قليلها وكثيرها. فـ (كَمْ) من حيث هذه القيمةُ الإسميةُ من أسماء التسوير الدّالة على الكمية نحو قليل وكثير وكل وبعض ... وتتحدّد دلالتها في غيرها لا في نفسها، فوظيفتها كوظيفة الحرف. فإذا قلت كَمْ كتابًا قرأت ؟ على الاستفهام، عملت (كَمْ) في الاسم بعدها عمل الحرف فيه، وتلقّت من الإسم نفسه دلالةَ التعيين، أي تعيين المعدود المقروء، فبين (كَمْ) وتمييزها تبادل وظيفي، فهي تعمل فيه وهو يعيّنها.

وقد يكون تراوحُهَا بين مقولتيْ الاستفهام والإخبار دليلاً على وجْهٍ آخر من إبهامها أو على كثافة الإبهام فيها. فالخبرية معناها الكثرة والإثبات ويُحتمل بها التصديق والتكذيب وتمييزُها مفرد أو جمعٌ في حالة جَرّ. أما الاستفهامية فمعناها إنشائي طلبي وتمييزها لا يكون إلاّ مفردًا منصوبًا على أشهر الآراء. وبين النوعين مسافةُ إبهام دلاليةٌ بلاغيةٌ نحويةٌ لا يذللها إلاّ المتكلم في إبلاغه وموقفه من حدث القول، ويكون ذلك بما يلوّن به كلامه من تنغيم Intonation. فالجملة المصدّرة بـ (كَمْ) تصدر غالبًا في شكل نحوي واحد والمتكلّم يحدّد نوعها خبرًا أو إنشاء[22] ومثاله :

كَمْ صَحْراء جُبْتَ (؟ !)

فلفظ (صحراء) ممنوع من التنوين لا يُعرف هل هو في حالة نصب أم حالة جرّ إلا بتدبّر (كَمْ) خبرية أو استفهامية. والتدبُّر من عمل المتكلم. فإذا أراد الخبرَ كان خطُّ التنغيم منحدرًا في نهاية جملته وكان لفظُ (صحراء) في محل جرّ وإذا أراد الاستفهامَ كان خطُّ التنغيم صاعدًا في آخر الجملة ووقع اللفظُ في محل نصب.

---

(22) لزهر الزناد ـ دروس في البلاغة العربية ص 109.

احتياج المبهم الى المفسّر

تتّصف المبهماتُ بنقص صياغي صرفي أي أنّه ليس لها تصريفٌ مقولي شبيهٌ بتصريف الأسماء المتمكنة المشتقة اشتقاقًا كاملاً. ولذلك تتحقق فيها ظاهرة العودة الى المفسّر لتوضيحها وشرحها وتبيينها. ويتمثل المفسّر في المشار اليه بالنسبة الى اسم الإشارة. وفي الإسم المتقدم الذكر في أغلب الضمائر، وفي الجملة الموالية لضمير الشأن بالنسبة الى ضمير الشأن وفي الصلة بالنسبة الى الموصول. وفي المضاف اليه بالنسبة الى الظروف المضافة وفي التمييز بالنسبة الى الكنايات والأعداد.

ويقع المفسّر غالبا بعد الاسم المبهم مباشرة وتكون العودة اليه من قبيل العودة الى اللاّحق (cataphore). ولا يخرج عن هذا الترتيب التلازمي (المبهم أوّلاً ثم المفسّر) إلاّ الضمائر. فالضمير يلي مفسّره في الغالب وعودتّه اليه ورائية (anaphore). ولا تتقدمه إلاّ إذا كان ضمير شأن. وليس اعتباطًا أن يُسمّي الكوفيون ضمير الشأنِ الضمير المجهول. فهو مجهول لأنه سابق لمفسّره.

ولعلّ تقدم المفسّر على ضميره سببٌ في اعتبار السيرافي الضميرَ إسمًا غير مبهم، وهو مبهم عند سيبويه والمبرّد[23] ومن تلاهما من النحاة. والأخذ برأي السيرافي يقودُ الى اعتبار الضمير في غاية الوضوح والبيان خاصة وأنه يلازم هيئةً نحوية واحدة في مختلف سياقاته التركيبية فلا يحتاج الى زيادة تفسير ضروري بل يحتاج الى زيادة توضيح يقتضيه المقام.

وتُفسّر (كَمْ) بالتمييز وهما يقعان في حيّز واحد. وقد يغيب التمييزُ فيبقى محلُّه شاغرًا لوجودِه فعلاً في البُنية العميقة للجملة. ومنه في الخبر قولُ المتنبي :

---

(23) انظر الكتاب ج 2 / هامش 77.

كَمْ قَددْ قتلتُ وكَمْ قد متُّ عندكم ثمّ انتفضْتُ فزال القبرُ والكفَنُ

على تقدير = كَمْ مرّة قد قتلتُ ـ وكمْ مرّة قد متُّ.

ومنه في الاستفهام = كَمْ عُمُرُك ؟ على تقدير كَمْ سنة أو عامًا عُمُرُكَ ؟

الخاتمة

اهتممنا في هذا العمل بضرب من الابهام شائع في اللغة ومتصلٍ بصنف المبنيات وهي أسماءٌ لا تحتاج الى الإعراب. والإعرابُ إبانة عن المعاني فهل يدلُّ عدمُ احتياج المبنياتِ المبهماتِ اليه أنها أقوى من الإعراب وأنه لا يعوزُها الوضوح ؟

لقد بيّنا في الفقرات السابقة أن الابهام ليس معناه الغموضَ واللّبس والإغرابَ إنما هو شيوعُ الدلالة وإجمالُها في اللفظ فيتسنّى إطلاقُه على مسميات عديدة. فالمبهم بهذا الاعتبار واضح يزيده المفسّرُ وضوحًا وتعيينا ويكشفُ عما فيه من مخزون ممكن من المعاني التي يستدعيها هدف المتكلم. ونقصد بالمخزون الممكنِ الثراء الدلالي المشحونَ في اللفظ المبهمِ فيحتاج لذلك الى المفسّر لتقييده في معنى مخصوص. ولو كان الإبهام غموضًا وإغرابًا لعُدَّتِ اللغةُ لوجود قائمةٍ من المبهمات فيها أداةً غامضةً قاصرة عن البيان والإفصاح. و.اللغة في جوهرها أداة بيان.[24] والإبهام فيها سِمة الوسم اللفظي المتعلّق بطائفة محدودة من الكلمات وليس هو .صفةَ القواعد المسيرة للإعراب.[24]. ولهذا تسنى استخدامُها للبيان عن البيان في الكلام العادي وفي النصوص العلمية وفي الأدب

(24) محمد صلاح الدين الشريف : مفهوم الشرط وجوابه ... أطروحة دكتورا الدولة ـ ص 78 (نسخة مرقونة).

القريب المأخذ وللبيان عن الابهام في ما يرمي اليه الأديبُ من حَجْب المعنى عن المتلقي.

وتتصف المبهمات بنقص في نظامها الصياغي الصرفي وبانبناء نظامها النحوي على الاحتياج وبشيوع الدلالة فيها، وتدلُّ هذه الخصائص على أنّ نظام المبهمات قائم بنفسه، موازٍ لنظام إسمي آخر غير مؤسس على الإبهام. ويكوّن هذان النظامان نظام الإسم الذي يتضمّن خطّا متواصلاً يمرّ من المبهم الى غير المبهم بحثًا عن الفائدة وإعرابًا عن المدلول القريب من التمام.

ظاهرة الأمّات في النحو العربي

بقلم : **سلمان القضاة**

تمهيــــد :

ونحن نقرأ في كتب النحو العربي، تلفت انتباهنا مصطلحات مثل : أمّ الباب أو أصل الباب أو أمّ حروف كذا ... مما يجعل هذه المصطلحات تكوّن ظاهرة في كتب النحو التراثية.

ويسمى النحويون بعض الأدوات بهذه الأسماء، عندما يجدون أداة سبقت - في الذكر - غيرها من بنات بابها، أو أنها انفردت بشيء دون سائر أخواتها. أو لأسباب أخرى، قد تتعدد في بعض الأحايين.

والأمر لا يخص الأدوات العاملة أو غير العاملة، ولكنه يشملها جميعها على حد سواء. فما هي الأسباب التي تؤهل الأداة لتكون أمّاً لبابها ؟ أهي أسباب دلالية ؟ أم هي أسباب تركيبية ؟ أم هناك أسباب أخرى، أو مجموعة من الأسباب المتنوعة، بعضها يعود الى الصيغة، وبعضها يعود الى الدلالة، وبعضها يعود الى شيوع الاستعمال وأسبقية الأداة فيه ؟ هذا ما آمل أن يكشف عنه هذا البحث.

ولأن هذه الأمومة ليست أمومة بيولوجية. وإنما هي أمومة مجازية، فقد جَعَلْتُ تسمية الظاهرة : ظاهرة الأمّات في النحو العربي وليس ظاهرة الأمهات، جريا على ما ترجّحه معظم المعجمات العربية، لأنّ هذه الأمّات ألفاظ لا تعقل. ولقد وجدت تسعا من الأمات تصلح ميدانا لهذه الدراسة وهي :

الهمزة أمّ أدوات الاستفهام، إلاّ أمّ أدوات الاستثناء. إنْ أمّ أدوات الشرط، أنْ أمّ أدوات نصب المضارع، إنّ أمّ الحروف الناسخة، كان أمّ الأفعال الناسخة، الباء أمّ أدوات القسم، الواو أمّ أدوات العطف، يا أمّ أدوات النداء.

الأمومة لغة :

جاء في المعجمات العربية : وأمّ كل شيء أصله وعماده، والأمّ للقوم رئيسهم لأنه ينضم اليه الناس، والأمّ من القرآن الفاتحة لأنه يبدأ بها في كل صلاة. ويقال لها أمّ الكتاب أيضا أو أمّ القرآن[1].

قال ابن دريد : كل شيء انضمت اليه أشياء من سائر ما يليه فإن العرب تسمّي ذلك الشيء أمّا، وأمّ القرى مكة زيدت شرفا لأنها توسطت الأرض فيما زعموا[2] والأمّ أصل الشيء للحيوان والنبات، وأمّ القرآن فاتحته، وأمّ الكتاب اللوح المحفوظ، وأمّ النجوم المجرة، وأمّ القرى مكة، وكل مدينة هي أمّ ما حولها من القرى، وأمّ الخبائث الخمر ... الخ[3].

---

(1) مختار الصحاح للرازي، ولسان العرب لابن منظور، وتاج العروس للزبيدي، والمعجم الوسيط لابراهيم أنيس ورفاقه، مادة : أم.

(2) تاج العروس، مادة أم.

(3) المعجم الوسيط، مادة أم.

يستفاد بما جاء في المعجمات العربية أن الأمومة قد تعني أصل الشيء وعماده، وقد تفيد أيضا أنه يمكن أن يسمى (أمّا) ما يفتتح بذكره باب أو كتاب كما هو الأمر في تسمية فاتحة الكتاب العزيز بأم القرآن.

وتشير المعجمات أيضا الى مفهوم آخر للأمومة في باب الجمادات، ألا وهو مفهوم التجمع على أي أساس مشترك، كما هو الحال في تسمية أمّ القرى، وأمّ الخبائث، وأمّ النجوم.

وفيما يلي عرض لتلك الأمّات التي تقوم عليها هذه الدراسة أَسْتَخْلِصُهُ من أمهات المصادر النحوية، وأجعل الأولوية فيه للمصدر الأقدم، وأتبعه بما وليه من مصادر أخرى، سواء أكدت ما ورد في المصدر الأقدم، أم أضافت اليه شيئا جديدا، يفيد في إلقاء الضوء على هذه الظاهرة، ويبيّن طرائق تفكير الأقدمين فيها.

أمومة الهمزة في باب الاستفهام

تشير المصادر النحوية الى أمومة الهمزة (ألف الاستفهام) في بابها؛ قال سيبويه: «وأما الألف فتقديم الاسم قبل الفعل فيها جائز كما جاز ذلك في هل، وذلك لأنها حرف الاستفهام الذي لا يزول عنه إلى غيره، وليس للاستفهام في الأصل غيره»[4]. ولئن ذكر سيبويه أنها أصل الاستفهام، إذ لم يكن للاستفهام في الأصل غيرها، فلقد أكد آخرون مقولة سيبويه وتابعوه، فأشار ابن يعيش الى أمومتها صراحة فقال: «فالهمزة أم هذا الباب والغالبة عليه ... وهي أعم تصرفًا في بابها من أختها هل»[5]. وذكر المبرد وابن هشام وغيرهما أنها أصل أدوات الاستفهام[6]. ويذكر ابن

---

(4) الكتاب لسيبويه 99/1.

(5) شرح المفصل لابن يعيش 151/8.

(6) المقتضب 45/2، مغني اللبيب 19، الجنى الداني 97.

هشام دليلين على تصدرها فيقول : «أحدهما أنها لا تذكر بعد أمْ التي للإضراب كما يذكر غيرها، فلا تقول : أقام زيد أمْ أقعد، وتقول : أمْ هل قعد. والثاني أنها إذا كانت في جملة معطوفة بالواو أو بالفاء أو بثُمّ قدمت على العاطف تنبيهًا على أصالتها في التصدير، نحو «أو لم ينظروا»[7]، «أفلم يسيروا»[8]، «أثم إذا ما وقع آمنتم به»[9] وأخواتها تتأخر عن حروف العطف، كما هو قياس جميع أجزاء الجملة المعطوفة، فقد قال الله تعالى : «فهل أنتم منتهون»[10]. وقال : «فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم»[11]. «فأين تذهبون»[12].

وتأتي الهمزة لطلب التصور نحو : أزيد قام أم عمرو ؟ كما تأتي أيضا للتصديق نحو : أقام زيد ؟ في حين تأتي أختها هل للتصديق، وباقي أخواتها لطلب التصور[13]. وتختص الهمزة بجواز دخولها على الجملة الاسمية والجملة الفعلية، قال سيبويه : «واعلم أن حروف الاستفهام كلها يقبح أن يصير بعدها الاسم إذا كان الفعل بعد الاسم، لو قلت هل زيد ضربته ؟ وأين زيد ضربته ؟ لم يجز إلا في الشعر، فإذا جاء في الشعر نصبته، إلا الألف فإنه يجوز فيها الرفع والنصب، لأن الألف قد يبتدأ

---

(7) سورة الأعراف آية 185، وفيها «أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض».

(8) سورة يوسف آية 109، قال تعالى : «أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم».

(9) سورة يونس آية 51.

(10) سورة المائدة آية 91.

(11) سورة النساء آية 62.

(12) سورة التكوين آية 26.

(13) همع الهوامع 362/4، والمغني 31.

بعدها الاسم[14]. وقال في الجنى الداني: «فأما همزة الاستفهام فهي حرف مشترك، تدخل على الأسماء والأفعال»[15].

ولتقدم الهمزة في بابها فقد جاز حذفها دون سائر أخواتها، قال ابن يعيش: «ويجوز حذف همزة الاستفهام في ضرورة الشعر، وذلك إذا كان في اللفظ ما دل عليه، ومنه قول عمر بن أبي ربيعة:

بَدَا لِيَ مِنْهَا مِعْصَمٌ يَوْمَ جَمَّرتْ ... وكَـفٌّ خَضِيبٌ زُيِّنَتْ بِبنَـانِ
فلمّـا التقيْنـا بالثنيّـة سَلّمَـتْ ... ونازعنـي البغـلُ اللعينُ عنانـي
فواللهِ ما أدري وإنْ كنتُ داريًـا ... بِسَبْعٍ رَمَيْـنَ الجَمْـرَ أمْ بثمـانِ

والمراد: أبسبع. دل على ذلك قوله: أم بثمان، وأمْ عديلة الهمزة[16]، ولا يشترط ابن هشام حذف الهمزة بوجود ما يدل على حذفها، ويستدل بقول الكميت:

طربت وما شوقا الى البيض أطرب ... ولا لعبًا مني وذو الشيب يلعب

أراد: أو ذو الشيب يلعب[17].

وفي حين لا تدخل أدوات الاستفهام كلها إلا على الإثبات فإن الهمزة تنماز بدخولها على النفي كما تدخل على الإثبات[18] نحو قوله تعالى: «ألم نشرح لك صدرك»[19]، وقول الشاعر:

---

(14) الكتاب 99/1، 101.
(15) الجنى الداني 97، وشرح المفصل 151/8.
(16) شرح المفصل 154/8 ـ 155.
(17) مغني اللبيب 19 ـ 20، وانظر المقتضب 45/2، وهمع الهوامع 4/360.
(18) مغني اللبيب 61، وانظر همع الهوامع 360/4.
(19) سورة الشرح آية 1.

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَـنْ رَكِـبَ المَطَايَـا   وأَنْدَى العَالَمِينَ بُطُونَ رَاحِ [20]

وتنفرد الهمزة عن سائر أخواتها بدخولها على الشرط[21] قال تعالى: «أفإن مت فهم الخالدون»[22]، وقال: «أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم»[23].

وقد تخرج الهمزة عن الاستفهام الحقيقي الى معان أخرى [24] دون سائر أخواتها؛ فترد للتسوية كقوله تعالى: «سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم»[25]، وللتوبيخ كقوله تعالى: «أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها»[26]، وللإنكار كقوله تعالى: «أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا»[27]، وللتهكم كقوله تعالى: «قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا»[28]. وللتقرير نحو قوله تعالى: «ألم يجدك يتيمًا فآوى»[29]. وغيرها من المعاني التي لا ترد لها سائر أخواتها.

نخلص مما سبق الى أن أمومة الهمزة وأصالتها أمر متفق عليه عند النحاة، وأنهم قد حاولوا تسويغ تلك الأمومة؛ فأحيانا نراهم يرجعون

---

(20) ديوان جرير 85، وانظر معجم شواهد النحو الشعرية 56.

(21) همع الهوامع 260/4.

(22) سورة الأنبياء آية 24.

(23) سورة آل عمران آية 144.

(24) انظر مغني اللبيب 24 ـ 27، والجنى الداني 98، 99، وحروف المعاني 19، ومعاني الحروف 32 ـ 36.

(25) سورة البقرة آية 6.

(26) سورة الأحقاف آية 60.

(27) سورة الإسراء آية 40.

(28) سورة هود آية 87.

(29) سورة الضحى آية 6.

أمومتها الى رتبتها في الصدارة، وأحيانًا الى دخولها على الشرط وعلى الإثبات والنفي فهي واسعة التصرف في التركيب وفي الدلالة أيضا، إذ تخرج عن معناها الأصلي الى معان أخرى تنفرد بها دون سائر أخواتها، لكنها تشترك معهن في المعنى الأصلي، وهو الاستفهام، وفي أنها هاملة غير عاملة.

أمومة إلاّ في باب الاستثناء

نص النحاة على أصالة إلا في بابها وأمومتها لباب الاستثناء، قال سيبويه : «فحرف الاستثناء إلا. وما جاء من الأسماء فيه معنى إلا فغير وسوى. وما جاء من الأفعال فيه معنى إلا فحاشى وخلا في بعض اللغات»[30]، لكن المبرد كان أكثر وضوحًا في النّص على أصالتها إذ قال : «وهي حرف الاستثناء الأصلي»[31]. أما ابن يعيش فينص على أمومتها صراحة فيقول : «وإلا أم حروف الاستثناء وهي المستولية على هذا الباب»[32].

أما الاستراباذي فيومئ الى ذلك حين يقدمها في الذكر ويسمى باب الاستثناء باسمها، وذلك حين يقول : «المستثنى متصل ومنقطع ؛ فالمتصل هو المخرج من متعدد لفظًا أو تقديرًا. بإلا وأخواتها، والمنقطع المذكور بعدها غير مخرج»[33].

وعلى الرغم من اشتراك النصوص السابقة في الإشارة الى أمومتها أو النّص عليها، فإنها لم تذكر تعليلا مقبولا لتلك الأمومة، لكننا نجد محاولة لابن يعيش في موضع آخر يحاول فيه أن يعلل تلك الأمومة أو

---

(30) الكتاب لسيبويه 309/6.

(31) المقتضب 391/6.

(32) شرح المفصل 77/6.

(33) شرح الكافية في النحو 224/1، وانظر همع الهوامع 247/3.

الأصالة إذ يقول : «أصل الاستثناء أن يكون بإلا، وإنما كانت إلا هي الأصل لأنها حرف، وإنما ينقل الكلام من حد الى حد بالحروف، كما نقلت (ما) في قولك : ما قام زيد، من الإيجاب الى النفي، وكذلك حرف الاستفهام ينقل من الخبر الى الاستخبار، وكذلك حرف التعريف ينقل من النكرة الى المعرفة فعلى هذا تكون إلا هي الأصل لأنها تنقل الكلام من العموم الى الخصوص، ونكتفي من ذكر المستثنى منه إذا قلت : ما قام إلا زيد. وما عداها مما يستثنى به فموضوع موضعها، ومحمول عليها لمشابهة بينهما»[34]. فهو يعلل أمومتها بكونها حرفًا، ويبنى عليه ميزتها الوظيفية (نقل الكلام من العموم الى الخصوص). ولم أعثر على أي محاولة أخرى لتعليل أمومتها.

فلجأت الى التأمل في خصائصها لعلي اهتدي الى شيء، فوقفت عند قول ابن يعيش : «إن إلا لم تعمل جرًا ولا غيره من قبل أنها لم تخلص للأسماء دون الأفعال والحروف، ألا تراك تقول : ما جاءني زيد قط إلا يقرأ، ولا مررت بمحمد قط إلا يصلي، ولا لقيت بكرًا إلا في المسجد، ولا رأيت خالدًا إلا على الفرس، فلما لم تخلص للأسماء. بل باشرت بها الأفعال والحروف، كما باشرت بها الأسماء لم يجز لها أن تعمل جرًا ولا غيره»[35]. فهذه ميزة لإلا على باقي أخواتها لأنها تدخل على الجملة الاسمية، وقد أكد سيبويه ذلك من قبل في قوله : «هذا باب ما يكون مبتدأ بعد إلا، وذلك قولك : ما مررت بأحد إلا زيد منه، كأنك قلت : مررت بقوم زيد خير منهم، إلا أنك أدخلت إلا لتجعل زيدًا خبرًا من جميع ما مررت به»[36]. وأضاف ابن مالك أن الجملة الاسمية بعد إلا

(34) شرح المفصل 76/6.

(35) السابق نفسه.

(36) الكتاب 242/2.

قد تكون ثابتة الخبر وقد تكون محذوفته[37]، فمن ثابت الخبر قول ابن أبي قتادة : «أحرموا كلهم إلا أبو قتادة لم يحرم»[38]. ومن محذوف الخبر قول الرسول صلى الله عليه وسلم : «كل أمتي معافى إلا المجاهرون»[39] في رواية النسفي، في حين أن باقي أخواتها لا تدخل إلا على المفرد.

ومن ميزات إلا أن الاسم بعدها قد يكون منصوبا أو مرفوعا أو مجرورا، تقول : حضر القوم إلا زيدًا، وما حضر القوم إلا زيد، وما مررت بأحد إلا زيد. في حين لا يكون الاسم بعد أدوات الاستثناء الأخريات إلا مجرورا - إذا كانت الأداة اسما أو حرفًا، أو منصوبا إذا كانت الأداة فعلا. وإلا هي الأداة الوحيدة المقتصرة على الاستثناء دون غيره، وأخواتها تستعمل في غير الاستثناء، قال السيوطي : «الاصل في إلا أن تكون للاستثناء، وفي (غير) أن تكون وصفًا»[40]، ولا يغير من هذه الحقيقة قول النحويين إن إلا قد حملت على غير في قوله تعالى : «لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا»[41]، وفضلا عن ذلك فهي الأكثر دورانًا على ألسنة أهل اللغة، والأكثر شيوعًا ي القرآن الكريم، والحديث الشريف والشعر ؛ فلم يرد الاستثناء في موطأ مالك بغير إلا سوى في موضع

---

(37) شواهد التوضيح والتصحيح 41، 42.

(38) السابق نفسه، وانظر فتح الباري 23/4.

(39) شواهد التوضيح والتصحيح 46، وفتح الباري 10/299.

(40) همع الهوامع 270/3، وسبقه الجرجاني في المقتصد 708/6، وابن هشام في المغني 99.

(41) سورة الأنبياء آية 22 وتتمتها : «فسبحان الله رب العرش عما يصفون»، وانظر حولها كتاب سيبويه 332/2، وقطر الندى وبل الصدى 276 - 287، وشرح شذور الذهب 266 - 269، والأزهية 173، والاشباه والنظائر 138/1.

واحد، في قوله صلى الله عليه وسلم لعائشة وقد حاضت : «افعلي ما يفعل الحاج غير أن لا تطوفي بالبيت ولا بين الصفا والمروة»[42].

إن أصالة إلا وأمومتها التي نص عليها أوائل النحاة، وخفتها على اللسان، كونها حرفا ـ وكثرة دورانها في الكلام، وميزاتها الاستعماليةوالتركيبية التي أشرنا اليها فيما سبق، واتجاه أهل اللغة الى التوسع في استخدامها في نقل الكلام من جهة الى جهة، وإدخالها على الاسم والفعل والحرف، جعل النحويين يضعونها على رأس أخواتها في باب الاستثناء.

أمومة إنْ في باب المجازاة

قال سيبويه : «وزعم الخليل أن إن هي أم حروف الجزاء، فسألته لم قلت ذلك ؟ فقال : من قبل أني أرى حروف الجزاء قد يتصرفن فيكن استفهاما، ومنها ما يفارقه (ما) فلا يكون فيه الجزاء، وهذه على حال واحدة أبدًا لا تفارق المجازاة»[43]. وذكر ابن السراج أنها أم الجزاء[44]. وقال ابن جني في معرض حديثه عن الشرط : «والحرف المستولي عليه إن، وتشبه به أسماء وظروف»[45]. وقال ابن يعيش : «وأما إن الشرطية فتجزم ما بعدها، وهي أم حروف الشرط»[46]. وعزز رأيه وهو يتحدث عن أسماء الشرط فقال : «وأما الأسماء فأحد عشر اسما فيها معنى إن ولذلك بنيت ... وإنما عملت من أجل تضمنها معنى إن ألا ترى أنها إذا

---

(42) بناء الجملة في احاديث الموطأ ـ رسالة ماجستير ـ هداء البس 76. والحديث في شرح الزرقاني 377/6.

(43) الكتاب لسيبويه 63/3.

(44) الاصول في النحو 158/6، والمقتصد 1905/2.

(45) اللمع 213، وانظر المقتضب 45/2.

(46) شرح المفصل 41/7.

خرجت عن معنى إن إلى الاستفهام، أو معنى (الذي) لم تجزم»[47]. وتابعهم السيوطي فقال في معرض حديثه عن المجازاة : «فحرفها في الأصل إن، وهذه كلها دواخل عليها»[48].

ظهر من النصوص السابقة أن أولى المحاولات التي وصلت إلينا لتفسير أمومة إن تنسب الى الخليل كما ذكر سيبويه في كتابه، فهو يفسر أمومتها في كونها على حال واحدة لا تفارق المجازاة. ويفسره المبرّد بقدرتها على الدخول في كل ضرب من ضروب الجزاء إذ يقول : «وإنما قلنا إن أصل الجزاء لأنك تجازي بها كل ضرب منه، تقول : إن تأتني آتك، وإن تركب حمارا أركبه، ثم تصرفها منه في كل شيء، وليس كذلك سائر أخواتها»[49]. وكان سيبويه قد ذكر شيئا من هذا القبيل، وهو تقدم الاسم بعدها دون سائر أخواتها، قال : «وإنما أجازوا تقديم الاسم في إن لأنها أم الجزاء ولا تزول عنه»[50]. واستدل بقول النمر بن تولب :

لاَ تَجْـزَعِـي إنْ مُنْفِسـا أَهْلَكْتُـهُ ... وإذَا هَلَكْتُ فَعِنْدَ ذَلِكَ فَاجْزَعِي[51]

ويقول الجرجاني مؤيّدا مباشرة إن للاسم دون أخواتها من أسماء الشرط : «اعلم أنك إذا قلت : إن زيدا تضرب أضرب عمرا، كان زيد مفعولا مقدمّا على الفعل، وجاز تقديمه عليه بعد حرف الشرط لأجل

---

(47) السابق نفسه 46/7، وانظر المقتصد 1108/2.

(48) همع الهوامع 216/4.

(49) المقتضب 49/2.

(50) كتاب سيبويه 124/1.

(51) ديوان النمر بن تولب 72، والخزانة 152/1، وبلا نسبة في الأزهية 257، وشرح المفصل 38/2.

أنك لم توقعه إلا حيث يقع عامله»[52]، ويقول أيضا: «ولا يجوز في حال الإخبار أن يقع الاسم بعد الأسماء التي يجازي بها، فلا تقول: من زيدًا يضربه أضربه، ولا: متى رجل يخرج أخرج، ويجوز في ضرورة الشعر»[53].

ويذكر النحويون أن إن تتميز بقدرتها على التضام السلبي في تركيبها الشرطي، ويسميه الأوائل الحذف، فقد تحذف إن، وقد تحذف هي وشرطها، أو هي وجوابها، أو هي وشرطها وجوابها؛ قال السيوطي: قال أبو حيان: «وكذا حذف الجواب وحده، والشرط وحده لا أحفظه بعد غير إن»[54]، وقال أيضا: «يحذف الشرط، وهو أقل من حذف الجواب، نص عليه ابن مالك في شرح الكافية، ومنه: «وإن أحد من المشركين استجارك فأجره»[55]، وقيل إنما يجوز حذفه إن عوض منه (لا)، وعليه ابن عصفور والأبذي كقوله:

فطلقها فلست لها بكفء وإلا يعل مفرقك الحسام[56]

أي: وإلا تطلقها»[57]. وعن حذف الشرط والجواب معا، قال السيوطي: «ويحذفان أي الشرط والجواب مع إن دون سائر الأدوات، واختصت بذلك لأنها أم الباب، ولأنه لم يرد في غيرها، قال:

قَالَتْ بَنَاتُ الْحَيِّ يَا سَلْمَى وَإِنْ كَانَ فَقِيرًا مُعْدَمًا قَالَتْ وَإِنْ

أي: وإن كان كما تصفين فزوجينيه»[58].

(52، 53) المقتضب 112/1 ـ 1122، وانظر همع الهوامع 322/4، 325.
(54) همع الهوامع 336/4.
(55) سورة التوبة آية 6.
(56) الشاهد للأحوص في ديوانه 190.
(57) همع الهوامع 336/4، وانظر رصف المباني 188 ـ 189.
(58) همع الهوامع 336/4، وانظر رصف المباني 188 ـ 189.

ومن ميزات إن أنها تعمل مضمرة كما تعمل ظاهرة. قال ابن يعيش : «ويجزم بإن مضمرة إذا وقع جوابًا لأمر أو نهي أو استفهام أو تمن أو عرض ...، وجواز إضمارها لدلالة هذه الأشياء عليها، قال الخليل : إن هذه الأوائل كلها فيها معنى إن، فلذلك انجزم الجواب»[59].

نستخلص مما سبق أن خصائص إن التي جعلتها جديرة بمنزلة الأم، تتراوح بين كونها حرفًا خفيفا لا يفارق الجزاء، وبين كونها صالحة للتضام سلبًا أو إيجابيًا مع باقي أركان التركيب الشرطي، وكونها تدخل في كل ضرب من ضروب الجزاء، فهي تباشر الاسم، وتباشر الفعل، وهي ترتب الجزاء على الشرط ترتيبًا استقباليا احتماليًا[60]. كل هذه الخصائص جعلتها حرف الجزاء المستولي على بابه، فاستحقت مرتبة الأمومة في باب الجزاء.

أمومة أن في نصب المضارع

قال ابن يعيش في عرض كلامه عن نواصب المضارع : «فأما النصب فيه فبعوامل لفظية وهي : أن ولن وكي وإذن ... والأصل من هذه الأربعة أن وسائر النواصب محمولة عليها»[61]. وكان المبرد قد قال : «أن هي أمكن الحروف في نصب الأفعال، وكان الخليل يقول : لا ينتصب فعل البتة إلا بأن مضمرة أو مظهرة»[62]. وقال الحريري في حديثه عن عوامل النصب : وأصول هذه العوامل أربعة أن ولن وكي وإذن، وما عدا ذلك

---

(59) شرح المفصل 47/7 ـ 48.

(60) شرح الكافية 109/6، وشرح المفصل 9/4، وهمع الهوامع 206/1.

(61) شرح المفصل 15/7.

(62) المقتضب 6/2.

فروع عن أن وهي أم الباب»[63]. وقال المرادي : «أن المصدرية هي إحدى نواصب الفعل المضارع، بل هي أم الباب»[64].

هذه النصوص صرح أصحابها بأمومة أن، أو بأنها أصل حروف نصب المضارع وأمكنها، وحاولوا تفسير هذه الأمومة وتلك الأصالة بذكر بعض خصائصها التي جعلتها تتبوأ هذه المنزلة بين أخواتها. وأول هذه الخصائص نصبها المضارع مظهرة أو مضمرة ؛ قال ابن يعيش : «فإن قيل : ولم كانت أن أولى بالاضمار من سائر الحروف ؟ قيل : لأمرين : أحدهما أن هي الأصل في العمل، والآخران أن لها من القوة والتصرف ما ليس لغيرها، ألا ترى أن يليها الماضي والمستقبل بخلاف أخواتها فإنها لا يليها إلا المستقبل، فلما كان لها من التصرف ما ذكر جعلت لها مزية على أخواتها بالإضمار»[65]. وقال ابن هشام : «اختصت أن بأنها تنصب المضارع ظاهرة ومقدرة بخلاف أخواتها الثلاث فإنها لا تنصبه إلا ظاهرة»[66]. وثاني هذه الخصائص ما أشار اليه ابن يعيش في النّص السابق من كونها أقوى على التصرف من سائر أخواتها، إذ تباشر الماضي وتباشر المستقبل، وهي ميزة تركيبية تنفرد بها.

وثالث خصائص أن أنه لا يجوز أن يتقدم معمول معمولها عليها، لأنها حرف مصدري ومعمولها صلة بها، ومعموله من تمام الصلة[67]، في حين يجوز أن يتقدم معمول معمول لن عليها، كأن نقول : زيدًا لن

(63) شرح ملحة الاعراب 245.
(64) الجنى الداني 236.
(65) شرح المفصل 20/7.
(66) شرح شذور الذهب 290.
(67) همع الهوامع 90/4.

أضرب. كما أنها لا تعمل بشروط مثل إذن التي لا تنصب المضارع إلا عند دخولها عليه في ابتداء الجواب كما في قول الشاعر :

اردد حمارك لا يرتع بروضتنا إذن يرد وقيد العير مكروب[68]

ومثل كي التي يختلف النحويون في عملها النصب بنفسها أو بأن مضمرة بعدها[69].

ورابع خصائصها اتفاق النحاة فيها واختلافهم في باقي أخواتها قال السيوطي : «نواصب المضارع أربعة أحرف : أحدها أن وهي أم الباب، وقال أبو حيان : بدليل الاتفاق عليها، والاختلاف في لن وإذن وكي»[70].

لقد استحقت أن منزلة الصدارة لأنها - كما قال النحويون - تعمل مظهرة ومضمرة، ولأنها قوية التصرف بدخولها على الماضي والمستقبل، ولأن معمول معمولها لا يجوز أن يتقدم عليها لأنها مصدرية، ولأن النحاة اتفقوا فيها، في حين اختلفوا في أخواتها.

أمومة إن في باب الحروف الناسخة

على غير عادة النحويين، لم يكن اهتمامهم واضحا في النّص أو الإشارة الى أمومة إن وتقدمها في بابها؛ فلم يصرح بهذا الأمر أحد منهم إلا الحريري البصري إذ قال في منظومته :

وإن بالكسر أمّ الأحرف تأتي مع القول وبعد الحلف[71]

ولم أعثر على من يتحدث عن أمومتها تصريحا أو تلميحًا غير الحريري، إلا ما كان من تسميتهم الباب باسمها (باب إن وأخواتها).

---

(68) قائله عبد الله بن عنمه الضبي في الخزانة 576/3.

(69) شرح المفصل 17/7.

(70) همع الهوامع 88/4.

(71) شرح ملحة الإعراب للحريري 165.

وفيما عدا ذلك كان اهتمام النحويين منصبًا على مقابلتها بـ (أن) المفتوحة، وأيهما الأصل. فذكروا من خصائصها أن همزتها تكسر حينًا، وتفتح حينًا، ، ويجوز فيها الكسر والفتح حينًا ثالثًا، وقد يكون ذلك إيماء الى أنها هي الأصل والمفتوحة فرع عليها.

وذكروا من خصائصها تضام خبرها أو اسمها مع اللام المزحلقة؛ فمن الأول: «نشهد إنك لرسول الله»[72]. ومن الثاني «إن في ذلك لعبرة»[73]. وتلك اللام لا تدخل على خبر باقي أخواتها. إلا ما أجازه الكوفيون من جواز دخولها في خبر لكن كقول الشاعر:

يَلُومُونَني فِي حُبِّ لَيْلَى عَوَاذِلي ... ولكِنَّني مِنْ حُبِّهَا لَعَمِيدُ[74]

ومن ميزاتها أنها تتضام مع الجملة الاسمية الخبرية فتكون جوابًا عن سؤال سائل نحو قولنا: إن الجو بارد، وتتضام مع مؤكد آخر فتكون جوابًا عن إنكار المنكر، أي تأتي في مقام التساؤل أو الشك تارة، وتأتي في مقام الإنكار تارة أخرى. جاء هذا التفسير في كلام الجرجاني فيما روى عن ابن الأنباري إذ قال: «ركب الكندي المتفلسف الى أبي العباس وقال له: إني لأجد في كلام العرب حشوًا. فقال له أبو العباس: في أي موضع وجدت ذلك؟ فقال: أجد العرب يقولون: عبد الله قائم، ثم يقولون: إن عبد الله قائم، ثم يقولون إن عبد الله لقائم، فالألفاظ متكررة والمعنى واحد، فقال أبو العباس: بل المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ: فقولهم: عبد الله قائم، إخبار عن قيامه، وقولهم إن عبد الله قائم، جواب

---

(72) المنافقون آية 1.

(73) سورة آل عمران آية 13.

(74) قائله مجهول في معاني القرآن 465/1، وشرح المفصل 8، 62 ـ 63، والجنى الداني 136، وشرح ابن عقيل 363/1.

عن سؤال سائل، وقولهم : إن عبد الله لقائم، جواب عن إنكار منكر قيامه، فقد تكررت الألفاظ لتكرر المعاني»[75].

ومن خصائصها أنها تتضام مع (ما) لتؤدي صورة من صور القصر التي لا تؤدى بغيرها، أي لا يمكن تأدية مدلولها باستخدام (ما) و (إلا)، كما قال عبد القاهر الجرجاني في قوله تعالى : «قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن»[76]. وقوله تعالى : «إنما حرم عليكم الميتة والدم»[77] إذ أورد قول أبي إسحق الزجاج : «... لأن إنما تأتي إثباتا لما يذكر بعدها، ونفيًا لما سواه»[78]. وأضاف عبد القاهر أيضا فقال : «ليس كل كلام يصلح فيه (ما) و(إلا) يصلح فيه إنما، وكما وجدت إنما لا تصلح فيما ذكرنا نجد (ما) و (إلا) لا تصلح في ضرب من الكلام قد صلحت فيه إنما»[79].

فلعل تضام إن مع الجملة الاسمية للإجابة عن سؤال السائل الشاك، أو تضامها مع لام التوكيد والجملة الاسمية للإجابة عن إنكار المنكر، وتضامها مع (ما) لتأدية صورة من صور القصر لا يمكن تأديتها بغيرها، لعلها هي القيم التركيبية التي أعطتها ميزة الصدارة.

---

(75) دلائل الإعجاز 315.
(76) سورة الأعراف آية 33.
(77) سورة البقرة آية 173.
(78) دلائل الإعجاز 326.
(79) المصدر السابق 367.

أمومة كان في باب الأفعال الناسخة

تحدثت كتب النحو صراحة عن أمومة كان في بابها، قال ابن يعيش : «اعلم أن كان أم الباب وأكثرها تصرفا»[80]. وقال الجرجاني : «فهذه الأفعال أم الباب منها كان»[81].

ويرى النحويون أن كان هي أم الباب لأنها تختص دون باقي أخواتها بخصائص هي :

أولا : أنها تدل على زمن عام، وأخواتها تدل كل واحدة منهن على زمن خاص، كالصبح أو الضحى أو المساء أو البيات ... الخ.

ثانيا : أن التضام السلبي أو الحذف يعتري جملتها كثيرا، فقد تحذف كان وحدها، وقد تحذف مع اسمها، وقد تحذف مع خبرها وقد تحذف مع اسمها وخبرها. ومثال حذفها وحدها قول الشاعر :

أبا خراشة أما أنت ذا نفر فإن قومي لم تأكلهم الضبع[82]

والأصل عند سيبويه ومن تبعه : أما كنت، ولما حذف كان انفصل الضمير. ومن حذفها مع اسمها قول الرسول صلى الله عليه وسلم : «المرء مجزي بعمله، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر»[83]. ومن شواهد حذفها مع اسمها بعد (لو) قوله صلى الله عليه وسلم : «التمس ولو خاتما من حديد»[84].

---

(80) شرح المفصل 79/7.

(81) المقتصد في شرح الإيضاح 399/1.

(82) قائله العباس بن مرداس في ديوانه 128 وسيبويه 293/1 وهو برواية (أما كنت) وعندئذ لا شاهد فيه.

(83) أوضح المسالك 260/1.

(84) صحيح البخاري كتاب النكاح 32.

والتقدير : ولو كان الملتمس خاتما، ومن حذفها مع خبرها قولهم : «إن خير فخير»[85]، ومن حذفها مع اسمها وخبرها قول الشاعر :

قالـت بنات العم يا سلمى وإن   كـان فقيـرًا معدمًـا وإن[86]

والتقدير : وإن كان فقيرا معدما فأنا أتزوجه.

ومن خصائصها جواز حذف نونها تخفيفا بشرط أن تكون في حالة المضارع المجزوم غير المتصل بضمير، ولا يليه ساكن، ومنه قول القرآن الكريم : «ولم أك بغيا»[87].

ثالثا : زيادتها بشرطين هما : أن تكون بصغية الماضي، وأن تقع بين متلازمين، نحو :

مَا كَانَ ضَرَّكَ لَوْ مَنَنْتَ وَرُبَّمَا   مَنَّ الفَتَى وهو المَغيظُ المُحْنَقُ[88]

فقد زيدت بين (ما) وفعل التعجب، ونحو قول الشاعر :

فَكَيْفَ إذَا مَرَرْتَ بِدَارِ قَوْمٍ   وجِيرانٍ لَنَا كَانُوا كِرَامِ[89]

فقد زيدت بين الصفة والموصوف. وقد شذ زيادتها في صيغة المضارع نحو :

أَنْتَ تَكُونُ مَاجِدٌ نَبِيلُ   إذَا تَهُبُّ شَمْأَلٌ بَلِيلُ[90]

---

(85) أوضح المسالك 263/1.

(86) البيتان لرؤبة في ملحق ديوانه 200/1، 55/2، وهمع الهوامع 236/1.

(87) سورة مريم آية 60.

(88) قائلته قتيلة بنت النضر في الدرر 53/1.

(89) قائله الفرزدق في ديوانه 290/1.

(90) قائلته فاطمة بنت أسد في أوضح المسالك 255/1، وهمع الهوامع 99/2.

فهي إذن أكثر أخواتها تصرفا: إذ تأتي تامة وناقصة وزائدة، ونونها قد تحذف تخفيفا، وهي أيضا تشرب الجملة معنى الزمن العام، فلعل هذا التوسع في استعمالها هو سبب أمومتها في بابها.

أمومة الباء في باب القسم

حروف القسم المشهورة[91] التي يدور استعمالها في الكلام أربعة: الباء، والتاء، والزاو، واللام. وتذكر المصادر أن أصل هذه الأحرف حرف الباء، وأن أوسعها استعمالا حرف الواو[92]. وقال ابن يعيش: «فأما الباء فهي أصل حروف القسم، لأنها حرف إضافة. ومعناها الإلصاق. فأضافت معنى القسم الى المقسم به، وألصقته به نحو قولك: أحلف بالله، كما توصل الباء المرور الى الممرور به في قولك: مررت بزيد»[93]. وقال في موضع آخر: «أصل حروف القسم الباء. والواو مبدلة منها، إنّما قلنا ذلك لأنها حرف الجر الذي يضاف به فعل الحلف الى المحلوف»[94].

وقال ابن جني: «والحروف التي يصل بها القسم الى المقسم به ثلاثة وهي: الباء والواو والتاء: فالباء هي الأصل، والواو بدل منها، والتاء بدل من الواو»[95].

وقال الرماني في معرض حديثه عن الباء: «وتكون قسما كقولك: بالله لأخرجن، وهي أصل حروف القسم»[96].

---

(91) شرح جمل الزجاجي 523/2 - 524، وهمع الهوامع 40/2 وفيهما ذكر لحروف أخرى للقسم استعملت قديما ثم ترك استعمالها.

(92) شرح جمل الزجاجي 524/2.

(93) شرح المفصل 99/9.

(94) المصدر السابق 33/8.

(95) اللمع في العربية 183.

(96) معاني الحروف 36.

وبعد أن نص النحويون على أصالتها في بابها، انعطفوا الى ذكر خصائصها، وكأنهم يحاولون تفسير تلك الأصالة، وأول تلك الخصائص جواز إظهار فعل القسم معها وجواز إضماره، قال المرادي : «إنها لا يجب حذف الفعل معها بل يجوز إظهاره نحو : أقسم بالله»[97]. وقال السيوطي : «وجاز إظهار الفعل أي فعل القسم معها نحو : «وأقسموا بالله جهد ايمانهم»[98] كما يجوز إضماره نحو : «فبعزتك لأغوينهم»[99] بخلاف غيرها»[100].

وثاني خصائصها أنها تدخل على الاسم الظاهر كما تدخل على الاسم المضمر، قال ابن يعيش في معرض تعداده لما تنفرد به الباء دون سائر أخواتها : «تنفرد عنها بأمور منها أنها تدخل على المظهر والمضمر، وغيرها من الحروف تدخل على المظهر دون المضمر، تقول بالله لأفعلن، وبك لأذهبن»[101]، واستدل بقول الشاعر :

رَأى بَرْقًا فَأوْضَعَ فَوْقَ بَكْرٍ ... فَلاَ بِكَ مَا أَسَالَ وَلاَ أَغَامَا[102].

وقال ابن السراج : «فالأصل الباء كما ذكرت لك، ألا ترى أنك إذا كتبت عن المقسم به رجعت الى الأصل فقلت : به آتيك، ولا يجوز (و 5) لا آتيك»[103].

وثالث خصائصها انفرادها بالقسم الاستعطافي، وهو ما كان جواب القسم فيه جملة إنشائية، قال ابن يعيش : «ومنها أنك تحلف على إنسان

---

(97) الجنى الداني 108.

(98) سورة النور آية 53.

(99) سورة

(100) همع الهوامع 232/4.

(101) شرح المفصل 101/9.

(102) قائلة عمرو بن يربوع في نوادر أبي زيد 146.

(103) الأصول في النحو 430/1.

وذلك بأن تأتي بها للاستعطاف والتقرب الى المخاطب فتقول : بالله ألا فعلت، ولا تقول : والله، ولا : تالله، لأن ذلك إنما يكون في القسم وليس هذا بقسم، ألا ترى أنه لو كان قسمًا لافتقر الى مقسم عليه، وأن يجاب بما يجاب به الإقسام»[104]، واستدل بقول الشاعر :

بِاللّهِ رَبّكَ إنْ دَخَلْتَ فَقُلْ لَهُ   هَذَا ابْنُ هِرْمَةَ وَاقِفًا بِالبَابِ[105]

ويمكن أن نضيف خصيصة رابعة تحت عنوان : سعة التصرف، ومن مظاهر ذلك جواز حذفها وانتصاب الاسم بعدها نحو : نشدتك الله لما فعلت : ومن ذلك قول الشاعر :

ألا رُبَّ مَنْ قَلْبِي لَهُ اللّهَ نَاصِحٌ   ومَنْ قَلْبِي لَهُ فِي الظِّبَاءِ السَّوَانِحِ[106]

ومن مظاهر التصرف أن الباء تعمل الجر في القسم وفي غير القسم، في حين لا تجر أختاها إلا في القسم[107]. ويمكن أن يضاف في هذا المقام إحدى صفاتها الدلالية، فهي تدل على الإلصاق، وهذا المعنى له أهمية كبرى في باب القسم لأنها تضيف الحلف الى المحلوف به[108].

أمومة الواو في باب العطف

أمومة الواو وأصالتها في باب العطف ترقى الى درجة الاجماع عند النحويين، قال ابن يعيش : «الواو وهي أصل حروف العطف، والدليل على

---

(104) شرح المفصل 101/9.

(105) قائله ابن هرمة في ديوانه 70.

(106) قائله ذو الرمة في ديوانه 664، وانظر همع الهوامع 232/4، والمقتصد في شرح الايضاح 867/2 ـ 868.

(107) الجنى الداني 108.

(108) المقتصد في شرح الايضاح 861/2، وشرح المفصل 99/9.

ذلك أنها لا توجب إلا الاشتراك بين شيئين فقط في حكم واحد، وسائر حروف العطف توجب زيادة حكم على ما توجبه الواو، ألا ترى أن الفاء توجب الترتيب، وأو الشك وغيره»[109]. ونص المرادي على أمومتها فقال : «والواو أم حروف العطف لكثرة مجالها فيه»[110]. ونص الحريري على أمومتها أيضا إذ قال : «فأما الواو أم الحروف، فمعناها الجمع والاشتراك ولا يقتضي الترتيب عند النحويين»[111]. وقال المالقي : «تكون للعطف، وهي أم حروف العطف، لكثرة استعمالها، ودورها فيه، ومعناها الجمع والتشريك»[112].

وأمومة الواو التي نص عليها النحويون فيما سلف ذكره، أشارت الى عدد من الخصائص التي هيأت لها هذه المنزلة بين حروف العطف، ولها خصائص أخرى ذكرت في مواضع أخرى من كتبهم التي ذكرت آنفا والتي لم تذكر، وهي :

أولا : إفادتها معنى التشريك بين شيئين في حكم واحد، وسائر أخواتها تفيد الى جانب التشريك حكما آخر، كالترتيب أو الشك أو غير ذلك. وقد دلل ابن يعيش على ذلك بقوله : «ومما يدل على ذلك أيضا أنها تستعمل في مواضع لا يسوغ فيها الترتيب نحو قولك : اختصم زيد وعمرو، وتقاتل بكر وخالد ، فالترتيب ههنا ممتنع، لأن الخصام والقتال لا يكون في واحد، ولذلك لا يقع من حروف العطف إلا الواو»[113]. ويضيف الجرجاني دليلا آخر على اقتصارها على التشريك فيقول : «مما

---

(109) شرح المفصل 90/8.

(110) الجنى الداني 188.

(111) شرح ملحة الإعراب 209.

(112) رصف المباني 473.

(113) شرح المفصل 91/8.

يدل على أن الواو لم يوضع للترتيب أنك تقول : جاءني عمرو اليوم وزيد أمس، فيكون ما بعد الواو مقدمًا في المعنى، كقوله عز وجل : «واسجدي واركعي مع الراكعين»[114] إذ إن السجود بعد الركوع وهو مقدم في الذكر، وكقوله عز وجل : «كذلك يوحي اليك والى الذين من قبلك»[115].

ثانيا : ومن خصائصها الدلالية أنها تعطف العام على الخاص والعكس، كقوله تعالى : «رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات»[116]. وقوله تعالى : «وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح»[117]. وهي تعطف الشيء على مرادفه أيضا، كقوله تعالى : «إنما أشكو بثي وحزني الى الله»[118]. وقوله تعالى : «أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة»[119].

ثالثا : أنها قد تعرى من معنى العطف، ولكنها لا تعرى من معنى الجمع والتشريك، وهذا التوسع في الدلالة والاستعمال يدل - عند ابن يعيش - على أنها أصل حروف العطف، قال : «فلهذا الواو أصل حروف العطف، فهي تدل على الجمع المطلق، إلا أن دلالتها على الجمع أعم من دلالتها على العطف، والذي يدل على ذلك أننا لا نجدها تعرى من معنى الجمع، وقد

(114) سورة آل عمران آية 47.
(115) سورة الشورى آية 2. وكلام الجرجاني في كتاب المقتصد في شرح الايضاح 938/2.
(116) سورة نوح آية 28.
(117) سورة الأحزاب آية 7.
(118) سورة يوسف آية 86.
(119) سورة البقرة آية 157. وانظر في هذه المسألة مغني اللبيب 466، وهمع الهوامع 225/5.

تعرى من معنى العطف.[120] وهي تختص أيضا بالعطف في باب التحذير والإغراء، ومنه قوله تعالى : «ناقة الله وسقياها».[121]

رابعا : ومن خصائصها التركيبية أنه يجوز دخولها على حرف عطف آخر فتبقى الواو للعطف، ولا يبقى الحرف الآخر للعطف، فهي تدخل على (إما)، و (لكن) و (لا)[122]، فمن الأول قوله تعالى : «إما شاكرًا وإما كفورًا».[123]، ومن الثاني قوله تعالى : «ولكن رسول الله»[124]، ومن الثالث قوله تعالى : «وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى».[125] ومن خصائصها التركيبية أيضا، أنه يجوز تقديم الواو والمعطوف بها على المعطوف في الضرورة، كقول الشاعر :

ألا يا نخلة من ذات عرق ... عليك ورحمة الله السلام[126]

وكقول الآخر :

جَمَعْتَ وَفُحْشًا غِيبَةً وَنَمِيمَةً ... خِصَالاً ثَلاثًا لَسْتَ عَنْهَا بِمُرْعَوِي[127]

هذه جملة من خصائص الواو الدلالية والتركيبية، ذكر النحويون أنها السبب في كونها أم باب حروف العطف، وهناك جملة أخرى من

---

(120) شرح المفصل 90/8.

(121) سورة الشمس آية 13.

(122) همع الهوامع 227/5، ونتائج الفكر 257.

(123) سورة الإنسان آية 3.

(124) سورة الأحزاب آية 40.

(125) سورة سبأ آية 37.

(126) ينسب للأحوص في هامش ديوانه 190، وهمع الهوامع 173/1، والخصائص 386/2.

(127) الشاهد ليزيد بن الحكم في الخزانة 495/1، وهمع الهوامع 220/1، ،معجم شواهد النحو الشعرية، باب الواو 184، 689، وهو برواية :

جمعت وبخلا غيبة ونميمة ... ثلاث خصال لست عنها بمرعوي

الخصائص يمكن أن توضع تحت باب التوسع في استعمالها لمجيئها بمعنى أو، وزيادتها، ومجيئها قبل العدد ثمانية، وهي التي تسمى واو الثمانية. وهذه لم نفصل القول فيها لأنها ليست مما اتفق عليه النحويون.

أمومة يا في باب النداء

نصت كتب النحو على أن (يا) أصل حروف النداء وأم تلك الحروف، قال ابن يعيش: «وأصل حروف النداء (يا) لأنها دائرة في جميع وجوهه»[128]، وقال الرماني قبله: (يا وهي من حروف النداء، وهي أم حروفه»[129]، وقال المالقي: (اعلم أن (يا) حرف من حروف التنبيه، ينادى به مرة، ولا يُنادى به أخرى، وإذا كان حرف نداء، فيكون تارة لنداء القريب والوسيط والبعيد مسافة وحكمًا كالنائم والغافل. وحقها في الأصل أن تكون للبعيد، لجواز مد الصوت بالألف ما شئت، ثم إنها كثر استعمالها، حتى صارت ينادى بها البعيد أدنى مسافة منك، ثم الحاضر معك، فلذلك كانت أم حروف النداء»[130].

وذكروا من النداء البعيد قول الشاعر:

يَــا دَارَ مَيَّــةَ بِـالْعَلْيَــاءِ فَـالسَّنَــدِ   أَقْوَتْ وَطَـالَ عَلَيْهَـا سَالِـفُ الأَمَـدِ[131]

ومن نداء المتوسط قوله تعالى: «يا قوم لا أسألكم عليه أجرا»[132]، ومن نداء القريب قول الشاعر:

---

(128) شرح المفصل 118/8.

(129) معاني الحروف 52.

(130) رصف المباني 513.

(131) قائله النابغة الذبياني في ديوانه 14.

(132) سورة هود آية 29.

بَـانَـتْ لِتَحْـزُنَنَـا عَفَـارَهْ   يَا جَـارَنَا مَا أنْـتِ جَـارَه[133]

لقد نصت كتب النحو - فيما سبق ذكره - على أمومة (يا)، ثم حاولت تعليل تلك الأمومة، فذكرت أهم خصائصها وهي سعة تصرفها في الاستعمال، وكثرة استعمالها أيضا.

ومن خصائصها استعمالها في أغراض خاصة من النداء، كأن تستعمل للندبة والاستغاثة، والتعجب، قال سيبويه : «ولا يكون مكان (يا) سواها من حروف التنبيه نحو أي وهيا وأيا، لأنهم أرادوا أن يميزوا هذا من الباب الذي ليس فيه معنى استغاثة أو تعجب»[134]. وقال ابن هشام في معرض حديثه عن الاستغاثة : «ولا يستعمل له من حروف النداء إلا (يا) خاصة»[135] واستدل على ذلك بقول الشاعر :

بالبكـر انشـروا لـي كليبًـا   بالبكر أيـن أيـن الفـرار[136]

ويقول الشاعر :

تَكَنَّفَنِـي الوُشَـاةُ فَأزْعَجُونِـي   فَيَا لَلنَّاسِ لِلْوَاشِـي الْمُطَـاعِ[137]

وأما الندبة فيختص بها (وا) ويجوز استعمال يا إذا لم يلتبس ذلك بالنداء، قال ابن جني : «اعلم أن الندبة إنما وقعت في الكلام تفجعًا،

(133) الشاهد للأعشى في ديوانه 153، وشرح التصريح على التوضيح 164/6.
(134) الكتاب لسيبويه 218/2.
(135) شرح قطر الندى 242.
(136) الشاهد لمهلهل بن ربيعة في سيبويه والشنتمري 318/1، والخزانة 300/1.
(137) الشاهد لقيس بن ذريح في سيبويه والشمنتري 319/1 - 320.

وإعلاما من النادب أنه قد وقع في أمر عظيم، وخطب جسيم، وأكثر من يتكلم بها النساء، وعلامتها يا و(وا) لا بد من أحدهما»[138].

ومن خصائصها ورودها لمجرد التنبيه إذا دخلت على غير المنادى، أو جاء بعدها مالا يصلح أن يكون منادى. قال المالقي: «وأما إذا لم يكن بعدها المنادى، فتكون للتنبيه لا غير[139]. كقول الله تعالى: «ألا يا اسجدوا لله الذي يخرج الخبء»[140]واستدل له سيبويه بقول الشماخ:

أَلاَ اسْقِيَانِي قَبْلَ غَارَةِ سِنْجَالِ وَقَبْلَ مَنَايَا قَدْ حَضَرْنَ وَآجَالِ[141].

ومن خصائصها التركيبية أنها تختص بنداء اسم الله جل وعلا، وأيها وأيتها، قال ابن هشام: «ولا ينادى اسم الله عز وجل، والاسم المستغاث، وأيها وأيتها إلا بها»[142]. ومن هذه الخصائص استعمالها محذوفة لأنها أم الباب[143]. ومن ذلك قوله تعالى: «يوسف أعرض عن هذا»[144].

لقد عد النحويون (يا) أما لباب حروف النداء لأنها الأكثر تصرفا، فهي تأتي لنداء البعيد والمتوسط والقريب، وتأتي للندبة والاستغاثة والتعجب، وتستعمل لنداء اسم الله تعالى وأيها وأيتها، وتأتي لمجرد التنبيه

---

(138) الخصائص.
(139) الصحيح أن يقول: ليس غير، نص عليه ابن هشام في المغني.
(140) سورة النمل آية 25.
(141) ديوان الشماخ 456، وانظر سيبويه والشنمتري 307/2.
(142) مغني اللبيب 488.
(143) رصف المباني 515، والجنى الداني 349.
(144) سورة يوسف آية 29.

إذا لم تدخل على المنادى، ولأنها الأكثر استعمالا في فصيح الكلام. فلم يرد النداء في القرآن الكريم إلا بها، ولم يستعمل النداء في الأحاديث النبوية في كتاب الموطأ إلا بها، والموطأ هو أقدم كتب الحديث المدونة[145].

نتيجة ومحاولة تفسير :

بالرغم من أن مصطلح الأمومة شاع عند النحويين، وتردد في ثنايا كتبهم التراثية ؛ فإننا لا نجد عندهم تفسيرا واضحا محددًا لنشأة هذا المصطلح، وكل ما وجدناه - حقيقة - هو محاولات لتسويغ تقدم أداة بعينها في بابها. ولقد لخص الحريري كل هذه الجهود إذ قال : «اعلم أن لكل نوع من أنواع العوامل عاملا يختص بخصائص دون نظائره ويسمى أم الباب»[146].

وبعد أن ألقينا الضوء على أهم تلك الخصائص، واستعرضنا آراء النحويين في هذه المسألة، نستطيع أن نقول : إن هذا المصطلح كان غائما في أعينهم، وأنهم حاولوا إماطة تلك الغيوم عنه، ولكنهم لم يوفقوا الى تعليل يصل الى درجة اليقين، وكل ما فعلوه هو تعداد لتلك الخصائص التي ظنوا أنها تفسر تلك الأمومة : فوجدناهم يركزون على الخصائص الدلالية تارة كما هو الحال في واو العطف ويا النداء، وتارة يلتفتون الى الخصائص التركيبية كما حدث في تفسير أمومة إلا وأن وإن والباء وكان، وتارة يمزجون النوعين من الخصائص، كما هو الحال في الهمزة وإن، ولم يعيروا العمل الإعرابي أي انتباه يذكر، مع ولعهم بنظرية العامل والمعمول.

ولقد خلصت - بعد التأمل في هذه المسألة - الى أمرين : الأول : أنه يغلب على ظني أن نشوء هذه الظاهرة بدأ ببداية وضع اللغة، وتبلور مع

---

(145) بناء الجملة في أحاديث الموطأ المرفوعة 237.

(146) شرح ملحة الإعراب 65.

نمو اللغة وتطورها، إذ بدئ باستخدام أداة ما للتعبير عن حاجة من حاجات أهل اللغة، ودلت تلك الأداة على المعنى العام، فلما احتيج الى بعض المعاني الفرعية، للتعبير عن غرض فرعي إضافي ضمن المعنى العام، نشأت الحاجة الى التواضع على استخدام أدوات جديدة تعبر عن هذا المعنى الطارئ، فـ (إن) في باب المجازاة - مثلا - كانت كافية لتأدية وظيفة الربط وترتيب الجزاء على الشرط، ثم احتيج الى أن يدل الشرط - إضافة الى ذلك - على العاقل، فكانت الأداة (من) وعلى غير العاقل، فكانت الأداة (ما)، وعلى الزمن، فكانت الأداة (متى) وكل أدوات الشرط التي بمعناها، وهكذا وقد قلت في بداية عرضي لهذه الفرضية : إنه يغلب على ظني، ونحن نعلم أن الظن لا يغني من العلم شيئا، ولكن غلبة الظن يؤخذ بها في باب العلوم الشرعية، فلا نجد مانعا من الأخذ بها في باب التفسيرات اللغوية، وهي من العلوم الوضعية[147].

والثاني : أن العرب اعتادوا أن يجعلوا لكل مجمع أما، أو شيخا، وهذه سنة الله في خلقه ؛ فهنالك أم للقرى، وأم للكبائر، وأم لسور القرآن الكريم، وجريا على ذلك، جعلوا لكل باب من أبواب أدوات المعاني أما، فلما تقادم الزمن، وأخذ العلم يسير في مجال تعليل الأحكام، اجتهدوا لتسويغ هذه الأمومة، فذكروا ما ذكروا من اجتهادات لتفسير أمومتها، وأصالتها في باب أدوات المعاني. والله أعلم.

---

(147) هذا كلام البدر الدماميني في شرح التسهيل نقله البغدادي في مقدمة خزانة الأدب، وهو يتحدث عن الاستدلال بالحديث النبوي في مجال اللغة 14/1.

مصادر البحث ومراجعه

1 - القرآن الكريم.

2 - الأزهية في علم الحروف، لعلي بن محمد النحوي الهروي، تحقيق عبد المعين الملوحي، مجمع اللغة العربية، دمشق 1981 م.

3 - الأشباه والنظائر في النحو، لجلال الدين السيوطي، تحقيق غازي طليحان ورفيقه، مكتبة الكليات الأزهرية - دمشق، ونسخة حيدر آباد الدكن ط 2.

4 - الأصول في النحو لأبي بكر بن السراج، تحقيق عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة - ط 1، بيروت 1985 م.

5 - الإنصاف في مسائل الخلاف، لأبي البركات لانباري، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية ط 4، القاهرة 1961 م.

6 - بناء الجملة في أحاديث الموطأ المرفوعة، رسالة ماجستير، لهداء البس، جامعة اليرموك، الأردن، إربد 1990 م.

7 - تاج العروس، لمحمد مرتضى الزبيدي، دار التراث العربي، الكويت 1970 م ومكتبة الحياة، بيروت.

8 - الجنى الداني في حروف المعاني، للحسن بن قاسم المرادي، تحقيق طه حسين، مؤسسة الكتب للطباعة والنشر، بغداد 1976، ونسخة بتحقيق فخر الدين قباوة، المكتبة العربية - حلب.

9 - حروف المعاني، لأبي القاسم الزجاجي، تحقيق د. علي الحمد، دار الأمل ط2، الأردن 1986 م.

10 - دلائل الإعجاز، لعبد القاهر الجرجاني، تعليق وشرح محمد عبد المنعم خفاجي، مكتبة القاهرة 1970 م.

11 - ديوان الأحوص، جمع وتحقيق عادل سليمان جمال، الهيئة العامة للتأليف والترجمة، القاهرة 1970 م.

12 - ديوان ذي الرمة، تصحيح وتنقيح كارليل، كمبردج بلندن 1919 م.

13 - ديوان الشماخ بن ضرار، تحقيق صلاح الدين الهادي، دار المعارف بمصر 1968 م.

14 - ديوان العباس بن مرداس، جمعه وحققه د. يحيى الجبوري، بغداد 1968 م.

15 - ديوان الفرزدق، دار صادر، بيروت 1966 م.

16 - ديوان النابغة الذبياني، حققه محمد أبو الفضل ابراهيم، دار المعارف القاهرة 1977 م.

17 - ديوان النمر بن تولب، صنعة د. نوري حمودي القيسي، بغداد 1969 م.

18 - ديوان ابن هرمة، تحقيق محمد نفاع ورفيقه، دمشق 1969 م.

19 - رصف المباني في شرح حروف المعاني، أحمد عبد النور المالقي، تحقيق أحمد محمد الخراط، مجمع اللغة العربية، دمشق 1975 م.

20 - شرح ابن عقيل، لبهاء الدين بن عقيل المصري، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر بيروت والقاهرة ط 16، 1974 م.

21 - شرح التصريح على التوضيح، للشيخ خالد الأزهري، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة.

22 - شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، لمحمد بن عبد الباقي الزرقاني، دار المعرفة، 1981 م.

23 - شرح شذور الذهب، لجمال الدين بن هشام، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ط 10، القاهرة 1965 م.

24 - شرح قطر الندى وبل الصدى، لجمال الدين بن هشام، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، دار الثقافة، القاهرة 1963، ونسخة دار الاتحاد العربي 1969 م.

25 - شرح الكافية في النحو، لرضي الدين الاستراباذي، دار الكتب العلمية ط 6 بيروت، 1979 م.

26 - شرح المفصل، لموفق الدين بن يعيش، عالم الكتب - بيروت، ومكتبة المتنبي - القاهرة.

27 - شرح ملحة الإعراب، لأبي القاسم الحريري، تحقيق د. أحمد محمد قاسم، مطبعة عبير ط1، 1982 م.

28 - شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح، لمحمد بن مالك الجياني، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب العلمية بيروت، ومطبعة البيان العربي بالقاهرة 1987 م.

29 - فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، دار إحياء التراث ط 2.

30 - المقتضب لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت.

31 - لسان العرب لجمال الدين بن منظور، المؤسسة المصرية العامة، مصر.

32 - اللمع في العربية، لأبي الفتح بن جني، تحقيق د. حسين محمد محمد شرف، عالم الكتب ط 1، القاهرة 1979 م، ونسخة الكويت 1984.

33 - مختار الصحاح، لمحمد بن أبي بكر الرازي، بعناية محمود خاطر، دار الفكر العربي، القاهر.

34 - معاني الحروف، لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني، تحقيق د. عبد الفتاح شلبي، دار نهضة مصر، القاهرة.

35 - معجم شواهد النحو الشعرية، للدكتور حنا حداد، دار العلوم للطباعة والنشر ط 1 الرياض 1984 م.

مراتب الاتّساع في الدّلالة المعجمية
المشترك في العربيّة
مادّة «عين» نموذجا

بقلم : الأزهر الزّنّاد

يعـرّف الاشـتـراك بما يكون في «اللّفظ الواحـد الذي يطلق على موجودات مختلفة بالحدّ والحقيقة إطلاقا متساويا كالعين تطلق على العين البـاصـرة وينبـوع الماء وقـرص الشّـمـس، وهذه مـخـتلفـة الحـدود والحقـائـق».[1] ويمكن ترجمة هذا التّعريف الى تعدّد الداليل لدالّ واحد، وهذا التّعدّد مرتبط بطبيعة المداليل المتّصل بعضها ببعض من جهة المفهوم، وهو ما أشار اليه الغزالي بالحدّ والحقيقة، وله اتّصال كذلك بطبيعة الفكر البشريّ في تصنيفه للأشياء، لأنّ الاشتراك والتّرادف والتّضادّ وغيرها من العلاقات إنّما هي من اصطناع الفكر المدرك للأشياء والمرتّب لها في عالم يصطنعه لنفسه يسيطر من خلاله عليها ويمسك بها.

وإذ يمثّل الاشتراك ظاهرة عامّة في اللّغات الطّبيعيّة وأساسا يكاد يكون ضرورة في اشتغالها كان مجالا هامّا في اهتمامات اللّغويين قديما

---

(1) الغزالي ، معيار العلم في فنّ المنطق ص 52.

وحديثا. فقد خاض فيه العرب من اللّغويّين والمناطقة كثيرا ووصلتنا عن بعضهم إشارات متفرّقة كالخليل بن أحمد وسيبويه والمبرّد وابن جنّي وابن فارس وغيرهم كثير، ووصلتنا عن بعضهم مؤلّفات خصّوا بها هذه الظّاهرة. ولا يكاد يخلو كتاب في علم الدّلالة في اللّسانيات الحديثة من قسم يخصّصه أصحابه لدرس الاشتراك بأنواعه ووجوه حدوثه وما يتّصل به من قضايا.

ومن أهمّ القضايا التي تطرح في درس ظاهرة الاشتراك:

- أنواع المشترك: حيث يجري تقسيمه الى مشترك معنويّ polysémie ومشترك لفظيّ homonymie وبيان الحدود بينهما في القاموس والاستعمال.

- حدوث الاشتراك: يكون ذلك ببيان الأسباب وطرق الحدوث في تاريخ اللّغات، وهي في مجملها تعود الى الاتّساع عن طريق المجاز والى اختلاف اللّهجات التي تجري اللّفظ الواحد في معان مختلفة تجتمع في مرحلة الجمع وتأليف القواميس في مدخل معجميّ واحد، والى تطوّر الدّلالة نفسها خلال الأحوال اللّغويّة المختلفة.

وقد أجمل ابن السّرّاج بعضا من هذه الظّواهر في قوله:

«الذي يوجبه النّظر على واضع كلّ لغة أن يخصّ كلّ معنى بلفظ لأنّ الأسماء إنّما جعلت لتدلّ على المعاني فحقّها أن تختلف كاختلاف المعاني، ومحال أن يصطلح أهل اللّغة على ما يلبس دون ما يوضّح، وهذا ادّعاء من ادّعى أنّه ليس في لغة العرب لفظتان متّفقتان في الحروف إلاّ لمعنى واحد لكنّه أغفل أنّ الحيّ أو القبيلة ربّما انفرد القوم منهم بلغة ليس سائر العرب عليها، فتوافق اللّفظ في لغة قوم وهم يريدون معنى مع لفظ آخر

من لغة قوم آخرين وهم يريدون معنى آخر، ثمّ ربّما اختلطت اللّغات فاستعمل هؤلاء لغة هؤلاء، وهؤلاء لغة هؤلاء. فأصل اللّغة قد وضعت على بيان وإخلاص لكلّ معنى لفظا ينفرد به، إلاّ أنّه دخل اللّبس من حيث لم يُقصد»[2].

- خصائص المشترك : يكون ذلك بدرس عدد من المسائل أهمّها متى يبدأ الاشتراك أي ما هو العدد الأدنى من المداليل التي يجب أن تتوفّر للدّالّ الواحد فيُعتبر من المشترك أو يُقصى منه. فاللّغة في أساسها تقوم على اقتران أحاديّ بين الدّالّ والمدلول، لكنّ المشترك يمثّل كسرا لهذا الأساس بتعدّد المدلولات لدالّ واحد، وهذا يستوجب النّظر في طبيعة تلك المداليل من حيث علاقاتها بعضها ببعض وما تكوّنه من حقول دلاليّة ذاهبة في اتّجاهات متعدّدة متباعدة ومتقاطعة. وهي في تعدّدها وتداخلها تطرح قضيّة مهمّة في صناعة المعجم ودراسة نظامه من حيث تخليص الأصل من الفرع : فأيّها الأصل وأيّها الفرع؟

كما أنّ هذا التّعدّد في المداليل للدّالّ الواحد يجرّ تعدّدًا في العلاقات التي تكون له في المعجم من حيث مرادفاته فكلمة «عين» ترادف في المعجم العربيّ كلّ الكلمات التي تثبتها المعاجم في بيان دلالتها، وفي الصّرف من حيث صيغه فكلمة «عين» وفق ما تفيد من معان لا تقبل كلّ صيغ الجموع مثلا فهي إذا دلّت على الجارحة أو منبع الماء أو الجاسوس جمعت على «عُيون» ولكنّها إن جمعت على «أعين» دلّت على الجارحة دون غيرها وإن جمعت على «أعيان» دلّت على الأشراف في قومهم فقط، وهي في صيغة المفرد تحتمل الكثير من المعاني سيأتي درسها في ما يلي

---

(2) رسالة الاشتقاق ص 21.

من العمل بل إنّها لا تقبل الجمع مطلقا إن دلّت على المال مثلا(3). كما تتعدّد علاقات المشترك في التّركيب من حيث توزيعه ولهذا الأمر صلة وثيقة بالاستعمال حيث تطرح قضيّة أخرى تدور على ما به يمكن للسّامع أن يهتدي الى المدلول المراد والمعوّل في ذلك على السّياق عموما.

لكنّ مجرّد الإشارة الى دور السّياق (العلاقات النّسقيّة) لا تكفي لبيان آليّات التّركيب عند المتكلّم ولا آليّات التّأويل عند السّامع. فالمداليل المختلفة المقترنة بالدّالّ الواحد كامنة في اللّغة كمونا بالقوّة ولا تتمايز إلاّ عند حدوث الكلام حيث يترشّح بعضها وينتفي سائرها، وهذا الأمر يستوجب أن تضبط العناصر التي توصلنا الى التّنبّؤ بمدلول العنصر المعجميّ المشترك أو بمداليله في سياق مّا، وهو أمر يستدعي استقصاء مختلف السّياقات التي تقبل ذلك العنصر المعجميّ بما تشتمل عليه من أدوات نحويّة وبما تقوم عليه من علاقات بين مختلف الوحدات المعجميّة، ثمّ تجريد عدد من البنى التّركيبيّة التي تتجاوز الثّبت المعجميّ المجرّد لمختلف المداليل.

وعلى هذا يكون البحث في المشترك ـ تماما مثل الكثير من المباحث ذات الاتّصال بالدّلالة المعجميّة ـ محاولة لرصد شبكة العلاقات التي تكون بين مختلف المداليل في اللّغة حيث تكوّن نسيجا متداخلا، وهو كذلك محاولة لدرس طبيعة تلك العلاقات نفسها وسعي الى ضبط القنوات التي تنفتح من خلالها المداليل الواحد منها على الآخر. وغاية البحث كاملا إقامة البنية التي تجتمع فيها مختلف المداليل.

---

(3) يمثّل هذا المبحث الصّرفي ركيزة هامّة في قضيّة الاشتراك وإن أهملته الدّراسات المهتمّة بهذه القضيّة في ما نعلم، ولكنّه خارج عن اهتمامنا في هذا البحث.

مادّة «ع ي ن» في المعجم :

نعتمد في هذا البحث مثال «عين» وهو من أوسع المداخل دلالة لاستقصاء مظاهر الاشتراك وآلياته. وليس من قبيل الصّدفة أن يكون المثالَ المتواترَ في الدّراسات المتّصلة بالمشترك في القديم والحديث. بل إنّه خصّ بدراسات مستقلّة منها دراسة للأستاذ المرحوم صالح القرمادي[4] قامت على المقارنة بين الحقلين الدّلاليّين المتّصلين بـ «عين» العربيّة و œil الفرنسيّة.

تقترن في القاموس مادّة [العين] بالمفاهيم التّالية نوردها كما هي، معتمدين «لسان العرب» دون ما لحقه من المعاجم إذ اعتمدت عليه في ما يبدو اعتمادا كلّيّا :

«ع ي ن» :

عَيَـن :

- عان الرّجلَ يعينه عينا : أصابه بالعين
- عان لنا، اعتان لنا منزلا مكلئا : ارتاد، الاعتيان : الارتياد
- عان علينا : صار عينا أي رقيبا
- عان، أعان، أعيَن : حفر فبلغ العيون
- عان الماء، الدّمع : جرى وسال
- عانت البئر : كثر ماؤها

عَيِـن :

- عَيِن الرّجل، فهو أعين : كان ضخم العين واسعها

---

(4) انظر : صالح القرمادي : دراسة في الحقلين الدّلاليّين لكلمتي «عين» العربيّة و œil الفرنسيّة. أشغال ندوة اللّسانيات في خدمة اللّغة العربيّة، وفمبر 1981. مركز الدّراسات والأبحاث الاقتصاديّة والاجتماعيّة، تونس 1983.

اعتـــان :

- اعتان الرّجل : اذا اشترى الشيء بنسيئة

عيّـــن :

- عيّن التّاجر : أخذ بالعينة أو أعطى بها، والعينة : السّلف
- عيّن فلانا : أخبر بمساويه في وجهه
- المعيّن من الجراد : الذي يسلخ فتراه أبيض وأحمر
- عيّـن : كتب العين
- عيّـن : خصّص [من بين الجماعة] من عين الشيء نفسه وذاته
- عيّن اللّؤلؤة : ثقبها
- عيّنت القربة : صببت فيها ماء لتنفتح عيون الخرز فتنسدّ
- ثوب معيّن : في وشيه ترابيع صغار تشبه عيون الوحش

تَعَيّـــن :

- تعيّـن الابل واعتانها : استشرفها ليعينها
- تعيّن عليه الشيءُ : لزمه بعينه
- تعيّنْتُ الشّيءَ : أبصرته

التّعيُّـن : أن يكون في الجلد دوائر رقيقة

عايـــن :

- عاين : أبصر

عـيْـــن :

- على عيْني قصدت زيدا، يريدون الإشفاق
- العين : أن تصيب الإنسـان بعين، عان الرّجل يعينه عينا، فهو عـائن والمصاب معين
- العين والمعاينة : النّظر \ رأيت فلانا عيانا أي مواجهة
- العين : عظم سواد العين وسعتها

- عيون البقر : ضرب من العنب بالشّام ومنهم من لم يخصّ بالشّام ولا بغيره، على التّشبيه بعيون البقر من الحيوان
- عيْن الرَّجل : منظره \ شاهده
- العيْن : الذي ينظر للقوم (يذكّر ويؤنّث) وكأنّ نقله من الجزء الى الكلّ هو الذي حملهم على تذكيره \ الرّقيب
- فلان عين الجيش بمعنى رئيسه
- بعثنا عينا أي طليعة يعتاننا ويأتينا بالخبر \ الرّائد
- العين : الدّيدبان والجاسوس
- أعيان القوم أشرافهم وأفاضلهم على المثل بشرف العين الحاسّة
- العين \ عين الماء، ينبوع الماء، عان وأعان وأعْيَن : حفر حتّى بلغ العيون
- عين القناة : مصبّ مائها
- العيْن والعيِّن : الجديد (طانيّة)، قربة عيِّن : جديدة (طانيّة)
- عين القِبلة : حقيقتها
- العين : اسم لما عن يمين قبلة أهل العراق.
- مطر العين : المطر من ناحية القبلة (عن ثعلب)
- العين : مطر أيّام لا يقلع، وقيل هو المطر يدوم خمسة أيّام أو ستّة أو أكثر لا يقلع
- العين : النّاحية
- العين : عين الرُّكبة، نُقرة في مقدّمها ولكلّ ركبة عينان
- العين : عين الشّمس وعين الشمس شعاعها الذي لا تثبت عليه العين
- العين : «وقيل العين : الشّمس نفسها»، طلعت العين وغابت العين (حكاه اللّحياني)
- العين : المال العتيد الحاضر النّاس
- العين : النّقد، يقال اشتريت العبد بالدّين أو بالعين

- العين : الدّينار
- العين : الذّهب عامّة
- العين في الميزان : الميل، هو أن ترجح إحدى كفّتيه على الأخرى \ ميل في لسان الميزان، هذا دينار عين : إذا كان ميّالا أرجح بمقدار ما تميل به لسان الميزان.
- العين : حقيقة الشّيء \ نفسه وحاضره وشاهده
- عين كلّ شيء : خياره والجمع أعيان \ اعتان الشيء : أخذ خياره
- ما بها عيْن \ عيّن : ما بها أحد
- العيْن : أهل الدّار
- الأعيان : الإخوة يكونون لأب وأمّ ولهم إخوة لعلاّت (مأخوذ من عين الشّيء وهو النّفيس)
- عين القوس : التي يقع فيها البُندق
- العين والعينة : الرّبا، عيّن التّاجر : أخذ بالعينة أو أعطى بها \العينة اشتقاقها من العين وهو النّقد الحاضر ويحصل له من فوره
- صنع ذلك على عيْن وعلى عينيْن أي عمداً
- قبل كلّ عائنة وعين : قبل كلّ شيء
- العين : طائر أصفر البطن أخضر الظّهر بعظم القمْريّ
- بلد قليل العين أي قليل النّاس

1 - حدوث الاشتراك : الآنيّة والزّمانيّة

يمثّل المشترك كما أسلفنا ظاهرة حادثة في النّظام اللّغوي، والحدوث هنا يؤخذ في معنيين، حدوث في التّصوّر يتّصل بمحور الآنيّة وحدوث في الزّمان يتّصل بمحور الزّمانية :

حيث نتصوّر أنّ الاشتراك ظاهرة سرطانيّة في حياة اللّغات يختلّ بحدوثها التّوازن في اقتران الدّالّ الواحد بمدلوله الواحد، وهي الصّورة

المثلى التي لا تكاد توجد في لغة طبيعيّة ولعلّ أصفى مظاهر هذا الاقتران الأحاديّ يكون في الخطاب العلميّ الدّقيق. فاللّغة في أصلها وضعت للدّلالة على الأشياء دلالة لا تحتمل تعدّدا ولا تداخلا في اقتران الدّالّ لكنّ الزّمن من خلال الاستعمال بتعدّد الأحقاب والمستعملين أفرادا وجماعات (قبائل، عشائر، شعوبا) متفرّقة منبثقة عن أصل عرقيّ واحد يجعل الدّالّ الواحد مقترنا بعدد من المداليل بينها اتّصال وقرابة تكوّن جسورا ينتشر بها الاقتران انتشارا دائريّا تماما كما تنتشر بقعة الزّيت على القماش أو غيره متوسّلة بما بين المواطن المتجاورة من نسيج أو ألياف. ويتمّ هذا الإتّساع في الدّلالة على مراحل توافق كلّ واحدة منها حالا لغويّة محدّدة إذا أخذنا اللّغة الواحدة مجملة في فترة زمانيّة واحدة وهذه تتضمّن أحوالا جزئيّة أو محلّيّة إذا أخذنا اللّغة في حال انقسامها الى لهجات متعدّدة تمثّل مجتمعة اللّغة الجامعة. ويصعب إثبات هذه الأحوال المختلفة خلال الزّمان والمكان لغياب الوثائق بأنواعها. وبظهور حركة التّوثيق وهي في ما يهمّنا تأليف المعاجم، تصادف حالا لغويّة قد اجتمعت فيها المداليل كلّها اجتماعا واحدا فتسجّلها تسجيلا واحدا. وإذا المعجم طبقات تماما مثل الطّبقات الجيولوجيّة التي ترسّبت وتراكمت الواحدة فوق الأخرى خلال الأزمنة المتعاقبة إلاّ أنّ الجيولوجيا بوسائل التّأريخ المعروفة يمكنها أن تثبت إثباتا تقريبيّا عمر الطّبقة الواحدة ومرتبتها في السّلّم التّكويني في حين يعسر ذلك في اللّغة إن لم نقل يستحيل إذا ما تعلّق الأمر بعهود سحيقة في تاريخ اللّغات.

وهذا الترسّب يكون في المعجم الجماعيّ ولكنّه لا يتّخذ شكل الطّبقات المتمايزة والمتراصفة وإنّما يأخذ شكل الشّبكة المتداخلة الألياف والأنسجة والذّاهبة في جميع الاتّجاهات. فالمعجم بوجهيه المتعاظلين اللّذين تختصرهما العلامة اللّغويّة المفردة : الدّالّ والمدلول، يمثّل نظاما والنّظام علاقات بها تتحدّد قيمة العنصر الواحد. فاذا ما افترضنا أنّ [عين] تدلّ

على الجارحة الباصرة أصلا كان لها عدد من العلاقات المحدودة حدّا نسبيّا يرتبط بمقتضاها كلّ ما يدخل في تسمية الأعضاء وتتّسع هذه العلاقات شيئا فشيئا الى أن تشمل سائر العلامات في المعجم. وإذا تعدّدت مداليل [عين] وفاضت عن مدلول واحد نشأت لها علاقات حادثة تنضاف الى تلك العلاقات الأصليّة فتزداد الشّبكة كثافة قد تصل درجة التّضخّم - إذا ما استعرنا هذا المفهوم من علوم الاقتصاد.

ومن أبرز المظاهر في هذا التّضخّم أنّ الصّورة الصّوتيّة الواحدة [عين] تقترن بعدد كبير من المفاهيم التي وضعت لها اللّغة صورا صوتيّة مختلفة فتصبح هذه الصّور المختلفة مرادفة لها. ولا يفيد استعراضها هنا شيئا وهي مثبتة في القاموس[5].

ويمكن اعتماد المثلّث الدّلاليّ في التّمثيل لهذا المظهر :



[عين]

ويستصحب هذا التّرادف دخول هذه المفاهيم المنتمية الى حقول دلاليّة متباعدة حقلا واحدا بتوسّط الاتّحاد في الصّورة الصّوتيّة [عين] هذه التي تمثّل المفتاح الجامع لحقل حادث عن طريق الاشتراك.

---

(5) انظر ما أثبتناه قبل هذا حيث نجد أنّ القاموس يثبت عددا من المرادفات على عدد المعاني للمدخل الواحد وهو نوع من التّرجمة تجري في اللّغة الواحدة ، [عين] تفيد منبع الماء مثلا فهي مرادفة [منبع] إلخ.

وتتعيّن الإشارة في هذا المستوى الى أنّ التّرادف الحادث بالاشتراك يقصر عن التّرادف الموجود بالأصالة في المعجم. فكلمة |عين| دالّة على الشّمس والجاسوس مثلا في السّياقين التّاليين :

- طلعت العين (= شمس)
- أرسل الخليفة عيونه في البلاد (= جاسوس)

لا ترادف تمام المرادفة كلمة |شمس| أو |جاسوس|[6] الموضوعتين للدّلالة على مفهوم اشمسا و اجاسوسا في المعجم. فكلمة |عين| لا تتخلّص من سماتها الدّلاليّة التي تصحبها في سياقاتها المختلفة وإن اكتسبت بعض السّمات الجديدة من خلال اقتران المفهوم الجديد بها، وهي ترادف في حدود تلك السّمات العلامة التي وضعتها اللّغة للدّلالة على ذلك المفهوم. فيكون بين العلامتين |عين| و |شمس| أو |جاسوس| تقاطع جزئيّ إذ يغطّيان نسبة من مفهوم واحد يشتركان فيها، وهو ما تكتسبه |عين| عن طريق الاتّساع الدّلاليّ بتوسّط علاقة هي المشابهة أو تسمية الكلّ بالجزء، وهذا القسم يطابق جزءا ممّا يدلّ عليه |شمس| أو |جاسوس|. وما هو خارج عن مجال التّقاطع يعود في جزء منه من جهة |عين| الى سماتها الأساسيّة، وفي جزء آخر الى ما يتّصل بسمات |شمس| أو |جاسوس|.

فالجاسوس مثلا يدلّ على مفهومه دلالة كلّية بما يتضمّن من تعدّد الحواسّ في اقتناص المعلومات سمعا ومعاينة وغيرها وما يتضمّن أيضا من ذاكرة تحفظ المعلومات وملكة تحليل ترتّبها وتحلّلها. وليس من قبيل الصّدفة أن تسمّى مواطن هذه الحواسّ «جواسّ الإنسان» (بالجيم) في اللّغة العربيّة.

---

(6) نشير بعلامة |...| الى الشّكل الصّوتي وبـ ا...ا الى المفهوم المقترن بذلك الشّكل الصّوتي وتدلّ
* الواردة الى يمين الجملة على عدم الاستقامة التّركيبيّة أو الدّلاليّة في تلك الجملة.

كما يمكن الإشارة في باب التّرادف الى ما يحدث من تعديل في بنية المرادفات بدخول عنصر جديد فيها بالاتّساع الدّلاليّ المولّد للاشتراك. فإذا ما دلّت [شمس] و[غزالة][7] على مفهوم [شمس] ودلّت [جاسوس] و[ديدبان] على مفهوم [جاسوس] واقترنت [عين] بواحد من هذين المفهومين انضافت قطعة جديدة الى شبكة المرادفات ونشأت بمقتضى ذلك علاقات جديدة تتعدّد بمقتضاها مجالات التّقاطع تعدّد العناصر المعجميّة المكوّنة للمجموعة المترادفة. ومنها ما أشرنا اليه في الفقرة السّابقة واليه ينضاف تقاطع آخر يكون لـ [عين] و [غزالة] في مجال [شمس]، ويكون لـ [عين] و [ديدبان] في مجال [جاسوس]

ومن مظاهر القصور في التّرادف الحادث عن طريق الاشتراك عن التّرادف بالأصالة أنّ [عين] مثلا دالّة على الشّمس أو الجاسوس تنحسر سياقات استعمالها مقارنة بسياقات [شمس] \ [غزالة] أو بسياقات [جاسوس] \ [ديدبان]. ففي مجال علمي يتعلّق بدراسة الفضاء والكواكب لا تستعمل [عين] للدّلالة على الكوكب ولا [غزالة]، كذلك في مجال التّجسّس لا تستعمل [عين] ولا ما يشتقّ منها من صيغ في الدّلالة على ما له تعلّق بهذا النّشاط :

- * الغزالة كوكب حيّ نشيط يمثّل مركز النّظام الشّمسي !؟
- * العين كوكب حيّ نشيط يمثّل مركز النّظام الشّمسيّ !؟
- * تفكّر الدّولة في بعث هيئة لمكافحة العيون \ التّعيين !؟

---

(7) الغزالة : الشّمس عند ارتفاعها.

2 ـ الاشتراك : الفوضى والانتظام

لقد أشرنا سالفا الى أنّ الاشتراك يمثّل ظاهرة يختلّ بها التّوازن في الاقتران الأحاديّ بين الدّالّ والمدلول، ينجرّ عنه تغيّر جزئيّ أو كلّيّ، على درجات في النّظام المعجميّ. فهل يمثّل إذن نوعا من الفوضى[8] chaos ؟.

والفوضى في العلوم الصّحيحة كالفيزياء في ديناميّة السّوائل مثلا، وعلم الرّصد الجوّي في حركة الأنواء، وعلم الطّبّ في نبضات القلب ونشاط الدّماغ مثلا وغيرها من العلوم، لا تعني تشويشا في النّظام وإنّما هي من طبيعة النّظام، كلّ نظام.

فالقاعدة في كلّ نظام أن يشتغل وفق مبادئ وقوانين تمكّن من التّنبّؤ سلفا بما يكون له من حركة أو نشاط، إلاّ أنّه قد يكون له نشاط من طبيعة أخرى لا تنبئ بها تلك القوانين المسيّرة له بل يعسر تفسيرها في ظاهر الأمر لأنّها معقّدة وتقتضي سلسلة طويلة من العمليّات الحسابيّة تراعي كلّ الإمكانيّات. وهي تخضع للصّدفة من جهة والحتمية من جهة أخرى، فالمنطلق يؤدّي نظريّا الى حال يكون عليها النّظام في طور مّا وفق مبادئ حتميّة لكنّ الحال النّهائيّة شيء مغاير تماما لما كان يجب أن يكون. وبين الحالين تتدخّل عناصر جزئيّة تحيد بالجهاز المشتغل شيئا فشيئا عن مساره الى أن يفلت من تحكّم مبادئه الأصليّة فيه فيحدث ما لم يكن منتظرا.

والاشتراك قياسا على هذا هو ظاهرة وليدة الفوضى إذ اللّغة نظام وكلّ نظام يستبطن درجة من الفوضى فهو وليد النّظام اللّغويّ نفسه وما

---

(8) انظر لمزيد التّفصيل :

- Tarnowski, D. & Guillemot, H. & Pilorge, Th. : Le chaos gouverne la pensée, Science et Vie, 914, nov 1993, 37-55.
- Gleick, J; 1987 : Chaos, making a new science, Penguin books, p 352.

العوامل التي تنسب اليها مختلف الدّراسات ظاهرةَ الاشتراك إلاّ حوادث جزئيّة تنفصل الواحدة منها عن الأخرى فتتناسى الحال الأصليّة ويحيد النّظام عن مجراه ويؤول الأمر الى الاشتراك.

فإذا ما انطلقنا من حال أصليّة نفترض أنّها الاقتران الأحاديّ بين الدّالّ ومدلوله في العلامة اللّغويّة الواحدة حيث تقترن [عين] بـ [عين] الباصرة دون غيرها، مثّلت، مختلف السّياقات التي تجري فيها خلال العصور المتتابعة والمجموعات اللّغويّة المختلفة بتوسّط العلاقات المجازيّة المختلفة (الشّبه، الجزئيّة، الجوار الخ) أسبابا أو حوادث جزئيّة منفصلة ومتباعدة تحيد بذلك الاقتران عن أحاديّته ـ وهو القياس المنتظر ـ بل يُتناسى بسببها تماما وتنتهي به الى اقتران متعدّد تكون الحصيلة فيه دلالة الصّورة الصّوتية الواحدة على العديد من المدلولات أو المفاهيم. وتترسّب هذه المدلولات خلال الزّمن وتسجّل في المعجم فتصبح منه. لكنّ ذلك لا يربك الانتظام، إنّها الفوضى المنتظمة يعني ذلك أنّها فوضى في ظاهرها تستبطن انتظاما.

2 ـ 1 الانتظام في المشترك :

ليس من وظيفة القاموس أن يعلّل الظّواهر المعجميّة فعمله الأساسيّ جمع المعاني كما تتجلّى في الاستعمال، وإن تضمّنت بعض القواميس بعض الإشارات الى هذه النّاحية في غضون استعراضها للمعاني المتّصلة بـ «عين» مثلما فعل صاحب لسان العرب.

وتنفرد النّظريّة المعجميّة المنطقيّة الدّلاليّة[9] بإقامة فرضيّات في أسرار التّفاعلات التي تجري في المعجم الذّهني في مستوى أوّل وفي

---

(9) يندرج هذا النّهج في ما يسمّى بالعلوم العرفانيّة siences cognitives وهي تجمع بين اختصاصات عديدة مثل علم النّفس وعلم الأعصاب واللّسانيات والمنطق والإعلاميّة تدرس عمل الفكر في الذّهن البشريّ في مختلف مظاهره، انظر على سبيل المثال : Andler, D; (ed) 1992 : Introduction aux sciences cognitives : Gallimard, 509p:

الذّهن البشري صاحب ذلك المعجم في درجة ثانية ولكنّها الأولى في التّصوّر والفعل. وتزداد القضيّة تعقّدا عند تناول التّفاعلات الجارية في المعجم عند التّرجمة من لغة الى أخرى بما يتّصل بها من قضايا الاختلاف في تقطيع الواقع والتّجربة والمحلاّت الشّاغرة.

فالمعجم من حيث هو جزء من اللّغة وسيلة الفكر في الإمساك بالوجود فاعل ومنفعل : فاعل بحكم ما يقدّم الى الفكر من أوعية لفظيّة تعبّر عن الأشياء، تجعله يرى الوجود من خلال الوحدات المعجميّة ومن ورائها اللّغة، وهو في ذات الوقت منفعل بطبيعة ذلك الفكر المولّد له بالأصالة فترتسم فيه حدود رسمها الفكر خارج كلّ وعاء. وإذا المعجم صورة من جملة الصّور التي يمكن أن تكون للفكر في تشكّله ولعلّها أشملها وأصفاها وأيسرها وألينها ولذلك كانت اللّغة من أبدع ما ابتدع هذا الفكر في جموحه وآخر ما يملك أن يقوده جموحه الى الثّورة عليه. فالإنسان يوجد في اللّغة التي أوجدها وتنعكس هذه فتوجد في الإنسان الذي أوجدها، وإذا اللّغة موجدة للإنسان نفسه فكرا وثقافة لا نوعا وجنسا. وإذ لا فكاك بين الإثنين كان الإنسان الكائن الوحيد النّاطق في الوجود المعلوم.

وليس من قبيل الصّدفة أن تكون العين نموذجا للاشتراك فهي أبرز حاسّة جعلت من الإنسان إنسانا ببعديه الفكري الثّقافي الرّمزيّ والحيوانيّ، بل إنّ وجودها أضاف بُعْدًا آخر تتشكّل فيه اللّغة هو الخطّ المكتوب فنابت الباصرة عند الكتابة عن الأذن عند السّماع. ويبدو أنّ مجموعة الألفاظ التي تسمّي أهمّ الأعضاء البشرية كالعين واليد واللّسان والوجه والرّأس هي أكثر الألفاظ عرضة للاشتراك في اللّغات الطّبيعية[10].

---

(10) انظر : Palmer, 1976, 66

2 ـ 2 البنية الدّلاليّة في المشترك : حقل [عين] نموذجا :

ولنأخذ في تصنيف هذه المعاني المختلفة وفق مداخل نصطنعها وسيلة لتبيّن البنية الدّلاليّة في حقل «عين» :

- مداليل [عين] :
  - مدخل بيولوجي :
    - الجارحة : الباصرة
    - وظيفة الجارحة : النّظر
  - مدخل اجتماعي / ثقافي :
    - الهويّة : منظر الرّجل
    - منزلة اجتماعيّة : السيّد، شريف قومه
    - قيمة اجتماعيّة : العزّ
    - عقيدة اجتماعيّة ثقافيّة : الإصابة بالعين
    - الإشراف والمراقبة : الرّقيب، الذي ينظر للقوم
    - الطّليعة : يبعثه القوم رائدا
    - وظيفة سياسيّة ـ عسكريّة :
      - العسكر :
        - رئيس الجيش
        - طليعة الجيش
      - سياسي / عسكري : الجاسوس
  - مدخل اقتصادي :
    - النّظام القيميّ : النّفيس
    - النّظام النّقدي :
      - مطلق الثّروة : المال
      - وحدات ماليّة :

- عامّة	: الذّهب المضروب
- محدّدة	: الدّينار
- معاملات تجاريّة :	
- تبادليّة نقديّة	: النّقد الحاضر
- تبادليّة قياسيّة	: الميل في الميزان
- فائض	: الرّبا
- مداخل عامّة :	
- كوكب :	
- اسم كوكب	: الشّمس
- اسم لما يصدر منه	: شعاع الشّمس
- الماء :	
- مصدر الماء	: ينبوع الماء
- مصبّ الماء	: عين القناة : مصبّ مائها
- المطر	: مطر أيّام لا ينقطع
- حيوان / نبات :	
- اسم طائر	: أصفر البطن أخضر الظّهر (؟)
- ضرب من العنب	: عيون البقر
- شكل دائريّ :	
- على الجلد	: دوائر رقيقة
- في المصنوعات	: عين الابرة / عين القوس
- في الأعضاء	: عين الرّكبة
- مجال الإدراك	: الحاضر من كلّ شيء
- الجوهر :	
- عين الشّيء	: ذات الشيء ونفسه (جوهره)
- طبيعة الصّفاء	: الخالص الواضح

- قيمة تفاضليّة : خيار الشيء
- الأشخاص :
- أهل البلد
- الجماعة
- الشّخص : ما بالدّار عين اي أحد
- الاتّجاه / الجهة : - النّاحية
- القبلة : عن يمين أهل العراق

وإذا ما انطلقنا فرضا من معنى أصليّ في مادّة «عين» هو ما يتّصل بالبصر : العضو المبصر، الإبصار والنّظر، واستخلصنا من كلّ ذلك السّمات الدّلاليّة التي تكوّنه في جوهره وفي وظيفته، فتكون السّمات الأساسيّة نوويّة sèmes nucléaires وهي مايمثّل جوهره وتكون السّمات المتّصلة بوظيفة الإبصار من حيث هو إدراك للمبصرات، وكون العين «باب النّفس الشّارع» على حدّ عبارة ابن حزم، سمات ثانويّة أو عرضيّة :

السّمات النّوويّة (الجوهر) :

العيـن

ا + جارحة ا
ا + مستديرة ا
ا + بريق ا
ا + بياض فيه سواد / زرقة / ... ا

السّمات الثّانويّة (العرض) :

ا + إدراك بصريّ ا
ا + ترجمة عن باطن الشّخص ا
ا + مصدر الدّموع ا

وكلّ واحدة من هذه السّمات تمثّل مجالا تتقاطع فيه ا عيـن ا الباصرة مع عدد آخر من المفاهيم بعضها حسّيّ وبعضها معنويّ مجرّد، بتوسّط علاقات تعود أساسا الى العلاقات التي تحكم المجاز في الكلام : الشّبه والتّجاور. فإذا تصوّرنا الحقل الذي ندرسه هنا على هيئة دائرة كبيرة فيها دوائر ثانويّة متقاطعة مثّلت «عين» مركزا تفيض منه المعاني المختلفة المقترنة بها فيضا انتشاريّا ذاهبا في كلّ الاتّجاهات. فإن أخذت تلك السّمات واحدة واحدة وجدتها منفذا تخرج منه دلالة [عين] من الباصرة الى مدلول آخر أو قل الى حقل دلاليّ آخر إذ ينجرّ عن اقتران [عين] بمدلول مّا ينتمي الى حقل دلاليّ مّا اقترانه بمداليل أخرى تنتمي الى ذلك الحقل. فيكون هذا الخروج على درجات - والامر افتراض ولكنّه افتراض قويّ - تقترن فيه في بداية الأمر «عين» بمفهوم هو جزء من حقل دلاليّ كامل ثمّ تحدث ظاهرة انتشار قطرة الزّيت فتلتحق بعض المفاهيم المجاورة إن لم تكن جلّها أو كلّها بالمفهوم الأوّل في اقترانه بـ «عين». وفي ما يلي بيان ذلك :

ا + جارحة ا :

هي السّمة النّوويّة التي تجعل [عين] صالحة لتسمية هذا العضو عند جميع الكائنات ذات العين. وهذا لا يمثّل بابا للاشتراك بل هو من مظاهر الاقتصاد في اللّغة عندما تجمع المتفرّق من الذّوات في الاسم الواحد تماما كما تجتمع الذّوات المتعدّدة في الجنس (اسم الجنس).

ا + مستديرة ا

تمثّل هذه السّمة مدخلا لعدد من المدلولات المتّفقة في الاستدارة سواء كانت على هيئة فتحة تخترق الجسم أو أشكالا مستديرة على سطحه. وتجتمع في ذلك مسمّيات عديدة بعضها من المصنوعات كالابرة والقوس وبعضها طبيعيّ كمنبع الماء واستدارة الشّمس وبعضها خلقيّ كعين

الرّكبة وكالدّوائر التي تكون في الجلد، والعنب الذي يشبه «عيون البقر»، ولذلك تجتمع هذه المسمّيات المختلفة في أجناسها في مجال واحد بجامع الاستدارة.

ا + بريق ا

لسمة البريق اتّصال بالإبصار وبمفهوم النّور وهو العنصر الأساسيّ الذي يرتسم على العدسة من العين فيكون الإبصار منها، وهذه السّمة تعمل متظافرة مع سمات أخرى لإحداث النّقلة الى حقل دلاليّ آخر. فالبريق متّصل بالشّمس من حيث هي مصدر النّور المحدث للضّوء ولذلك اقترنت [عين] بالشّمس وبشعاعها.

وبتظافر البريق وسمة الاستدارة تقترن [عين] بحقل دلاليّ آخر هو حقل المال ويجمع عناصر مترابطة هي الذّهب المضروب والدّينار، وإذ يمثّل المال نظاما كاملا يقوم على التّبادل والقيمة التّبادليّة وطرق هذا التّبادل، استدعى هذا المفهوم ما يتّصل به من المعاني كالنّقد الحاضر والنّفيس والرّبا والميل في الميزان. ولعلّ هذا الحقل يمثّل أحسن مجال تبرز فيه ما أشرنا اليه بظاهرة قطرة الزّيت. وليس من المفروض أن يتحدّد المدلول الأوّل، في المعنى الزّماني، الذي يقترن به «عين». فقد يكون الدّينار أو الذّهب أو المال. فتحديد ذلك يبقى مستحيلا في غياب وثائق تشهد باستعمال «عين» في واحد من تلك المعاني في عصر محدّد ولكنّ المهمّ هو أن يقترن واحد منها أوّلا ثمّ يتبعه سائرها :



وبتظافر البريق مع سمة ثانويّة هي كون العين الباصرة مصدرا للدّموع والدمع ماء اقترنت [عين] بحقل دلاليّ آخر هو حقل الماء وما يتّصل به. فالماء الجاري من فتحة في الأرض ذات شكل دائريّ في العادة يشبه تماما صدور الدّمع من العين ولذلك سمّي منبع الماء عينا. وهو إذ ينزل من السّماء نزول الدّمع من العين سمّي المطر عينا مع تخصيصه بالدّوام. وإذ ينزل المطر من السّحاب سمّي السّحاب عينا ويتخصّص السّحاب بكونه من القبلة في اتّصال مفهوم الاتّجاه بالنّظر الذي يكون من العين ولنا عودة الى هذا.

ا + إدراك بصريّ ا

يمثّل الإبصار الوظيفة الأساسيّة التي جعلتها الطّبيعة للعين. وتقترن بهذه السّمة معان عديدة منها حضور الجسم في مجال الإدراك البصريّ فكان أن اتّسعت دلالة العين من الجارحة الى معنى الحضور مطلقا في الحاضر من كلّ شيء وحضور المال وحضور الذّات مطلقا في دلالتها على الشّخص ومنه استعمالها لتوكيد الذّات، وإذ يكون الشّخص حاضرا من حيث هو جوهر اقترن هذا الحضور بالصّفاء أو الخالص من كلّ شيء.

وبتظافر وظيفة الإبصار ومعنى الشّخص مطلقا تخرج [عين] وهي الجزء من الشّخص للدّلالة على الشّخص كاملا حيث تكون العين فيه أهمّ عنصر يحدّد وظيفته الاجتماعيّة أو العسكريّة وهي تلقّي المعلومات بواسطة النّظر أساسا فتطلق لذلك على الرّقيب والجاسوس وعلى الحارس وعلى الرّائد وعلى القائد.

وتتظافر وظيفة الإبصار مع معنى الرّقابة الحسّيّة والمعنويّة هذه التي تترجم الى رعاية وإشراف يكونان بالظّهور وبالعقل الرّاجح وبالعلوّ في

المنزلة الاجتماعيّة اقتحمت [عين] حقلا دلاليّا آخر مجاله العزّ والسّيادة والشّرف والرّئاسة بما فيها من رفعة وتميّز.

ولأنّ العين لا تدرك إلاّ ما كان مواجها لها اقترنت بمفهوم الاتّجاه متّصلا باتّجاه النّظر الذي يذهب بعيدا من موقع الجسم، أفادت النّاحية واتّجاه القبلة مقترنا بالمطر كما رأينا.

نتبيّن من خلال ما سبق أنّ [عين] تمثّل بما لها من معان متعدّدة حقلا منتظما يقبل القسمة الى حقول صغرى. فكلمة [عين] لاتّساعها هذا لا تكاد تفيد شيئا خارج السّياق. وكلّ ما رأيناه من المعاني استعرضناه استعراضا زمانيّا أي خلال أطوار مفترضة لا يمكن تأريخها، وهذه المعاني المختلفة مسجّلة في المعجم ولذلك تكون موجودة وجودا واحدا إن تناولنا الأمر من زاوية زمانيّة. فهي كلّها موجودة فيها وجودا بالقوّة متساوية تمام التّساوي وإن لم يكن بعضها مستعملا في وقتنا الحاضر. ويرشّح السّياق بما ينشأ فيه من علاقات توزيعيّة وتبادليّة واحدا من تلك المعاني فيكون موجودا وجودا فعليّا وتنزاح سائرها. وينقسم في ضوء هذه الثّنائية مدلول [عين] الى مداليل بالقوّة تتساوى فيه كما أسلفنا جميع المعاني المقترنة بهذه العلامة ومداليل بالفعل تتحدّد بالسّياق، بل إنّ هذا التّحدّد لا يبلغ منتهاه فيكون السّياق مجالا لحركة انتقاء تنشد الدّلالة الأحاديّة دون أن تبلغها :

- أصابتنا عين بمعنى : أصابنا مطر دام أيّاما / أصابنا مكروه، فتكون [عين] مرادفة لكلمة [مطر] أو [مكروه] في هذا السّياق.

- لا أطلب أثرا بعد عين : لا أطلب أثرا بعد المشاهدة أو لا أطلب أثرا بعد أن عاينت الذّات المحدثة لذلك الأثر.

فتكون |عين| مرادفة لكلمة |مشاهدة| أو |ذات| في جوار |أثر|.

- « ... اجتاز ببعض المفاوز فظهر له موضع آثار كنز، فجعل يحفر ويطلب فوقع على شيء من عين وورق[11]» : حيث ترادف |عين| كلمة |ذهب| في جوار كلمات من قبيل |كنز| و |ورق| دالّة على الفضّة.

- أرسل الحاكم فلانا عينا له في البلاد : حيث ترادف |عين| كلمة |رقيب| أو |جاسوس| في سياق يشتمل على |حاكم| و |بلاد|.

فالاستعمال - كما يقرّر ذلك قوستاف قيّوم[12] - يمسك بالمعنى في نقطة مّا بين قطبي العموم من جهة والخصوص من جهة ثانية، فيمكن تصوّر مداليل |عين| في شكل استرسال متماسك الأجزاء متّصلها، يكون ذلك في المعجم الذّهنيّ (اللّغة)، وعلى هذا الاسترسال تحدث مقاطع عديدة ويتحدّد المعنى وفق موضع القطع من ذلك الاسترسال عند حدوث الكلام.

ويمكن تلخيص ما سبق تحليله في جدول ذي مدخلين : السّمات الدّلاليّة المكوّنة لمفهوم |عين| من جهة ومختلف المفاهيم التي تدلّ عليها الصّورة الصّوتيّة |عين|، حيث تشير علامة الايجاب (+) الى توفّر السّمة المعنيّة وتشير علامة السّلب (-) الى غيابها وهو ما سنتوسّل به لبيان ما أسميناه بمراتب الاتّساع في الدّلالة.

---

(11) ابن المقفّع، كليلة ودمنة (باب عرض الكتاب).

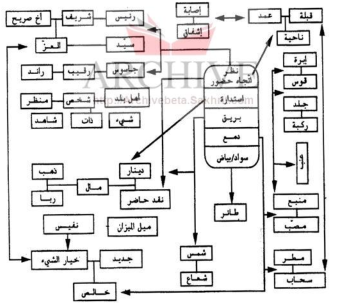
(12) انظر : Guillaume, 1973 و Camoun, 1992, p169-244.

الجدول (1)

	سمات أساسيّة			سمات ثانويّة				
	استدارة	بريق	بياض/سواد	إدراك حاضر	إبصار	اتّجاه	عزّة	دمع
الجارحة	+	+	+	+	+	+	+	+
الشّمس	+	+	-	+	+	-	-	-
شعاع الشّمس	-	+	-	+	+	-	-	-
الإصابة بالعين	-	-	-	+	+	+	-	-
العمد / القصد	-	-	-	-	-	+	-	-
الإشفاق	-	-	-	-	-	-	+	-
إنسان / شخص	-	-	-	+	+	-	-	-
النّظر	-	-	-	+	+	+	-	-
منظر الرّجل	-	-	-	+	+	+	-	-
أهل البلد / جمع	-	-	-	-	-	-	-	-
النّفيس	-	-	-	-	-	-	+	-
الجديد	-	-	-	-	-	-	+	
العزّ	-	-	-	-	-	-	+	-
خيار الشيء	-	-	-	-	-	-	+	-
السيّد / الشّريف	-	-	-	-	-	-	+	-
رئيس الجيش	-	-	-	-	-	-	+	-
الجاسوس	-	-	-	+	+	-	-	-
الطّليعة / رائد	-	-	-	-	+	+	-	-
منبع الماء	+	+	-	-	-	-	-	+
مصبّ الماء	+	+	-	-	-	-	-	+
مطر لا ينقطع	-	-	-	-	-	-	-	+
السّحاب	-	-	-	-	-	-	-	+
دوائر على الجلد	+	-	-	-	-	-	-	-
ثقب الرّكبة	+	-	-	-	-	-	-	-
عين الإبرة	+	-	-	-	-	-	-	-
عين القوس	+	-	-	-	-	-	-	-
الرّبا	-	-	-	-	-	-	-	-
المال	-	+/-	-	-	-	-	+	-
الدّينار	+	+	-	-	-	-	+	-

الذّهب	-	+	-	-	-	-	+	-
النّقد الحاضر	+/-	+	-	+	-	-	+	-
الميل في الميزان	-	-	-	-	-	-	-	-
الخالص الواضح	-	-	-	-	-	-	-	+
ذات الشّيء	-	-	-	-	-	-	-	-
النّاحية	-	-	-	-	-	+	-	-
القبلة	-	-	-	-	-	+	-	-
الشاهد / الدّليل	-	-	-	+	+	-	-	-
طائر أصفر / أخضر	-	-	+	-	-	-	-	-
عنب (عيون البقر)	+	+/-	-	-	-	-	-	-

وباعتماد ما جاء في الجدول (1) يمكن أن نمثّل لحقل [عين] كما يلي :



(2) - البنية الدلالية في حقل [عين]

3 ـ مراتب الاتّساع في الدّلالة :

يقتضي النّظر في مراتب الاتّساع في الدّلالة الانطلاق من الجدول (1) واعتماد نسبة كلّ سمة من السّمات المكوّنة لمفهوم اعين\ا في كونها سمة تخرج بها إعين\ا من معناها الأوّل الى معنى آخر، كما يقتضي النّظر في نسب التّقاطع بين كلّ مفهوم من المفاهيم المتعلّقة بـ إعين\ا من جهة والمفهوم الأوّل اعين\ا الجارحة من جهة ثانية. وبذلك نتبيّن بيسر من خلال الاحصاء نسبة الاتّصال بين مختلف المفاهيم المكوّنة لحقل ،عين، فما كان أقواها نسبة مثّل الطّبقة الأولى في الاتّساع الدّلاليّ وما كان أضعفها مثّل طبقة من درجة لاحقة ولا يتّصل مباشرة بالمفهوم الأصليّ وهو اعين\ا الجارحة.

3 . 1 السّمات الدّلاليّة :

يبلغ عدد المفاهيم التي يشتمل عليها حقل ،عين، تسعة وثلاثين (39)[13] والسّمات الثّماني (8) تختلف في نسبة التّقاطع نوردها حسب التّرتيب :

ـ العزّة	11	28.20 %
ـ الاستدارة	10	25,64 %
ـ البريق	9	23,07 %
ـ الإدراك الحاضر	9	23,07 %
ـ الإبصار	9	23,07 %
ـ الاتّجاه	7	17,94 %
ـ الدّمع	5	12,82 %
ـ السّواد في البياض	1	2,56 %

(13) قد يبدو هذا العدد اعتباطيّا. وفي لسان العرب من المعاني ما يفوق ذلك وقد اختصرنا ما أمكن اختصاره.

فسمة «العزة» كما يظهر هي أكثر السّمات تفاعلا إذ تمثّل الجامع بين أكبر عدد من المفاهيم في حقل «عين» وإن كانت لا تدخل في السّمات الذّاتيّة لمفهوم اعين الجارحة وإنّما هي سمة ثقافيّة اجتماعيّة ذات صلة بالمعنى الحافّ ارتبطت بالعين لمنزلتها في حياة الكائن من الإنسان خاصّة والحيوان عموما، وهي في حقل «عين» ترتبط بالمفاهيم ذات المنزلة الرّفيعة في المنظومة الثّقافية والاجتماعيّة العربيّة (الرّئيس، العزيز، الشّريف، السّيّد، الأخ الصّريح، وكلّ ما يتعلّق بالمال). وهي سمة ثانويّة في اتّساع الدّلالة رغم تواترها إذ هي تابعة لاتّساع يتوسّل بسمة الإبصار مأخوذا في معناه المجازيّ بمعنى السّهر والرّعاية كما يأتي بيانه بعد هذا.

وتليها مباشرة سمة الاستدارة وهي سمة بيولوجيّة أو خلقيّة، تمثّل في رأينا السّمة الأساسيّة الفاعلة في اتّساع دلالة [عين] إذ هي أكثر السّمات توترا أي اشتراكا بين مختلف المفاهيم في حقل «عين». ويثبت هذا الأمر كون الشّبه أوسع العلاقات في اتّساع الدّلالة.

ثمّ تتساوى ثلاث سمات للعين واحدة تمثّل الوظيفة البيولوجيّة الأساسيّة للجارحة (الإبصار) فتطلق على من وظيفته الاجتماعيّة تقتضي منه اعتماد البصر دون غيره كالجاسوس والرّقيب والرّائد ثمّ تأخذ هذه الوظيفة بعدا تجريديّا يتمثّل في الرّعاية والإشراف فتطلق على السّيّد والشّريف وغيرهما. وثانيتها ترتبط بطبيعة تلك الوظيفة من حيث حضور موضوع الإبصار، فتطلق على كلّ حاضر في مجال الإدراك البصريّ فتدلّ على الشّخص بل على كلّ موجود حاضر وثالثتها متّصلة بالنّور شرط الإبصار (البريق) فتطلق على مصدر ذلك البريق بالأصالة كالشّمس أو الانعكاس كالدّينار والذّهب وغيره. بل تتظافر ثلاثتها لتكوّن تقاطعا واحدا

من ثلاث طبقات فالدّينار مثلا مبصر حاضر برّاق ولذلك سمّي عينا. فثلاثتها متلازمة وليس من قبيل الصّدفة أن تتساوى في التّواتر.

ويستلزم الإبصار اتّجاها يذهب اليه لذلك ورد في المرتبة الرّابعة حيث يكون له بعد حسّيّ يفيد توجيه الباصرة الى نقطة مّا هي القبلة أو النّاحية كما يكون له بعد نفسيّ سلوكيّ فيفيد العمد والقصد وهو اتّجاه ولكن في النّيّة والعزم.

أمّا كون الجارحة مصدر الدّمع فليس من السّمات الأساسيّة لذلك تأخر في التّواتر حيث يأخذ بعدا فيزيائيّا فيطلق على الماء من حيث هو جار من منبع أو إلى مصبّ ومن حيث هو مطر وسحاب وبعدا آخر فيزيائيّا قيميّا اجتماعيّا فيطلق على الخالص الصّافي من كلّ شيء ودمع العين كما هو معلوم من أصفى ما يكون.

أمّا سمة البياض الذي يتوسّطه سواد (أو زرقة حسب الأجناس) فليست فاعلة في اتّساع الدّلالة وورودها مرّة واحدة يدلّ على ذلك.

3 ـ 2 المفاهيم :

والمعنيّ بالمفاهيم هنا تلك التي تتعلّق بالصّورة الصّوتيّة [عين] في سياقاتها المختلفة، ومدخل النّظر فيها نسبة الاتّصال بينها وبين اعين من جهة ما يتوفّر بينهما من تقاطع في السّمات عن طريق الشّبه أو تسمية الكلّ بالجزء أو تسمية الأثر بالآلة المحدثة له الخ ...، ويبين النّظر في الجدول (1) عن ذلك :

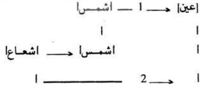
فمن المفاهيم ما له اتّصال بـ اعينا من جهات أربع فتتوفّر فيه أربع من السّمات المكوّنة لـ اعينا، وهذه تمثّل أقوى درجات الاتّصال في الجدول كاملا في حين تتوزّع درجات الاتّصال في سائرها بين ثلاثة وإثنين وواحد أمّا بعضها فلا صلة له بـ ا عين ا إذ لا تتوفّر فيه أيّ سمة من

سماتها. وهذا الأمر مثير لعدد من الأسئلة أساسها ما الصّلة بين هذه المفاهيم ومفهوم اعينا ؟

ولعلّ أحسن مدخل لتناول هذه القضيّة توزيعها على الحقول الدّلاليّة الفرعيّة المكوّنة لحقل «عين» الكبير (انظر البنية الدّلاليّة لتبيّن ذلك)، ونتناول في ما يلي بعض الحقول الفرعيّة لتبيّن مراتب الاتّساع دون استقصاء لها جميعا :

- **الحقل** أ : الشّمس وشعاعها

ترتبط اشمسا بـ اعينا بالاشتراك في أربع سمات : الاستدارة، البريق، الإدراك الحاضر، الإبصار، في حين ترتبط اشعاعا بـ اعينا بالاشتراك في ثلاث سمات فقط، وهي الأربع المذكورة قبل هذا ما عدا الاستدارة. ويمكن من خلال هذا التّقرير أن نستخلص أنّ اشمسا تمثّل درجة أولى في اتّساع دلالة اعينا حيث يتّصل هذا المفهوم بـ اعينا أوّل الأمر ثمّ يستتبع هذا الاقتران لحاق اشعاعا وهو من مستلزمات اشمسا بـ اعينا، وهذا وجه من وجوه التّرتيب في الاتّساع :



الحقل ب : (دينار، ذهب، نقد حاضر، ميل في الميزان، نفيس، ربا، مال)

يتّصل كلّ عنصر من عناصر هذا الحقل بـ اعينا كما يلي :

- النّقد الحاضر : + \ - استدارة، بريق، إدراك حاضر، عزّة

- الدّينار : استدارة، بريق، عزّة
- المال : + \ - بريق، عزّة
- الذّهب : بريق، عزّة
- الرّبا : 0
- الميل في الميزان : 0
- النّفيس : 0

نتبيّن من خلال ما يتوفّر من سمات اعينا في مختلف المفاهيم المنتمية الى هذا الحقل أنّها تتفاوت في درجات الاتّصال فأقربها من اعينا هو النّقد الحاضر إذ يتّفقان في أربع من السّمات مع ما يمكن إبداؤه من تحفّظ يتعلّق بتوفّر سمة الاستدارة في مفهوم النّقد كما تشير الى ذلك علامة +\- في الجدول، يليه مفهوم ا الدّينار ا ويتّصل بمفهوم اعينا بتوفّر ثلاث سمات تجمعه بها جمعا ثابتا لا يحتمل تحفّظا. ثمّ يقترن مفهوم االذّهبا بمفهوم اعينا بتوسّط سمتين. فيكون على هذا اتّصال ثابت ووثيق بين ا عين ا من جهة وهذا الثّالوث الأساسيّ في هذا الحقل من جهة ثانية.

أمّا المفاهيم الثّلاثة المتبقّية (الرّبا، الميل في الميزان، النّفيس) فلا صلة لها بمفهوم اعينا يعني لا يوجد جامع لها به من خلال الاتّفاق في سمة من السّمات، فما مدخلها إذن ؟

إذا اعتبرنا أنّ الحقل الدّلاليّ كلٌّ مرتّب على طبقات من العناصر بعضها رئيسيّ أساسيّ وبعضها ثانويّ كان الدّينار والذّهب والنّقد الحاضر أركانا أساسيّة في هذا الحقل فالذّهب معدن نفيس هو أساس العملة والقيمة التّبادليّة فيها ومثّل الدّينار وحدة نقديّة يقوم بها التّبادل ومثّل النّقد الحاضر مفهوما جامعا للوحدات النّقدية ولعمليّة التّبادل نفسها :

- نقـــد : كلّ ما يمثّل وحدة ماليّة
- حاضر : حضور عند التّبادل

والتّبادل بيع وشراء وإقراض واقتراض وفيْ الحالين تحدث الفائدة التي تزداد بها الثّروة وهو أساس تنمية المال وركيزة الدّورة الماليّة الاقتصاديّة. وفي هذا المستوى يكون الرّبا والميل في الميزان من حيث هما مظهران من مظاهر السّلوك التّبادليّ ويكون مفهوم النّفيس من حيث هو قيمة تتّصل بما يندر ويرتفع ثمنه كثيرا. وهي الطّبقة الثّانية في هذا الحقل.

وما من شكّ في أنّ اتّساع دلالة إعين| كان أوّلا ليشمل الطّبقة الأولى في هذا الحقل بجامع الاشتراك في سمة أو أكثر. فكان أن شمل الاشتراك مفاهيم ادينارا وانقد حاضرا ثمّ ينجرّ عن هذا الاتّساع من الدّرجة الأولى اتّساع آخر يكون من درجة ثانية وبالاستتباع دون توفّر اشتراك في السّمات تلتحق بمقتضاه العناصر الثّانوية في الحقل الدّلاليّ الذي تنتمي اليه تلك المفاهيم الأولى فتدخل اربـا واميل في الميزان| وانفيسا وغيرها إن وجدت حقل اعينا.

اعين ا ـــــ حقـــــــــــل ـــــ «المال»
ا ⟵ ا ـــ طبقة أولى (المفاهيم الأساسيّة)
ا اذهبا
ا ادينارا
ا انقد حاضرا
ا ا ⟵ احتواء ـــ طبقة ثانية (مفاهيم ثانية (مفاهيم ثانويّة
ا ا ربـا ا
ا ا ميل في الميزان ا
ا ا نفيس ا
ا ...
ا ⟵ 2 ـــــــــــــــ ا

فيكون على هذا الاتّساع في الدّلالة على مراتب :

- مرتبة أولى : يحدث الاتّساع بتوفّر وسائط هي علاقات تمثّل جسور الاتّساع كالشّبه وغيره، يكون فيها التحاق العناصر الأساسيّة من حقل دلاليّ مّا بمفهوم آخر من حقل آخر المركز فيه هو مفهوم اللّفظ موضوع الاشتراك (عين في مثالنا).

- مرتبة ثانية : يحدث فيها اتّساع من درجة ثانية يستدعي فيه الاتّساع الأوّل التحاق مفاهيم ثانويّة من الحقل الدّلاليّ المعنيّ (المال هنا) بالعناصر الأساسيّة منها، تلك التي سبق أن التحقت بالحقل الأوّل (عين الباصرة).

ومن مظاهر التّراتب في الاتّساع ما تُبين عنه بنية «عين» الدّلاليّة حيث تتّسع الدّلالة على حقول ثلاثة مثلا بينها اتّصال أساسه التّدرج من الحسّيّ الى المجرّد. فسمة ا + دمعا مثلا تمثّل جسرا تتّسع به الدّلالة المركزيّة الى حقلين بينهما صلات :

- حقل الماء : يشمل مجالين اثنين :
- الماء الجاري : منبع الماء ومصبّه (مصبّ القناة)
- الماء هباءً : المطر والسّحاب

وفي هذا الحقل تدرّج بين الجسم الفيزيائيّ الواحد في شكليه السّائل والمنتشر في الهواء في شكل هباءات.

- حقل الاتّجاه : القبلة، النّاحية، العمد والقصد

وترتبط عناصر هذا الحقل باتّجاه النّظر من جهة، وهي ذات صلة أيضا بالمطر مصدر الماء وهي القبلة (سحاب القبلة)، وهو بين الحسّيّ في ما سبق ذكره (القبلة والنّاحية) وبين المجرّد عندما يتعلّق الأمر بالعزم والقصد وهو اتّجاه ولكنّ من قبيل العقل والنّيّة.

- حقل قيميّ : الخالص من كلّ شيء

ويمثّل درجة أمضى في التّجريد دون أن تفارق الحسّ فالماء دمعا وجاريا من منبع ونازلا من السّحاب خالص التّكوين لا يخالطه شيء ويتّسع مفهوم الصّفاء ليطلق على كلّ شيء.

3 ـ 3 في تظافر السّمات في الاتّساع الدّلاليّ :

يتجلّى تظافر السّمات من خلال بنية «عين» الدّلاليّة في مستويين :

- المستوى النّووي :

نعني بذلك مستوى الدّلالة المركزيّة حيث يجري الاقتران بين ا عين الباصرة ا بحقل أو حقول أخرى كأن تتظافر سمتان بأن تلتقيا في عنصر مّا من حقل دلاليّ مّا فتقوّيا الاتّصال بين حقلين مختلفين من جهة وبين كلّ واحد منهما بـ ا عين الباصرة ا من جهة ثانية :

فإذا أخذنا ا + مستديرة ا وجدناها جامعة بين أربعة حقول :

- حقل : الإبرة والقوس والركبة ودوائر الجلد
- حقل : العنب
- حقل الماء الجاري : منبع ومصبّ
- حقل المال : الدّينار

وإذا أخذت حقل المال وجدت فيه ثلاث سمات تلتقي كلّ منها بواحد من عناصره أو بعدد منها فيكون اتّصالها بالحقل كاملا :

- سمة الاستدارة : الدّينار
- سمة الحضور : النّقد الحاضر
- سمة البريق : الدّينار، النّقد الحاضر، الذّهب

ـ مستوى الأطراف :

ومن مظاهر التّراتب في الاتّساع ما يكون بين الحقول المختلفة المتّصلة بـ [عين] من وشائج ينفتح بها الواحد على سائر الحقول. فإذا أخذت مثلا عنصر ا نفيس ا من حقل المال وجدت له صلة بـ ا خيار الشّيء ا من حقل قيميّ أوسع من المال، ولهذا العنصر الأخير صلة بحقل اجتماعيّ كامل يشمل «الرّئيس والأخ الصّريح والسيّد والشّريف والعزّ». وإذا أخذت عنصر االخالص من كلّ شيء وجدت له اتّصالا بحقل الماء المشتمل على «المنبع والمصبّ والمطر والسّحاب». وللسّحاب صلة بحقل الاتّجاه في ارتباطه بعنصر «القبلة»، وفي هذا الحقل تجد عنصر «العمد» وله اتّصال بـ «الإصابة بالعين» و«الإشفاق». ويمكن أن تجد كذلك للإشفاق صلة ببعض العناصر في الحقل الاجتماعيّ كـ «الرّئيس والسيّد والشّريف».

وإذا كلّ الحقول كما ترى مترابطة بينها شبكة كاملة من الاتّصال تخرج من الواحد إلى الآخر مخرجا مّا دون أن ينقطع بك الجسر الى أن تعود من حيث انطلقت. وإذا الاشتراك ظاهرة طبيعيّة في اشتغال اللّغات تستلزمها طبيعة المفاهيم التي يتّصل بعضها ببعض في الذّهن البشريّ وما العلامة اللّغويّة إلا وعاء ليّن متوسّع فضفاض يتابع حركة الفكر محاولا الإمساك به.

ويمكن في الختام أن نجمل مراتب الاتّساع، وهي متدرّجة من المركز الى الأطراف ويناسب طردا هذا التّدرّج اتّساعا في الدّائرة :

1 ـ مرتبة المركز :

يتمّ الانتشار بتوسّط العلاقات بين السّمات المركزيّة المكوّنة للمفهوم الأوليّ وبين سمات واحد أو أكثر من المفاهيم المنتمية الى حقل دلاليّ مّا. والعلاقات هنا تقوم أساسا على الشّبه والتّجاور، وهي في اتّجاهها انتشاريّة centrifuge.

2 ـ مرتبة الوسط :

يتمّ فيها انتشار من درجة ثانية لاحقة على السّابقة بتوسّط علاقة الانتماء الى حقل واحد. ولذلك يوجد من المفاهيم ما يلتحق بدلالة وحدة معجميّة مّا دون توسّط علاقة من العلاقات الفاعلة في المرتبة المركز. فهذا الانتشار مجاله الحقل الدّلاليّ الواحد.

3 ـ مرتبة الأطراف أو التّخوم

يتمّ فيها انتشار دائريّ حيث تترابط عناصر منتمية الى حقول دلاليّة متباعدة، وهي درجة يبلغها الانتشار عند ما يصل درجة التّشبّع saturation. هذا في الحقل الواحد ناشئا في العلامة الواحدة.

ويمكن أن نتصوّر في الاتّساع الدّلاليّ عموما درجة يبلغها الانتشار خلال الأحوال اللّغوية المختلفة تمثّل أقصى ما يمكن أن يبلغه فتتكوّن شبكة من المداليل تمثّل فسيفساء من المربّعات الدّالّة على المفاهيم المختلفة واحدا واحدا، ثمّ تأخذ بعضها في التّآكل والنّقص تدريجا فيموت بعضها ويظلّ بعضها الآخر حيّا.

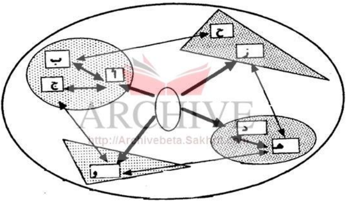
ومن أمثلة ذلك أنّ [عين] في العربيّة الفصحى المعاصرة ـ في أذهان المستعملين العاديّين من غير ذوي الاختصاص ـ أي في المعجم الذّهنيّ فقدت الكثير من مدلولاتها المسجّلة في المعاجم القديمة، ولا يمكن استحضارها استحضارا فوريّا قائما على الحدس اللّغويّ.

ولكن للأمر وجها آخر يتمثّل في الثّنائيّة اللّغويّة diglossie إذ تنقسم مستويات الاستعمال الى مستويين كبيرين : الفصحى والعامّيّة بما فيها من لهجات متعدّدة في الوطن العربيّ. وهذه اللّهجات تحافظ دون شكّ على بعض مدلولات [عين] في القديم، وقد يأخذ الاتّساع فيها مشارب شتّى فتقترن [عين] بمدلول في لهجة مّا قد لا تقترن به في لهجة أخرى. وهو

اتّساع لا يقطع صلته بالاتّساع القديم. ويستدعي هذا المظهر دراسة لاستقصاء خصائصه إن وجدت.

ويمكن أن نُجمل مراتب الاتساع في التمثيل التّالي حيث تمثل الدّائرة البيضاء مركز الاتّساع والأشكال المنقّطة الحقول الدلاليّة التي يشملها الاتّساع في المرتبة الأولى، وتشير الأسهم إلى اتجاهات الاتساع في المراتب المختلفة.

(3) مراتب الاتّساع :



المــراجــع

المراجع العربيّة :

- ابن أحمد (الخليل) : كتاب العين، ت مهدي المخزومي وإبراهيم السامرّائي، دار ومكتبة الهلال، د ت.
- ابن السرّاج (أبو بكر محمّد) : رسالة الاشتقاق، ت. محمّد علي الدّرويش ومصطفى الحدري، منشورات دار مجلّة الثّقافة، دمشق، 1973.
- ابن فارس (أحمد) : الصّاحبي في فقه اللّغة وسنن العرب في كلامها، ت. مصطفى الشّويمي، بيروت، 1963.
- ابن المقفّع (عبد الله) : كليلة ومنة. دار المسيرة، بيروت 1981.
- ابن منظور : لسان العرب.
- الغزالي : معيار العلم في فنّ المنطق دار الأندلس، بيروت، د.ت.
- مجاهد (عبد الكريم) : الدّلالة اللّغويّة عند العرب، دار الضياء، بيروت 1985، 302ص.

المراجع الأجنبيّة :

- Baldinger, K; 1977, Theory, Towards a Modern Semantics, Blackwell, Oxfrd, 320 p.
- Camoun; A; 1992 : Etudes de psychosytématique Française et arabe, faculté des Lettres de la Manouba, 247 p.
- Chomsky, N; 1975 : Questions de sémantique, traduit de l'anglais par Bernard Cerquiglini, Paris, 235 p.
- Fodor, J.D; 1977 : Semantics, Theories of Meaning in Generative Grammar, 225 p.
- Gleick, J; 1987 : Chaos, Making a New Science, Penguin books, 352 p.
- Guilbert, L; 1975, La créativeté lexicale, Larousse, 285 p.
- Guillaume, G; 1973 : langage et science du langage, Paris Québec, 287 p.
- Lyons, J; 1977 : Semantics, 2 tomes, Cambridge, 987 p.
- Palmer, F.R; 1976 : Semantics, Cambridge, 164 p.
- Tarnowski, D. & Guillemot, H. & Pilorge, Th. : Le chaos gouverne la pensée, Science et Vie, 914, nov 1993, 37-55.

قواعد البيانات العربية
معجم التعابير المسكوكة

بقلم : **محمد الحنّاش**

1 ـ الاطار اللّساني

نقصد به المعالجة اللسانية المبنية على إطار نظري معضد باطار منهجي عملي قوامه لغة عقلانية ترصد ميكانيزمات نمذجة أو تقييس الدماغ البشري في مكوّنه اللساني. هذه المعالجة تقوم كذلك على مجموعة من المفاهيم النظرية والعملية يمكن اختزالها في العبارات التالية : اللغة ليست الخبر بل إنها تسوق الخبر، أما اللغة الواصفة فتنبع من صميم النظام الغوي لا من خارجه. بهذين المفهومين البسيطين تمكنا من بناء نحو صوري للغة العربية يتعامل مع اللغة كبنيات لا كمفردات (على الأقل في المرحلة الأولى)، ذلك لأننا نعتبر أن أصغر وحدة في الدلالة هي الجملة واست المفردة، والجملة مفهوم يختزل منظومة من العلاقات التوزيعية القائمة بين المكونات (المداخل المعجمية البسيطة). ويتم التعامل مع هذه

العلاقات التوزيعية بعمليات نحوية صورية، الأمر الذي أدى بنا الى بناء نحو يمكن أن نطلق عليه نحو العوامل Grammaire des opérateurs. كل ذلك أدى بالفعل الى نظرية توليدية ذات كفاءة عالية، ذلك لأن الهرم اللغوي يتأسس على ثنائية عوامل / موضوعات / Opérateurs / Arguments.

إن العلاقات التوزيعية أساس كل تأليفية لسانية،فالعناصر تَتَابَعُ فيها بنوع من الانضباط المؤسس على قانون الاختيار. واللغة تتأسس على منظومة من الرموز الصورية المبنية وفق سنن محدد يتدخل في إنشائه التكوين البيولوجي والسيكولوجي للانسان. ويكفي أن نذكر هنا نموذجي التعابير المسكوكة والمعاجم الآلية للغات الطبيعية. فقد تبين لنا من خلال العمل في هذين المجالين أن التوزيع يشبه الى حد كبير العمليات الحسابية المعلوميـاتيـة. وهكذا فـان التوزيع بالنسبة لـ «هاريس» بحث في تموقع العناصر داخل بنياتها الصورية في إطار برنامج محدد. وعندما نتحدث عن برنامج لغوي في قدرة الافراد فان القصد يتوجه أولا الى القوانين التوزيعية. أما التحويلات فتعتبر عمليات اجرائية لتصحيح الوصف اللساني. فاذا كانت المقدمات التوزيعية موضوعة بشكل سليم، فان النتائج (التحويلات) ستكون كذلك.

أما الصرف فإنه المستوى الأول الذي تتأسس عليه جميع القوانين التحويلية. بل أن الصرف يرتبط أساسا بالكفاية المعجمية للمتكلمين حيث يعتبر رديفا للاعراب الذي يلحق المداخل المعجمية. وقد أتاحت لنا دراسة الصرف بناء معاجم آلية للغات الطبيعية. فالصرف يسمح بصياغة خوارزات Alghoritmes تتأسس هي نفسها على قواعد تناسلية تؤدي مقدماتها الى نتائجها. وقد وظفت في هذا المستوى لغة عقلانية مكنتنا

من تقييس الدماغ البشري في هذا المستوى وذلك بفضل التقدم الحاصل في المعلوميات الذي تنبني عليه اللسانيات الحاسوبية.

وللتذكير فان النظرية الهاريسية تنطلق من فرضية بناء أنحاء خاصة قبل بناء النحو الكلي، وما ذلك الا لايمانه بأن اللغات مازالت لم توصف بالشكل الذي يؤهل النظريات اللسانية لبناء نحو كلي، فلحد الساعة لا تتوفر على قواعد بيانات كاملة تمكننا من استخلاص النتائج المشتركة بين اللغات الخاصة، ومن ثم وجب التفرغ لهذه المهمة بكل دقة حتى نتمكن من وضع نحو كلي. وبدون اكتمال هذا الوصف، وبالاعتماد على الفرضيات المستوردة غالبا من علوم أخرى، سنخلص حتما الى بناء نماذج صورية قد لا تكون لها مصداقية في الواقع اللساني، وفي أحسن الأحوال ستعرف تطبيقات جزئية غير مؤهلة لرصد الكفاية اللسانية القائمة على البرنامج اللغوي المخزن في الدماغ البشري. وبالنسبة للغة العربية فان هذا النحو يسمح لنا بالتعامل معها كلغة طبيعية تشترك مع سائر اللغات الأخرى في المقومات العامة للبرنامج اللغوي، كما يسمح لنا بوضع قواعد خاصة بهذه اللغة دون السقوط في عملية الاسقاط التي تعرفها بعض الدراسات المنجزة حول اللغة العربية.

يقوم التحليل الهاريسي على نوعين من المعالجة :

1) التحليل التسلسلي Analyse en chaine وهو الذي يقسم المتواليات اللسانية الى نواة وفضلات.

2) المعالجة التحويلية وهي التي تهتم بالنواة والعمليات اللسانية المطبقة عليها : اختزال، استبدال، ادماج العوامل، نفي، ربط، الخ.

يمكن اعتبار المعالجة الأولى بنيوية الى حد كبير، فهي تهتم بالمعالجة الخطية للجمل من حيث أنها تميز فيها بين النواة والفضلة، وقد نشأ عن هذا نحو جانبي يطلق عليه نحو الأشجار الملحقة.

أما النوع الثاني من المعالجة فيهتم أساسا بالعمليات الاشتقاقية التي تربط بين الجمل، وذلك بتوظيف مفهوم الأطناب Paraphrase، معتبرا في نفس الوقت ان الجمل مداخل قابلة للمعجمة من حيث استقلالها الصوري.

إن التحويلات أدوات إجرائية لتخزين اللغة في الدماغ البشري، وهي موضوع بحث الدارسين اللسانيين على مختلف اتجاهاتهم النظرية والمنهجية، ذلك لأن الهم المشترك بين كل اللسانين هو رصد القوانين اللسانية المبرمجة في الدماغ البشري. وليست هناك وسيلة توفرها لنا العلوم المعاصرة اليوم أفضل من التعامل بهذا الاجراء.

بهذا المعنى سيشبه عمل اللساني تماما عمل الفيزيائي، كلاهما يبحث في طريقة وضع الأشياء في مكانها الطبيعي، وذلك بجعلها رياضية، وبشكل من الأشكال إرجاعها الى مرحلتها الأولى أي قبل أن تلمسها يد الإنسان أي الى الوضع الذي تكون عليه قبل أن تمتد اليها قدرة المتخاطبين. فالطبيعية تبقى معادلة لنفسها إذا لم تتدخل أية قوة لاستعمالها إن اللساني يقوم برصد الظواهر بتصنيفها في مجموعات متجانسة أو على الأقل متماثلة في وحداتها المكونة لها، وهذه العملية لا يمكن أن تنجز الا في إطار وصفي بالمعنى الذي نعمل به في هذا الاطار النظري المطبق في هذا البحث. وبه تمكنا من الكشف عن مجالات لسانية ظلت لحد الآن مجهولة، مثل مجال التعابير المسكوكة. وبفضل الأسلوب المتبع في المعالجة اللسانية للظواهر اللغوية، واعتمادا على مفهوم التصنيف الذي يقوم عليه منهجنا هذا تمكنا من بناء معاجم آلية للغة العربية. إن برامج التعرف على مفردات النصوص المكتوبة باللغات الطبيعية، وبرامج استرجاع المعلومات

بالحاسوب والتي تدخل في إطار العمل التوثيقي الآلي، لا يمكن أن تنجز الا في إطار مشروع لساني صوري تجريبي. ولحد الساعة لا نجد إطارا نظريا ومنهجيا يولي الاهتمام لهذه القضايا التي تشكل عمق واستراتيجية البحث في اللسانيات المستقبلية غير هذا الاطار النظري والمنهجي الذي نتتبعه هنا. إن عملية تقييس الدماغ لا يمكن أن تتم بمعزل عن التطورات التي حصلت في مجال المعلوميات، لكن اعتمادها وحدها غير مجد لاستجلاء عمل الدماغ البشري في مستوى اللغة، ولهذا كان من الضروري تعاون اللسانيين والحاسوبيين للشروع في إنجاز هذا العمل. ومن المفروض أن يكون هؤلاء اللسانيون من الفئة التي تبحث في الممارسة اللسانية التجريبية لا اللسانيون الذين يبنون معالجتهم على التجريد. إن اللسانيات التي يمكنها التعامل مع هذا الجيل من المعلوميات هي تلك التي تنطلق في معالجتها من قواعد البيانات اللغوية الخاصة بكل لغة، فهذه الأخيرة هي وحدها المؤهلة لبناء قواعد مطردة لنظام اللغة. دعك الآن من قواعد المعارف Bases de connaissances الذي تقوم عليه معلوميات الذكاء الاصطناعي المرتبط أساسا باللسانيات الادراكية La linguistique cognitive، فهذه لن تطرح أية مشكلة أمام إطارنا النظري الذي يتكيف مع جميع أنواع اللسانيات الحاسوبية.

سنحتاج في هذا البحث بالدرجة الأولى الى الأدوات الاجرائية اللسانية لمعالجة الشكل اللغوي عارضين المعطيات على القوانين اللسانية المنظر لها اعلاه، وهو ما نحتاج اليه عادة لضبط الآلة المولدة للنسق اللغوي أي النحو. ان مفهوم قواعد البيانات لا يمكن ان يضبط في رأينا من وجهة نظر صورية، وبذلك فاننا نعادل هذا المفهوم بمفهوم المعجم الذي ظل لحد الساعة مسيطرا على الدراسة اللسانية في مستوييها الكمي والصوري. وفي رأينا أن مفهوم المعجم يرادف مفهوم النحو المستخلص من قواعد البينات، كلاهما يتمركز في الكفاية المعجمية للمتكلمين، وكلاهما

يقوم على قوانين صورية تنظمه، وهو ما يعادل مفهوم النحو بالمعنى اللساني الصوري التجريبي. وهذا الطرح المنهجي والنظري يفرض حتمية مراجعة مفهوم المعجم، ومن ثم مراجعة مفهومي المدخل المعجمي والنّص المعجمي اللذين تتأسس عليهما الكفاية المعجمية في جميع اللغات الطبيعية.

2 ـ مفهوم المدخل المعجمي

على ضوء ما سبق نقسم المعجم الى نوعين : الأول تقليدي ويقصد به ضبط التنسيق بين الشكل اللغوي واحالته اللسانية في الاستعمال اللغوي، وهذا النوع من المعاجم يميل الى التوثيق أكثر منه الى المعالجة اللسانية، وذلك لغياب الأسس النظامية من هذا النوع من المعاجم. ونمثل لهذا النوع بالمعاجم القديمة، مثل لسان العرب والقاموس المحيط وغيرهما ...

أما النوع الثاني من المعاجم فهو عبارة عن منظومة من الخورازمات التي تقوم بتوليد المداخل في الكفاية المعجمية للمتكلمين باللغة الطبيعية، وذلك وفق القوانين النحوية المثبتة في الكفاية المعجمية. هكذا سيكون المعجم عملا خوارزميا من حيث أنه آلة لتوليد الأصناف اللغوية في جميع مستويات وليس مجرد آلة لتنظيم الاخبار أو الدلالات، وهذا النوع من المعاجم هو الذي نطلق عليه المعاجم الآلية.

في النوع الأول من المعاجم كان تنظيم المادة يسير وفق النسق التالي : س = س" ، أي ان المدخل س يشرح بالمتوالية الاطنابية س" حيث أنه كان يقع التركيز على الجانب المضموني أكثر منه على الجانب الصوري. أما

المعجم بالمعنى الجديد فاننا نقيمه على الشكل التالي : س ←—— س' اي ان س كمدخل معجمي ينتج عنه مغايره اللساني المشتق منه وفق قانون خوارزمي مضبوط، هكذا اذن سيتغير مفهوم المدخل ليشمل سائر المستويات اللسانية : من المفردة الى المتوالية اللسانية بجميع أنواعها، مثلا :

ولد / س 56 ←—— الولد، ولدان، الولدان، أولاد، الأولاد.

حيث أن العلامة ←—— تعني الخوارزم اللساني المولد للمشتقات التي ترتبط بالمدخل المعجمي، وهذا الخوارزم يصبح أداة فعالة في ضبط عملية توليد مختلف المشتقات من المدخل المحقق لا المدخل المفترض.

أما المدخل فأنواع كذلك : بسيط ومركب وكل منهما يتفرع الى عادي ومعرب.

1) ومن المداخل البسيطة الأنواع التالية : الأفعال، الصفات، الظروف، المصادر، الأدوات،وأنواع أخرى.

أما الجذور فتمثل أبوابا معجمية مستقلّة، أي رئيسية في هرمية التنظيم المعجمي، لكنها تبقى دائما ذات طبيعة تصريفية من حيث أنها تشكل القاعدة التي تنطلق منها مختلف العمليات التوليدية في المستوى الصرفي. فهي اذن عقيمة كليا في توليد المستوى التأليفي للكلام.

2) أما النوع الثاني من المداخل فهو الذي نطلق عليه المداخل المركبة، ونعني به الجمل بأنواعها المختلفة : بسيطها ومركبها عاديها ومسكوكها. والحقيقة أن اعتبار الجملة مدخلا معجميا أمر جديد على الدراسات

اللسانية الحديثة، الا أننا نبني فرضيتنا العلمية على نحو العوامل المشار اليه أعلاه، والمقصود به أن كلمة لغة تتأسس على مفهوم التأليف بين عوامل (محمولات) ومعمولات (موضوعات)، وتنتظم المتواليات اللسانية في كفاية المتكلمين بالطريقة التالية: L = P (al, a2, a3, ...)

L = لغة، P = محمول، a = موضوع أو متغير. وبذلك يكون مفهوم لغة قائما أساسا على نظام عاملي محكم قوامه عوامل ومعمولات. وهذا يعني أن المظهر التركيبي قوام اللغة، أما بقية المستويات فمكونات تنتمي أما الى العوامل أو المعمولات، ويتحكم فيها النظام الصرفي بالدرجة الأولى.

ان اختلاف المدخل يعني اختلاف المعالجة، بل واختلاف الأهداف المتوخاة من كل نوع من أنواع المعجم، وبالتالي سيقع اختلاف في مفهوم النّص المعجمي نفسه، ومن هنا كان الضروري اتباع نهج مختلف مع كل نوع من المداخل أثناء بناء المعجم الآلي الخاص باللغة العربية وهذا ما سنقدمه في ثنايا هذا البحث.

3 ـ معجم المداخل البسيطة

يشمل معجم المفردات البسيطة المداخل المحاطة ببياض في نص لغوي عربي فصيح، ويشمل هذا المفهوم الأفعال والأسماء وسائر المشتقات المشار اليها في 2 أعلاه، بما في ذلك الحروف وسائر الأدوات. ويلخص الجدول التالي تصورنا لبناء هذا المكون من المعجم العام:

المداخل البسيطة العادية والمعربة

نوع المعجم	المرجع النحوي	المرجع الصرفي
معجم المفردات البسيطة	الرمز الخاص بكل مدخل (ف، س، ص، ظ، ح.)	الرقم الخاص بالصنف التصريفي (انظر الملحقات بعده)
معجم المفردات البسيطة المعربة	المفردة برمزيها النحوي والصرفي	المفردة مصرفة في سائر أوجهها الصرفية

الشكل رقم (1)

وتختلف المداخل البسيطة عن المداخل المركبة بتعدد البياضات الفاصلة بين مكونات المدخل المعجمي، الا أنها بياضات اجبارية يصعب تجاوزها في التعامل مع المدخل من حيث انتماؤه للتجربة اللغوية التي يفرزها البرنامج اللساني المخزن في الدماغ. ونصوغ هذا المعجم على الشكل التالي :

المدخل المعجمي المركب	
البنية الصورية لصنف الأسماء المركبة	متن الاسم المركب
البنية الصورية ف س. ك (ك = س ؛ س1، س2)	الجزء الأول مصرفا دون الجزء الثاني

الشكل رقم (2)

ويصعب الفصل بين المدخل الفعلي المركب والمدخل الإسمي المركب، ذلك لأن هذه الفصيلة من المداخل تتعلق بنوع من التعابير نطلق عليها في

هذا البحث التعابير المسكوكة في اللغات الطبيعية، وسنعود اليها بنوع من التفصيل في الفصل الخاص بها في هذا البحث.

3 ـ 1 المداخل الجذور

ان تشفير الجذور عملية أكثر دقة من حيث أنها مغرقة في التجريد الصوري، وقد تطلب حصر رموزها وقتا أطول من تشفير بقية أنواع المداخل المعجمية. فهي تتطلب حصر جميع العمليات التي تطبق على الجذر لتولد منه مداخل معجمية منتجة، في مقابل توليد المداخل غير المنتجة أو العقيمة. وقد تم توظيف رموز صورية تتراوح بين السلب والايجاب، وذلك على الشكل التالي :

ض. ر. ب : ‹ف = + 0›، ‹مص = 0 + ›، ‹فا = 1 + ›، ‹فـو = 2 + ›، ‹س = 0 + ›، الخ

ق. و. ل. : ‹ف = 0 + ›، ‹مص = 0 + ›، ‹فا = 1 + ›، ‹فـو = 2 + ›، ‹س = 0 + ›، الخ

حيث أن : + = الحروف الزائدة عن الجذر ف = الفعل فو = اسم المفعول

- = الحروف الناقصة في الجذر س = الاسم مص = المصدر

0 = ليست هناك زيادة عن حروف الجذر فا = اسم الفاعل ص = الصفة

1 = أو أي عدد آخر يعني عدد الحروف الزائدة عن الجذور لتوليد الصيغة المشار اليها بالحرف قبل علامة :

وبهذه الطريقة تم تشفير جميع الجذور العربية التي يصل عددها الى 9464 جذرا ثلاثيا ورباعيا. ورغم الطابع التجريدي لهذا المكون في المعجم الآلي فقد مكننا من توليد سائر المداخل المعجمية الاسمية والفعلية في اللغة العربية.

2.3 ـ المداخل الفعلية

لم يكن من السهل ضبط الأفعال في أرقام محددة نظرا لتشعب علاقاتها بسائر أقسام الكلم وخاصة منها المصدر وسائر أنواع الصفة. وقد تمكنا مع ذلك من عزل الفعل عن سائر أقسام الكلم بجعله وحدة مستقلة عن التركيب. هذا على الرغم من صعوبة الفصل بين الفعل وفاعله نظرا لغياب صيغة infinitif في اللغة العربية، حيث يتهيأ للمصنف أن إعطاء رقم معين للفعل هو في نفس الوقت رقم للفاعل، وهذا ما أخر إنجاز عملية الترقيم قليلا.

إن اعتبارنا للفعل مدخلا مستقلا عن تركيبه يفرض اختيار الصيغة الأقرب الى التمثيل الصوري، وقد جاء اقتراحنا لصيغة الفعل الماضي كأساس للتشفير لخلوها من الزوائد واللواحق التي تحمل علامات الزمن والشخص والعدد، وبذلك تمكنا من اتباع أسلوب قسمنا به الأفعال الى مجموعات تصريفية يتمثل فيها أقصى حد ممكن من الاطراد في الانتماء الى الصنف المناسب. وهذه الأصناف تحدد من خلال الحركات التي يأخذها الفعل في المضارع، حسب الصحة والإعلال، وحسب الزيادة أو عدمها. وهذه كلها تنتظم على الشكل التالي :

1 ـ الثلاثي

الصيغة	الرمز	الباب	التعيين	النموذج
فعل :	(ف 1)	فعل ← يفعل		صنع
	(ف 2)	فعل ← يفعل	الثلاثي الصحيح	ضرب
	(ف 3)	فعل ← يفعل		نصر
	(ف 4)	فعل ← يفعل	المضاعف	سر
	(ف 5)	فعل ← يفعل		فر

الصيغة	الرمز	الباب	التعيين	النموذج
	(ف 6)	فعل ← يفعل		وعد
	(ف 7)	فعل ← يفعل	المعتل بالواو	وضع
	(ف 8)	فعل ← يفعل		وجل
	(ف 9)	فعل ← يفعل		قال
	(ف 10)	فعل ← يفعل	المعتل العين	كال
	(ف 11)	فعل ← يفعل		دعا
	(ف 12)	فعل ← يفعل	المعتل اللام	رمى
	(ف 13)	فعل ← يفعل		رعى
	(ف 14)	فعل ← يفعل		أخذ
	(ف 15)	فعل ← يفعل	المهموز الفاء والعين واللام	أدب
	(ف 16)	فعل ← يفعل		رأب
فعل :	(ف 17)	فعل ← يفعل	الصحيح	علم
	(ف 18)	فعل ← يفعل		حسب
	(ف 19)	فعل ← يفعل	المضاعف	عض
	(ف 20)	فعل ← يفعل	المعتل الفاء	ورث
	(ف 21)	فعل ← يفعل		ينس
	(ف 22)	فعل ← يفعل	المعتل العين	خاف
	(ف 23)	فعل ← يفعل	المعتل الام	بقي
	(ف 24)	فعل ← يفعل	المهموز الفاء	أرج

الصيغة	الرمز	الباب	التعيين	النموذج
فعـل :	(ف 25)	فعل ← يفعل	الصحيح	كـرم
	(ف 26)	فعل ← يفعل	المعتل العين	مـات
	(ف 27)	فعل ← يفعل	المعتل الفاء	رسـم
	(ف 28)	فعل ← يفعل	المعتل اللام ؟	سـرو
	(ف 29)	فعل ← يفعل	لمهموز الفاء	أسـل
فعـل :	(ف 30)	فعل ← يفعل	المجهول لجميع الصيغ الثلاثية	مجهول الثلاثي

2 ـ الرباعـي

فعلل :	(ف 31)	فعل ← يفعل	الرباعـي	دحـرج
فعلل :	(ف 32)	فعل ← يفعل	لمهموز الفاء	مجهول الرباعي

3 ـ المنشعبـة

الصيغـة	الـرمـز	البـــاب	التعــــيين	النموذج
	(ف 33)	أفعل ← يفعل		أكـرم
	(ف 34)	فعل ← يفعل		قطـع
	(ف 35)	فاعل ← يفاعل		قـابـل
	(ف 36)	انفعل ← ينفعل		انصرف
	(ف 37)	افتعل ← يفتعل		احتقـر

الصيغة	الرمز	الباب	التعيين	النموذج
	(ف 38)	تفعل ← يتفعل		تفضل
	(ف 39)	تفاعل ← يتفاعل		تضارب
	(ف 40)	أفعل ← يفعل		أحمرّ
	(ف 41)	أفعولن ← يفعولن		اعشوشب
	(ف 42)	أفعول ← يفعول		اجلود
	(ف 43)	استفعل ← يستفعل		استخرج
	(ف 44)	أفعنلل ← يفعنلل		اقعنسس
	(ف 45)	افعنلى ← يفعنلى		
	(ف 46)	فوعل ← يفوعل		حوقل
	(ف 47)	فيعل ← يفوعل	الملحق بالرباعي	بيطر
	(ف 48)	أفعلى ← يفعلى		اغرندى
	(ف 49)	فعلل ← يفعلل		جلبب
	(ف 50)	تفعلل ← يتفعلل		تدحرج
	(ف 51)	أفعنلل ← يفعنلل		احرنجم
	(ف 52)	افعلل ← يفعلل		اقشعر

4 ـ أنواع أخرى

الصيغة	الرمز	الباب	التعيين	النموذج
	(ف 53)	كل فعل جامد لا يتصرف، مثل : بئس ونعم الخ.		ليس
	(ف 54)	الفعل العماد		الفعل العماد
	(ف 55)	أسماء الأفعال، مثل : بله، هيهات، الخ		اسم الفعل

الجدول رقم 3

وللاشارة فان كل الصيغ المرقمة في هذا الجدول تعد صيغا أصلية أي غير محولة، مثل صيغة استفعل التي تحمل الرقم 43 تشير الى الفعل الاصلي كما في :

استغل زيد الفرصة

والتي لا نجد لها في المعجم صيغة أخرى تنحدر منها بتطبيق عملية اشتقاقية معروفة، وكذلك هو الامر بالنسبة لصيغة انفعل وتفعل في هذا الجدول، الخ.

يتضمن كل سطر احالتين : الاحالة الى الصنف التصريفي ويشار اليها بالرقم المصاحب لكل مدخل، والاحالة النحوية ويشار اليها بالرمز النحوي ف. وبهذه الطريقة يجمع هذا المكون بين المعلومات النحوية والمعلومات التصريفية.

وقد أدخلنا في هذا الجدول مفهوما مركزيا أطلقنا عليه اسم الباب ونعني به أن المدخل الفعلي لم يعد محصورا بالزمن الفعلي المفرد، بل أصبح يقوم على الزمنين معا : الماضي والمضارع، مع مراعاة حركة عين الميزان الصرفي الاصلي.

أما السبب في هذا الجمع فقد بنيناه على أن صيغة واحدة لا تكفي لتتبع المسار الاشتقاقي لفعلين لهما نفس الصيغة الفعلية بمعناها التقليدي، مثلا :

ضرب، (ف 2)		ضرب
قرأ، (ف 1)	المصدر	قراءة
حضر، (ف 3)		حضور

حيث يتبيّن أن الانطلاق من الصيغة الفردية وحدها غير كاف لتولية مشتقات متجانسة، وهذا يعقد عملية التوليد الآلي الذي ننشده. وعلى العكس من ذلك فان الارتكاز على مفهوم الباب يمكننا من توجيه التوليد باعتماد خوارزمات بسيطة تقوم على التشفير المحدد في الجدول اعلاه. مثلا :

ضرب (ف 2)

قضم (ف 2)	المصدر	فعل

قرض (ف 2)

وقد أمكن توحيد توليد المصدر من هذه الصيغ بفضل توحيدها في السنن (ف 2). وهذا ما لم يكن ممكنا باعتماد الطريقة التقليدية الممثل لها اعلاه. ويمكن اتباع نفس الطريقة مع سائر الأصناف الفعلية المحددة في الجدول السابق.

بهذه الطريقة تمكنا من بناء قاعدة بيانات للأفعال العربية البسيطة والتي أصبحت معتمدة في جميع أنواع التعامل الآلي مع النظام الفعلي للغة العربية، صرفا وتعرفا آليا وتدقيقا املائيا وكل ما يدخل في باب العلاج الآلي للغة العربية.

ويتضمن برنامج العمل المعتمد تصنيف الأفعال المعربة، والمقصود بالاعراب هنا كل التغيرات التصريفية التي يعرفها المدخل الفعلي، وذلك بهدف الاحاطة بسائر العمليات التي تجرى على المدخل الفعلي تيسيرا لعملية تعرف برامج العلاج الآلي على مكونات النّص اللّغوي المكتوب مشكولا كان أم غير مشكول. وقد سرنا في تركيب هذا المكون في قاعدة البيانات على الشكل التالي : الأفعال المعربة (فعل كتب نموذجا) :

المضارع	الماضي
أكتب، كتب ف 3 : ض 1 ك	كتبت، كتب. ف 3 : م 1 ك
تكتب، كتب ف 3 : ض 1 خ : ض 1 غة	كتبت، كتب ف 3 : م 1 خ
تكتبين، كتب ف 3 : ض 1 خة	كتبت، كتب ف 3 : م 1 خة
يكتب، كتب. ف 3 ض 1 غ	كتبت، كتب ف 3 : م 1 غة
نكتب، تب. ف 3 : ض 2 ك : ض 3 ك	كتبنا، كتب. ف 3 : م 2 ك : م 3 ك،

تكتبان، كتب. ف 3 ؛ ض 2 خ ؛ ض 2 خة ؛ كتبنا، كتب. ف 3 ؛ م 2 خ ؛ م 2 خة ض 2 غة

يكتبان، كتب. ف 3 ؛ ض 2 غ

تكتبون، كتب. ف 3 ؛ ض 3 خ

تكتبين، كتب. ف 3 ؛ ض 3 خة

يكتبون، كتب فعل 3 ؛ ض 3 غ

يكتبن، كتب ف 3 ؛ ض 3 غة

كتبا، كتب. ف 3 ؛ م 2 غ

كتبتا، كتب. ف 3 ؛ م 2 غة

كتبتم، كتب. ف 3 ؛ م 3 خ

كتبتن، كتب. ف 3 ؛ م 3 خة

كتبوا، كتب. ف 3 ؛ م 3 غ

كتبن، كتب. ف 3 ؛ م 3 غة

الأمـــر

اكتب، كتب. ف 3 ؛ أ 1 خ

اكتبي، كتب، ف 3 ؛ أ 1 خة

اكتبا، كتب ف 3 ؛ أ 2 خ ؛ 21 خة

اكتبوا، كتب. ف 3 ؛ أ 3 خ

اكتبن، كتب. ف 3 ؛ أ 3 خة

وقد نفذ هذا الاسلوب حرفيا مع سائر المداخل الفعلية في اللغة العربية، كما تم وضع قواعد خاصة بتوليد المصدر وسائر أنواع المشتقات.

3.3 المداخل الاسمية

تدخل المداخل الاسمية في خانة المداخل المعجمية المفردة، ونقصد بها تلك الكتلة اللغوية المحصورة بين بياضين في النّص والتي تصنف في باب المعمولات Arguments. وهي أنواع، منها العادي والمعرب، والمقصود بالعادي الاسم في صيغته البسيطة الدنيا، في المفرد البسيط غير المسند للضمائر وغير المصرف في أي مستوى لغوي كميا كان أم كيفيا.

لقد تطلب بناء معجم للأسماء تغيير طريقة التعامل مع المداخل المعجمية حيث تم الجمع بين المستوى الصرفي الذي رمزنا له برقم نحدد به الصنف التصريفي للمدخل، والمستوى النحوي الذي تم تعيينه برمز صوري يحدد مقولة المدخل الاسمي. وقد بنيت قاعدة بيانات المداخل الاسمية وفق الطريقة التي نقدمها في الجدول أسفله :

المجموعة	أسماء / صفات	الرقم	العلامة
I	المذكر الذي يجمع جمع مذكر سالما	1	ون / ين
	المذكر الذي يجمع جمع تكسير (قلة)	5 ـ 2	صيغ
	المذكر الذي يجمع جمع تكسير (كثرة)	28 ـ 6	صيغ
II	المؤنث الذي يجمع جميع مؤنث سالما	69	ات
	المؤنث الذي يجمع جمع مؤنث تكسير (قلة)	33 ـ 3	صيغ
	المؤنث الذي يجمع جمع تكسير (كثرة)	55 ـ 34	صيغ
III	أسماء للمذكر والمؤنث	85 ـ 56	X
	المذكر الذي لا مؤنث له من لفظه	86	X
	المؤنث الذي لا مذكر له من لفظه	87	X
IV	أسماء مذكرة لا جمع لها من لفظها	88	X
	أسماء مؤنثة لا جمع لها من لفظها	89	X
V	أسماء مذكرة في الجمع لا مفرد لها	90	X
	أسماء مؤنثة في الجمع لا مفرد لها	91	X
VI	الضمائر	1.5 ـ 91	X
VII	أنواع أخرى	1.6	X
عدد المجموعات الاسمية		1.6	

الجدول رقم 4

يشمل هذا الجدول جميع المداخل الاسمية البسيطة، العادية والمعربة، وكل مدخل اسمي يجب أن يحمل رقما هو عبارة عن سنن code يعتبر

بمثابة المرجع له في المعجم. ويتم استغلال هذا الجدول على الشكل التالي مثلا :

ضابط : ص 43 الذي له جمع من لفظه وهو ضباط (وهي رتبة عسكرية وقد تكون رتبة مدنية أيضا مثل : ضابط الحالة المدنية).

ضابط : ص 43 الذي يجمع على ضوابط (وهي القوانين).
معلم : س 56، رجل تربية وتلقين المعرفة للأطفال،
وردة : س 85، نبات برائحة زكية، وفيه أنواع ... إلخ.

حيث يثبت المدخل الاسمي مرفقا بالرمز النحوي، أي الفصيلة التي ينتمي اليها المدخل، ثم يتبع اجباريا بالسن الذي يبين الصنف التصريفي. ويأتي بعد ذلك الشرح الدلالي الذي يبين الفرق بين المداخل المتجانسة صوتيا مثل ضابط الذي يحتمل أكثر من معنى. ولكل معنى سن خاص حيث يحيل الرقم على النوع والعدد والصنف التصريفي بالإضافة لى التعريف الدلالي، أي تحديد المرجع العام والاستعمالي للمدخل الاسمي.

أما الأسماء المركبة فسيكون لها تنظيم آخر في المعجم، ويمكن الرجوع اليه في أبحاثنا التي نشرناها في مجلة التواصل اللساني. غير أن الذي نشير اليه هنا باستعجال هو أن أغلب الأسماء تنتمي الى صنف التعابير المسكوكة، ويمكن الرجوع اليها في معجم هذه التعابير الذي بنيناه بمساعدة شركة العالمية للبرامج، وهو يضم حوالي 30000 تعبير مسكوك في اللغة العربية بما في ذلك التعابير الفعلية والاسمية وجميع الأسماء المركبة.

أما الصنف السادس والمتعلق بالضمائر بجميع أصنافها في اللغة العربية فقد أسندت لها أرقام تحدد عددها في اللغة، أي ان لكل واحد من الضمائر في صيغته المفردة رقما مقابلا ربما لا يشركه فيه غيره، وقد

شرعنا في الترقيم من الضمائر المنفصلة وعددها 12 مدخلا وهي التي تحتل الأرقام من 94 الى 105. نفس الأسلوب اتبعناه مع أسماء الإشارة والأسماء الموصولة.

هذا، س 106
هذه، س 107
الذي، س 108
التي، س 109
تلك، س 110
الخ

4.3 الحروف والأدوات

الحروف والأدوات في اللغة العربية منتهية، وقد ساعدتنا هذه الخاصية في الاسراع بوضع معجم لضبطها باعتماد تشفير موحد غير تصنيفي، أي ان كل أداة أو حرف يحمل رقمه الذي يحيل اليه لا الى الصنف الذي ينتمي اليه، وذلك لصعوبة تعميم خصائص الأداة أو الحرف على أدوات أخرى يحتمل أن تشترك معها في بعض الخصائص ولو بشكل جزئي. وقد تم تنظيم قاعدة بيانات الحروف والأدوات على الشكل التالي :

الرقم والأداة	الرقم والأداة	الرقم والأداة
1 الهمزة	31 دون	61 لن
2 إذ	32 رب	62 لو
3 إذن	33 رويدا	63 لولا
4 الا	34 سواء	64 لوما
5 الا	35 سوى	65 ما
6 ألا	36 سوف	66 مثل
7 الى	37 على	67 من
8 أم	38 عن	68 مهما

الرقم والأداة	الرقم والأداة	الرقم والأداة
9 أما	39 عند	69 كلا
10 أما	40 غير	70 هل
11 أما	41 الفاء	71 هلا
12 همزة التسوية	42 في	72 هلم
13 أن	43 قد	73 واو العطف
14 أن	44 قط	74 واو الحال
15 أن	45 الكاف	75 واو المعية
16 أنى	46 كان	76 ويح
17 أو	47 كان	77 ويل
18 أين	48 كاين	78 الياء
19 أي	49 كل	79 تاء التأنيث
20 أيان	50 كلا	80 نون المضارعة
21 الباء	51 كم	81 همزة المضارعة
22 بعد	52 كما	
23 بل	53 كيف	
24 بلى	54 اللام	
25 التاء	55 لدى	
26 ثم	56 لدن	
27 حبذا	57 لكن	
28 حتى	58 لكن	
29 حسب	59 لم	
30 حيث	60 لما	

الجدول رقم 5

4 ـ معجم المداخل المركبة

1.4 الأسماء المركبة

الاسم المركب هو المتوالية اللسانية الاسمية التي تتألف من أكثر من مدخل معجمي بسيط من مداخل معجم الأسماء السابق. وهي تتألف

تارة من عنصر مشتق وآخر جامد، وتارة أخرى من عنصرين جامدين. ولم نصادف في بحثنا أي اسم مركب مؤلف من عنصرين اسميين مشتقين.

لا يمكن للبرامج المعدة للتعامل مع المعجم الآلي أن تتعرف على جميع مكونات النّص المكتوب إذا لم يكن هذا المعجم متضمنا لجميع أنواع الأسماء المركبة في اللغة العربية، ذلك أن عددا كبيرا من المداخل المعجمية جاء مركبا بشكل يمنع تناوله مجزأ، مثل :

بصبص الأمل
المثوى الأخير
أحد عشر، وسائر الأرقام المركبة
ذهابا وإيابا
مثنى مثنى

وهي مداخل غير قابلة للتجزيء لأنها تشكل في أغلبها مداخل مسكوكة، وبالتالي تتطلب وصفا صرفيا آليا من نوع خاص. هذا الوصف الذي قد لا يفيد معه الأسلوب العلاجي الصرفي المتبع لحد الآن مع المفردات البسيطة، فهي لا تدخل في أي من التصنيفات الخاصة بأقسام الكلم كما حددناها أعلاه : الاسم والفعل والصفة والظرف والحروف والأدوات. بل هي تتأسس في الغالب من أكثر من قسم من أقسام الكلم : يبين الاسم والصفة بين الاسم والاسم، بين الاسم والحرف والاسم أو الصفة ... الخ. ولهذا كان من الطبيعي أن يخلق هذا الوضع صعوبات أمام المعالجة التقليدية التي عملت بها الدراسات اللسانية الحاسوبيّة لحد الآن، ومن هنا كان من الضروري ادخال مفاهيم وصفية اجرائية جديدة تتلاءم مع هذه الوضعية الجديدة في الوصف.

إن الامر يدعو الى الجمع بين نوعين من الوصف : الاهتمام أولا بالوضع المورفولوجي للعناصر التي يتألف منها الاسم المركب، ثم ثنايا وصف وضعيته الجديدة التي أنشاها منه نظام العربية. خاصة وأن الاسم المركب يجمع في الغالب بين فصيلتين من الأسماء. هذا الجمع يعني أن الاسم المركب يتألف من أكثر من فصيلة صرفية أيضا.

يتكون الاسم المركب من متوالية من المفردات البسيطة، ومن المفروض أن تكون هذه المفردات كلها موجودة في معجم المفردات البسيطة السابق، وهذا يعني أن الاسم المركب يتكون ليس فقط من متوالية من المداخل، بل وأيضا من متوالية من البياضات الفاصلة بين كل مدخل بسيط، وهذا يتطلب معالجة خاصة تأخذ في الاعتبار هذا المظهر المركب من وجهة نظر تقنية. ولن نكتفي بتوظيف تقنيات الوصف المستخدمة في قاعدة بيانات الأسماء البسيطة، ذلك لأن لكل معجم طريقته في التصنيف. فإذا كان المعجم السابق يقوم على طريقة التصنيف التي تجمع بين الترقيم الصرفي، والاحالة النحوية، فإن هذا المعجم يقوم على أسلوب آخر في ترتيب المعلومات.

وعلى الرغم من أن معجمنا السابق، على غرار المعاجم الآلية في مختلف اللغات، لم يهتم الا بالشكل الخارجي للمفردات، أي الجانب التصريفي، فاننا سنضطر هنا للاستعانة ببعض التقسيمات التركيبية. مثلا تحديد العلامات التعريفية المختلفة التي تظهر مع العناصر المؤلفة للاسم المركب، وبالتالي إسناد الرمز المناسب لكل صنف من الأسماء المركبة.

إن استدعاء المستوى التركيبي في عملية الوصف المورفولوجي ستمككنا فعلا من إقامة تصنيف مورفو - تركيبي لهذه المركبات. كما أننا،

وبفضل هذا المستوى، سنتمكن من اقامة هذه الأصناف التي ستسير عملية ضبط هذا المعجم وبالتالي عملية بنائه بالشكل الذي سيستجيب به للعلاج الآلي المتوخى من هذا العمل.

وقد تم تحديد الأصناف على الشكل المؤقت التالي :

1 ـ المركبات المأخوذة من اللغات الأجنبية
2 ـ الأعداد المركبة
3 ـ الأعداد المركبة
4 ـ المصطلحات العلمية المركبة
5 ـ ص س
6 ـ س ص
7 ـ ح س ح س
8 ـ س ح س
9 ـ س س
10 ـ س ظ
11 ـ ظ س
12 ـ أشكال أخرى

هذه كلها بنيات صورية تصنف فيها الأسماء المركبة في اللغة العربية، ويمكن تقسيم كل صنف كبير من هذه الأصناف الى أصناف صغرى مما يسهل عملية المعالجة الآلية. يبقى علينا البحث عن التواليات المناسبة في الاستعمال العادي للغة العربية، مع التجنب ما أمكن للمهمل منها.

الأسماء المركبة على نوعين :

1 ـ أسماء مركبة تكون مسكوكيتها جزئية، وخاصة تلك التي تأتي على شكل مركب اضافي، مثل :

علامة المرور

غرفة النوم

حيث يتكرر الاسمان : علامة وغرفة مع مجموعة من المركبات الاسمية : علامة النجاح، غرفة العمليات، الخ. في حين أن المضاف اليه يتغير، وهو مع كل مدخل جديد يؤدي الى خلق اسم مركب جديد وبمعنى جديد.

2 ـ ثم المسكوكة كليا، ويكون الاسم المركب مسكوكا إذا استحال ربطه بجملة، في هذه الحالة فاننا نعتبره مدخلا معجميا موحدا رغم فاصل البياض الموجود بين مكونيه جامدين كانا أم مشتقين. ويتميز الاسم المركب المسكوك كليا بظاهرة اللاتأليف non compositionnalité، أي عدم الانسجام بين شكله ومضمونه : المفردة في المعجم العادي تعني شيئا وفي الاسم المركب تعني شيئا آخر. كما يتميز هذا النوع من المركبات الاسمية برفضه الاستجابة للاستبدال، حيث تبقى عناصره صامدة في وجه أي تغير تركيبي.

ومن خصائص الاسم المركب أنه يقع في الغالب موقع المفعول، وهو بذلك يبتعد عن منطقة التطابق مع الفعل، ولعل هذا هو السر في عدم اهتمام المعجميين العرب به، فهم غالبا ما كانوا يهتمون بالمداخل العمد في التركيب، بينما تبقى الفضلات في الدرجة الثانية.

لقد تجنبنا تناول الأسماء المركبة المعروفة بالمحمولات الدلالية، والتي تولد بالفعل العماد، وذلك لدخولها في عملية تحويلية يطلق عليها التوسيم nominalisation. لكننا أدرجنا في هذا المعجم الأسماء المركبة الحملية المستقلة، وهي تلك التي لا تعرف لها أصلا جمليا مقبولا في الاستعمال، وهي التي أطلقنا عليها الأسماء المحمولات المستقلة، مثل :

أثار زيد حفيظة علي

حيث لا نجد للمركب : حفيظة علي أي أساس فعلي مستعمل في العربية. هذا على الرغم من وجوده في المعاجم العربية (انظر على سبيل المثال لسان العرب مادة حفظ).

تختلف المركبات الاسمية المسكوكة عن غيرها بانعدام إمكانية إدماج أي عنصر بين مكوناتها :

أخماسا في أسداس

لكن : أخماسا X في أسداس

خلافا للأسماء المركبة غير المسكوكة أو المسككة جزئيا، مثل :

علامة المرور

العلامة الخاصة بالمرور

باختصار، أن الأسماء المركبة غير متجانسة في تكوينها وفصيلتها التركيبية، ومن ثم يصعب تقديم وصف موحد لا، خاصة وإننا نرغب في وصف ما يمكن تصنيفه بسهولة وترك ما عدا ذلك. إن المعجم الذي ننجزه عن مفردات اللغة العربية يجب أن يشمل كل أنواع المفردات المستعملة بدون استثناء.

تقسم الأسماء المركبة الى أصناف توزيعية تقوم على متوالية الرموز التي يتألف منها كل صنف مع مراعاة الفاصل الموجود بين مكونات كل صنف، وذلك بوضع علامة

خاصة مكان البياض على الشكل التالي :

تع / س / تع / ص	ص / تع / س
ال / قيمة ال / مضافة	بصيص / ال / امل
ال / قرض / ال / فلاحي	طويل / ال / نجاد
عملية / انتحارية	كثير / ال / رماد
مولد / كهربائي	

حيث أن العلامة (/) تعوض الفاصل الموجود بين المفردات البسيطة. وهكذا يقسم معجم المفردات المركبة الى ملفات تختلف في شكلها باعتمادها الرموز المؤلفة لكل صنف. ويمكن تقسيم كل صنف كبير الى

أصناف صغرى، وبذلك يشمل الوصف كل الجزئيات المتعلقة بمداخل هذا المعجم.

أما إعراب الأسماء المركبة فيتم التعامل معه بشكل ينسجم مع طبيعته التي يتكون بها، حيث لن يتم التعامل الصرفي إلا مع الجزء الأول من هذه الأسماء، لأنه هو العمدة فيه، من حيث أنه يتحمل الوظيفة التركيبية توزيعيا. أما بقية الأجزاء منه فتتبع رأس الاسم المركب في جميع العمليات التي تطرأ عليه مثلا :

القدرة الشرائية

يجمع من هذا المركب فقط رأسه، حيث نقول :

القدرات الشرائية

ولكنه لا يثنى في الاستعمال العربي الفصيح، كما أنه لا يذكر، وعليه فان التغيير الوحيد الذي يعرفه هذا الاسم المركب هو فقط في الجمع، وهذا يتعلق بأحد عناصر هذه المتوالية دون بقية العناصر.

ونشير الى أن دراستنا للتعابير المسكوكة في اللغة العربية أبانت عن تقليص دور المستوى التصريفي في الاسماء المركبة، حيث أن أغلب الأسماء التي تدخل في هذه التعابير لا تقبل تصريفا آخر غير الجمع الا نادرا، ويزداد هذا التقليص في التعامل مع الجداول التصريفية في الأسماء المركبة كليا كما في المثال اعلاه، بل هناك أسماء مركبة ترفض رفضا باتا أي تحرك تصريفي، مثل :

حيص / بيص لكن : * حيص (جمع / مثنى / تصغير) بيص

شذر / مذر لكن : * شدر (جمع / مثنى / تصغير) مدر

ولهذا فان امكانية توليد معجم معرب للمفردات المركبة انطلاقا من معجمها العادي تقل بشكل كبير مقارنة مع معجم المفردات البسيطة المعربة.

5 ـ المدخل المعجمي في قاعدة بيانات التراكيب

تدخل هذه القاعدة في باب المداخل المعجمية المركبة في مقابل المداخل المعجمية البسيطة، وقد وضعنا التركيب الى جانب المركبات الاسمية لاعتبارات معجمية نظرية تم شرحها في الاطار اللساني اعلاه.

تتضمن هذه القاعدة معجما من التعابير اللغوية العادية والمسكوكة. وقد تم حصر التراكيب اللغوية على أساسين لسانيين : توزيعي وتحويلي (اشتقاقي)، وهو ما أدى الى خلق مكونين تركيبيين أحدهما مخصص للبنيات الأساسية والثاني مخصص للبنيات المحولة أو المشتقة. ولما كانت التراكيب اللغوية على نوعين : عادية ومسكوكة فقد خصصنا حيزا هاما في معجمنا الآلي لهذا النوع من التعابير الذي يمثل نسبة 40 % من مجموع الرصيد اللغوي العربي.

1.5 البنيات الأساسية :

والمقصود بها البنيات التي تتطلب الحد الأدنى من العناصر الأساسية لتكوين بنية لغوية قابلة للتواصل. وهي على الشكل التالي :

(1) ف س.

(2) ف س.س 1

(3) ف س. ح س 1

(4) ف س. س 1 ح س 2

(5) ف س. ح س 1 ح س 2

هذه البنيات الخمس تتفرع الى عدد من البنيات الصغرى ليصل بذلك عدد البنيات الى أكثر من عشرين بنية أساسية في اللغة العربية، أما أساس هذا التفريع فيقوم على اختلاف حروف الجر التي يفرضها الاطار التوزيعي لبعض البنيات. هكذا اذن ارتفع عدد البنيات وارتفعت معه الخريطة التوزيعية للغة العربية. وللاشارة فان عدد البنيات التي تم حصرها بهذا القانون التوزيعي وصل لحد الآن 23000 بنية أساسية عربية.

2.5 البنيات المحولة أو المشتقة :

والمقصود بها الجمل التي تنتج عن تطبيق مختلف العمليات اللسانية فتؤدي الى توليد جمل مختلفة شكلا عن البنيات الأساسية لكنها مترادفة معها دلاليا.

ويدخل تطبيق هذه العمليات في البرنامج اللساني / المعجمي الهادف الى عدم الاكتفاء بالجمل الواردة في المتن اللغوي الموجود، بل أن هذا النهج يتعارض تماما مع مفهوم المتن من حيث أنه يعتمد في تكوين المتواليات اللسانية على الحدس اللغوي للمتكلمين باللغة الطبيعية. وهذا يفرض تطبيق مختلف العمليات اللسانية التي تنتج هذه المتواليات، وهي :

أ) البناء المقلوب، وفيه ثلاثة تطبيقات، وهي :

1 ـ المقلوب الصوتي، وهو غالبا ما يكون المرادف التركيبي للبناء المجهول، كما في :

ضرب المعلم التلميذ
= ضُرب التلميذ

2 ـ المقلوب المطاوع، ويتم بادماج أحد أحرف المطاوعة في المادة الفعلية، إلا أنه لا يقبل التطبيق بنفس الطريقة على جميع المداخل الفعلية في اللغة العربية، مثلا مادة (ض ر ب) التي اتخذناها نموذجا لا تقبله، فلا يقال :

ضرب المعلم التلميذ
= انضرب التلميذ

لكن هذه العملية تلغى مع عدد من المداخل الفعلية، التي تقبل أنواعا أخرى من التطبيقات.

3 ـ المقلوب التوصيفي، ويتم تطبيقه بتوظيف صيغة إسم المفعول، مثلا :

ضرب المعلم التلميذ
= التلميذ مضروب

ب) البناء التوصيفي، والمقصود به نقل البنية من الصيغة الفعلية الى صيغتها الوصفية، مثل :

ضرب المعلم التلميذ
= المعلم ضاربٌ التلميذ

ولهذا البناء تطبيقات عديدة لا تسمح المادة التي اخترناها كنموذج باستغلال جميع امكانياتها التركيبية.

ج) التوسيم، ويتم بطرق متعددة، أبرزها التوسيم بالفعل العماد، مثل :
ضرب المعلم التلميذ

(1) = قام المعلم بضرب التلميذ
(2) = وقع ضرب المعلم علي التلميذ
(3) = حصل للتلميذ ضرب من المعلم
... الخ.

هذا بالإضافة الى نقل الفعل ضرب من خانة الأفعال العادية الى خانة الأفعال العماد، مثل :

وعد زيد عليا

= ضرب زيد موعدا لعلي

ضرب في هذا المثال فعل فارغ لا يحمل أي دلالة معجمية، حيث أنه لم يغير دلالة الجملة الأساسية.

د) التهيكل، ويطبق على المركبات الإسمية التي تحتل وظيفة الفاعل أو المفعول في البنية الأساسية، مثل :

ضرب زيد (رأس علي) 1

= ضرب زيد (عليا) 1 (في رأسه) 2

حيث ينشق المفعول به المركب في البنية الأولى الى مفعولين في البنية الثانية دون أدنى تغيير في الدلالة.

هـ) عمليات تركيبية تعلق بالمصدر المؤول الذي يحتل وظيفة تركيبية مركزية في الجملة، مثل :

يفرح عليا أن يسافر الى الصين

= يفرح عليا السفر الى الصين

= يفرح عليا أنه سيسافر الى الصين

= يفرح عليا كونه سيسافر الى الصين

... الخ.

وهي عمليات تركيبية تؤدي الى تغيير الوظائف الإسمية شكلا لا معنى.

يشار الى هذه العمليات كلها برمز (ع) متبوعا بالرقم المناسب لكل عملية، وقد رقمت على الشكل التالي :

(ع 1) : البناء المقلوب، وهو يتفرع الى :
(ع 1 ص) : بناء مقلوب صوتي
(ع 1 ط) : بناء مقلوب مطاوع
(ع 1 و) : بناء مقلوب وصفي

(ع 2) : البناء التوصيفي، وفيه أنواع.

(ع 3) : بناء التوسيم، وفه أنواع متعددة، مثلا :
(ع 3 فع) : التوسيم بالفعل العماد.
(ع 3 مق) : التوسيم المقلوب.
(ع 3 و) : التوسيم بالتوصيف.

(ع 4) : البناء المتهيكل، وفيه أنواع.
(ع 5) : العمليات المتعلقة بالمصدر المؤول.

أما الأبنية الأساسية المشار اليها اعلاه فستشفر هي الأخرى كما يلي :

(ب 1) : ونعني به البنية الأساس اللازمة في الترتيب السابق.

(ب 2) : والمقصود بها البنية الثانية في الترتيب السابق.

أما باقي البنيات الأساسية في الجدول السابق فتتفرع الى بنيات أساس صغرى، وذلك بحسب نوع حرف الجر الذي تتضمنه. وعددها محدد بعدد حروف الجر التي تسبق مختلف المفاعيل في اللغة العربية. وحل هذا الأشكال لجانا الى وضع جدول شامل بهذه الحروف.

6 ـ المداخل المعجمية المسكوكة

تتضمن هذه القاعدة نوعا خاصا من التعابير في اللغة العربية يطلق عليه التعبير المسكوك، ويتميز بمجموعة من الخصائص الصورية في المستوى والتي نجملها كما يلي :

1) يتضمن التعبير منطقة معتمة لا تستجيب لقوانين التجزئ التي تتبع عادة في تحليل الجمل لسانيا.

2) معناها غير تأليفي، أي لا يعتمد على المعجم في تحديد دلالة التعبير المسكوك.

3) ضعف أو استحالة استبدال عناصره بعنصر آخر ولو كان من نفس الفصيلة التوزيعية.

يتضمن كل تعبر مسكوك منطقة معتمة غير قابلة للتفكيك، وهذه المنطقة تتألف اجباريا من أكثر من مكون لغوي بسيط، فهو يكون في الغالب مؤلفا من فعل مسكوك مع أحد معمولاته الاسمية جامدة كانت أو مشتقة. وقد قمنا ببناء قاعدة بيانات بهذه التعابير باعتماد نظام الترميز المتبع في بناء قواعد البيانات الأخرى. بالاضافة الى أن كل تعبير يحمل رقما تسلسليا من 1 الى 30000، وقد حصرت المنطقة المعتمة في كل تعبير بعلامتين كدليل على أن ما بينهما مدخل اسميّ مركب غير قابل للتفكيك. كما صنفت هذه التعابير بحسب بنياتها التركيبية التي صممت لها خصيصا في جدول الهياكل والأطر التركيبية التي توصلنا اليها في إطار البحث الذي نجريه على نظام المعجم التركيبي للغة العربية. وهكذا خصصنا كل تعبير بأحد الهياكل التالية :

ف (مس)[1]

ف س. (مس 1)

ف س. (ح مس 1)

ف س. (مس 1 ح مس 2)

ف س. (ح مس 1) (ح مس 2)

---

(1) يرمز حرف (مس) الى العنصر المعتم (Opaque) في التعبير المسكوك. والرقم الذي يلحق به يشير الى وظيفة العنصر في التعبير.

وهي الهياكل التركيبية الرئيسية التي تؤطر البنيات الأساس المسكوكة في اللغة العربية، كل واحدة منها قابلة للتفريع الى بنيات صغرى، وذلك بحسب نوع حرف الجر الذي يتركب مع أحد مكونات البنية الأساس المسكوكة وبحسب الطبيعة التوزيعية للعناصر الاسمية. هذا بالاضافة الى تنوع البنيات المسكوكة الى وصفية وظرفية ومطاوعة، الخ. وقد حدد كل نوع بالخاصية التركيبية التي جاء عليها. ولا تتضمن قاعدة البيانات هذه الا التعابير غير المحولة، كما تم بناء خوارزمات خاصة بتطبيق مختلف العمليات التركيبية بهدف توليدمختلف الجمل المحولة، مثل البناء التوصيفي والمتهيكل والموسم، الخ. وتطبيق هذه العمليات سيتجاوز عدد التعابير المسكوكة المائة ألف تعبير.

ان بناء قاعدة بيانات خاصة بهذه التعابير أصبح اليوم ضرورة ملحة في ضوء التطور الذي عرفته اللسانيات الحاسوبية العربية، فهي تساهم في حل قضايا كثيرة تتعلق بالعلاج الآلي والتعرف الآلي على الكلام البشري. ومن المشاكل الأساسية التي يمكن أن يساهم هذا النوع من التعابير في حلها مشكل الترجمة الآلية، وسوف نقف عند جزئية الترجمة الآلية بين اللغتين العربية والفرنسية. لننظر في التعابير التالية :

تفرق القوم أيدي سبا
ذر الرماد في العيون
سحب البساط من تحت قدميه
لقي فلان حتفه
تفرق القوم شذر مذر
تفرق القوم طرائق قددا
كبح فلان جماح فلان
صب فلان جام غضبه على س

شدّس الرحال الى ظ
باءس بالفشل
يرقم س على الماء
ضرب س أخماسا في اسداس
حفظ س الشيء عن ظهر قلب
عض س على س بالنواجد
قلب س لـ س ظهر المجن

ان البحث عن مرادفات هذه التعابير في اللغة الفرنسية لا يعدو أن يكون نوعا من التخمين والظن. ذلك اننا مهما حاولنا لن نتمكن من العثور على نفس التعابير في اللغتين معا. والسبب هو أن كل لغة تتضمن مخزونها الخاص بها من هذه التعابير، لكن هذا لم يمنعنا من التجريب. وقد توصلنا الى ما يلي، مثلا :

لقي فلان حتفه	N'a cassé sa pipe
فقد س صوابه	N'a perdu sa sagesse
سمم س الاجواء	N'a empoisonné l'existence de qqn

ان المحتوى المعجمي العادي لكل تعبير يختلف تماما من لغة الى اخرى، ولا نكاد نجد نفس المفردات في اللغتين. وسنحاول تقديم الترجمة الحرفية للتعابير الفرنسية لنتبين عدم جدوى الاعتماد على المعجم في هذه العملية.

N'a cassé sa pipe تترجم حرفيا : كسر س غليونه

ولا نجد أي مدخل مناسب للمعنى المراد بالتعبير الفرنسي : مات س.

وهذا يؤكد على ضرورة الاعتماد على قواعد البيانات اللغوية الخاصة بهذه التعابير، وهو ما يضعف الاعتماد على النظريات التي تحاول توظيف الاستدلال اللغوي في بناء برامج الترجمة الآلية. كما يؤكّد على سلامة النّهج اللساني الذي يدعو الى الاعتماد على تراكم المعطيات، عوض أسلوب التمثيل اللساني المجرد.

ونشير الى أن فريقا من الباحثين ينكب حاليا على ايجاد المقابل الفرنسي والانجليزي للتعابير المسكوكة العربية التي جمعناها في قاعدة بيانات تضم لحد الآن أكثر من 30000 تعبير مسكوك. ونتوقع أن يكون هذا العمل جاهزا بعد سنوات قليلة إن توفرت الامكانات المادية والأدبية لذلك.

كما أننا بصدد تصميم برنامج خاص بالتعرف الآلي على هذه التعابير وتميزها عن التعابير العادية في النصوص العربية سواء كانت مشكولة أم غير مشكولة. وقد انطلقنا عليه اسم FIG وقد قدمنا التجربة الأولى عن هذا البرنامج في مؤتمر الدار البيضاء في شهر ديسمبر 1993.

ومن أهداف وضع هذا البرنامج أن يسهم بشكل كبير في وضع برنامج فعال خاص بالتدقيق الاملائي والتشكيل الآلي، لكنّ أهميته ستتجلى أكثر في بناء برامج خاصة بالترجمة الآلية أو الترجمة بالحاسوب.

وقد شرعنا في التنسيق مع باحثين أجانب بنوا قواعد بيانات خاصة بهذه التعابير في اللغات الأجنبية، وخاصة الفرنسية والاسبانية والانجليزية. ويتمثل الهدف الاساسي من هذا التنسيق في وضع برامج موحدة تؤهل لبناء برنامج متكامل للترجمة الآليّة على المستوى الدولي.

7 - نتائج البحث

يدخل هذا العمل في مشروع علمي كبير الهدف منه بناء معجم آلي عربي يتضمن جميع المستويات اللغوية، وذلك لتسير وضع برامج حاسوبية تمكن الانسان العربي من التحاور مع الآلة. ومن الأهداف الرئيسية لهذا العمل المساعدة على تطوير برنامج الترجمة الآية والتدقيق الاملائي، والنحوي، وكذا التعرف على مكونات النّصوص العربية واشتقاقها، سواء كانت مداخل بسيطة أو مركبة.

وقد ركز البحث على مفهوم المدخل المعجمي التي تبين أن تحديده ليس عملية سهلة، فهو يحتاج الى معرفة لسانية عميقة بالنشريات اللسانية بله المعرفة المتمكنة بالنظام اللغوي العربي. وقد اتضح من خلال هذا البحث أن توظيف الأدوات المعلوماتية معزولة عن المعرفة اللسانية لن يقود الا الى التجريد، كما أن اعتماد اطار لساني غير تجريبي لن يتمكن من تحديد هذا المفهوم، ولذلك لجأنا الى نظرية ومنهج صوري قوامه التجربة لانجاز هذه المهمة العلمية الدقيقة،، وهو اطار يجمع بين البعدين اللساني والحاسوبي في معالجة أنظمة اللغات الطبيعية.

اعدّت البيانات الموسوعية على شكل طبقات لغوية بينها تداخل، بحيث يمكنها أن تتعامل فيما بينها بشكل تسلسلي، سواء من المدخل البسيط الى المركب أو العكس. كان نشرع من البحث في معجم الاسماء لنصل الى معجم الجمل بمختلف أنواعها، أو أن نشرع من البحث في الجمل لننزل بالبحث الى المفردات البسيطة عادية كانت أم معربة.

ان وضع قاعدة البيانات بهذه الطريقة من شأنه تيسير وضع برامج الترجمة الآلية، وقد بنيناها بشكل يستجيب لكل المتطلبات التي تسمح بالتعامل مع قواعد بيانات سبق وضعها في اللغات الأجنبية، وخاصة تلك التي بنيت في اللغة الفرنسية في مختبر العلاج الآلي والتوثيق اللساني

LADL في باريس، وهي نفس القاعدة التي يستغلها برنامج الترجمة الآلية للسوق الأوروبية المشتركة EUROTRA. فقد وظفنا نفس التقنيات المعتمدة في هذين المشروعين، وذلك تيسيرا لادخال اللغة العربية الى هذا المشروع الدولي الكبير. وقد ساعدنا عملنا المشترك مع هذين المشروعين على تحسين وضع قاعدة البينات العربية عامة، والتعابير المسكوكة خاصة، حيث تبين أننا نلاقي جميعا نفس الصعوبات في الترجمة الآلية، وخاصة تلك التي تتعلق بترجمة التعابير المسكوكة ي اللغتين. ومن هنا اضطررنا الى تبني سنن code موحد وطريقة موحدة.

من نتائج هذا العمل كذلك أنه سيمكننا من صناعة برنامج حاسوبي يتعلق بالتدقيق الاملائي للنصوص المحررة بالعربية غير المشكولة، ويتعلق الامر ببرنامج يتعرف على سائر مفردات النصوص العربية، وخاصة الأسماء المركبة التي تقف غالبا في وجه أي اشتقاق صرفي أو تصريفي من نوع :

[أخماسا في أسداس] [شذر مذر] [أهلا وسهلا]

حيث يمكن للبرنامج تصحيحها بكل يسر أن أصابها خطأ في الطبع. هذا بالاضافة الى إمكانية تصحيح كل المفردات العربية البسيطة (انظر الحنّاش 1992).

المراجع العربية

- د. الحناش محمد، (1985) : النحو التأليفي. مجلة دراسات أدبية لسانية ع. 1.
- د. الحناش محمد (1989) : المعجم الالكتروني للغة العربية، مؤتمر الكويت الأول للحاسوب، مارس 1989
- د. الحناش محمد، (1989) : الاشتقاق التركيبي في اللغة العربية، المؤتمر الثاني حول اللغويات الحسابية العربية، الكويت نوفمبر 1989
- د الحناش محمد (1990) : مشروع نظرية حاسوب ـ لسانية في بناء معاجم آلية للغة العربية، مجلة التواصل اللساني، المجلد الثاني ع. الثاني.
- د. الحناش محمد (1991) : ملاحظات حول التعابير المسكوكة في اللغة العربية مجلة التواصل اللساني، المجلد الثالث، العدد الأول والثاني.
- د. الحناش محمد، (1992) : المعجم التركيبي للغة العربية : مقدمات في المعالجة الآلية للغة العربية (تحت الطبع) في جزأين، منشورات التواصل اللساني.
- الزجاجي بن أسحق : كتاب حروف المعاني، تحقيق د. على توفيق الحمد، ط مؤسسة الرسالة / دار الامل، الاردن.
- د. عباس أبو السعود، (1971) الفيصل في ألوان الجمع، ط. دار المعارف بمصر.
- د. مراياتي محمد وآخرون، (1989) : نظام اشتقاق الكلمة العربية بالحاسوب، وقائع ندوة اللسانيات العربية والاعلامية، تونس 1987.
- الميداني أحمد بن محمد : نزهة الطرف في علم الصرف، تحقيق لجنة أحياء التراث في دار الآفاق الجديدة بيروت.
- د. نبيل علي، (1988) : اللغة العربية والحاسوب (دراسة بحثية)، الكويت 591 ص.
- د. يحيى هلال (1990) : العلاج الآلي للعربية، مجلة التواصل اللساني المجلد الثاني، العدد الثاني.

المراجع الأجنبية :

- Blandine C. & Silberztein M, Les dictionnaires électroniques DELAS et DELAF, in Linguistica Communicatio; Vol 1, N° 1 1989.

- Danlos L. & Gross M. (1988) : Bulding electronic dictionaries for natural lanuage processing, in programming of generation computers II:

- Harris Z. S. (1974) : Notes du cours de syntaxe, Larousse Paris.

- Gross M. (1975) : Méthodes en syntaxe, Hermann Paris.

- LADL (1989) : Dictionnaire électronique du LADL pour les mots simples du français DELAS V.05.

- Silberztein M. (1990) : Les dictionnaires électroniques et reconnaissance lexicale automatique; Thèse de doctorat en informatique fondamentale présentée à l'Université de Paris 7.

الألوان في اللغة والأدب

بقلم : **الصادق الميساوي**

كان الانسان مذ كان بالألوان مفتونا ... سحره إشراق النقبة[1] وتلألؤها وملكه بهاء النّجر وتألّقه وولّهه بريق الحَبْر ورفيفه ... أبصر اللون ثمّ رآه وشهده ثم تراءاه وتأمّله ثمّ تملاّه فاتّخذه في الرّسم وشيا وفي القول بيانا وفي النّسج طرائق وأفنانا. لا ينفصل اللون عن «الثقافة» وإنّما هو منها. تُشكّله ضروبا وتؤلّفه أجناسا : تستحسن بعضه فترتضيه وتستقبح بعضه فلا تبتغيه بل إنها قد تضرب صفحا عن بعضه فلا ترتئيه.

وليست «الأمم» في «الألوان» على مذهب واحد وسنّة وحيدة وإنّما النّاس في إدراك اللون متباينون وفي الموازنة مختلفون تجري أمورهم على أصلين فأمّا الاصل الأوّل : فلون البشرة والجلدة[2].

إنّه منشأ إدراك الذات بما هي ذات ... فحين أدرك الانسان لون بشرته أدرك ذاته. فإذا هو موجود بما هو لون وسحنة وسيماء : لونه

---

(1) انظر : ابن سيده : المخصص السفر II ص 103 ـ 112 ط 1 بولاق 1317 هـ.

(2) ZAHAN; D; L'homme et la couleur, dans «Histoires des mœurs» TI pp 115-180 Encyclopédie de la Pléiade. Paris 1990.

ذاته وذاتُه لونه ... بل إنّ لون الجلدة كان منشأ الإحساس بالجمال فما الجمالُ الاّ جمالُ الجلدة ... هو عيار الحسن الإنساني والكمال البشري ...

فأهل الصّين جعلوا الصفرة أمّ الألوان ... هي لون الأرض ... وهي في مركز الكون حيث ينتصب عرش السّلطان الاكبر ابن السماء ... تنتظم الألوان حولها ؛ فللسّواد الشّمال وللحمرة الجنوب وللخضرة الشرق وللبياض الغرب ... هي لونُ القلب. توافق من الطيّب نَفْحه ومن الطّعم حلوه[2].

أمّا السّودان فوجدوا في السّواد كمالا ليس كمثله كمال ؛ فهو «مقرون بالشدّة والصّرامة والهيج والحركة»[3] وليس لونٌ أرسخ في جوهره وأثبتُ في حسنه من سواد[3] هو لون الغالية وهي أطيب الطّيب وأفخره وأكرمه[4].

والسودان «أهول في الصّدور وأملأ للعيون»[5]. ودُهم الخيل أبهى وأقوى والبقر السّود أحسن وأبهى ... وأكرم ما في الا نسان حدقتاه، وهما سودوان وأكرم الأكحال الا ثمد وهو أسود ولذلك جاء أنّ الله يدخل جميع المؤمنين الجنّة جردا مردا مكحّلين[5].

بل إن لونَ البشرة هو كمال الكائن من حيث هو كائن ... «فليست العقولُ والقرائح والآداب والشمائل الاّ باللون. كان النَّظّامُ يقول : «إنّ الأمّة التي لم تنضجها الأرحامُ ويخالفون في ألوان أبدانهم وأحداق عيونهم

(3) الجاحظ : كتاب فخر السودان على البيضان ضمن رسائل الجاحظ 1 ـ ص 206 تحقيق عبد السلام هارون. القاهرة بدون تاريخ.
(4) فخر السودان ص 202.
(5) فخر السودان ص 203.

وألوان شعورهم سبيل الاعتدال لا تكون عقولهم وقرائحهم إلاّ على حسب ذلك. وعلى حسب ذلك تكون أخلاقهم وآدابهم وشمائلهم وتصرّف هممهم في لؤمهم وكرمهم لاختلاف السبك وطبقات الطّبخ وتفاوتٌ ما بين الفطير والخمير والمقصّر والمجاوز ... كالتّفاوت بين الصقالبة والزّنج[6].

بل إنّ الرسالات والنبوءات ليست الاّ بالألوان : «ولم نقف على خبر بعثة في الأقاليم الجنوبيّة ولا الشمالية وذلك أنّ الأنبياء والرّسل إنّا يختصّ بهم أكمل النّوع في خَلقهم وأخلاقهم ... أمّا السودان ... فإنّهم يسكنون الكهوف والغياض ويأكلون العشب ... وهم متوحشون غيرُ مستأنسين يأكل بعضهم بعضا وكذا الصقالبة[7].

وأمّا الأصل الثاني : فمصادر الألوان في الكون ... وهي عديدة متعدّدة تختلف باختلاف البيئات والبلاد والأقاليم ولكنّ أعظمها شأنا في إدراك الألوان وتمييزها إنّما هو اختلاف الليل والنّهار وما بينهما من فجر وسحر وسدفة وشفق[8].

فللّيل الظلمة والسّواد وللنّهار الضياء والبياض وللنجوم والكواكب الاشراق والحمرة. والنّاس من بعد مختلفون فمنهم من ينظم الألوان مثنى : بياضا ـ سوادًا أو بياضا حمرةً ثمّ يزيد عليها لونًا لونًا ومنهم من ينظمها ثلاثة : حمرة وبياضا وسوادا ثمّ هو يعود بالالوان الأخرى الى هذه ... فهو يختصر ما يرى من الألوان لونا فلونا حتّى يُرجع جميع ما يرى الى تلك الثلاثة. فقوم الـ «بَامْبَارا» (Bambara) وهم من بلاد «مالي»

(6) الجاحظ : كتاب الحيوان ج 5 ص 35 ـ 36 تحقيق عبد السلام هارون ط 3 ـ بيروت 1328 هـ ـ 1969 م.

(7) ابن خلدون : المقدّمة : في المعتدل من الأقاليم والمنحرف ص 76 ـ 77 كتاب الشعب. القاهرة بدون تاريخ.

(8) انظر فصل : ليل ونهار في دائرة المعارف الاسلامية. الطبعة الجديدة بقلم شارل بلاّ.

يجعلون من «الأشياء» الخضراء والزرقاء ذات لون أسود ويرون «أشياءهم الصفراء الفاقعة و«البرتقالية» حمراء. أمّا الأصفر فيرونه أبيض[9].

فكيف تنتظم الألوان. ألوانُ العرب وما دلالاتها ؟

لقد اهتم بعض الباحثين[10] بألوان العرب وخاضوا في دلالاتها فانتهوا الى ما يلي :

البيــاض

بوحديبــة :	مورابيا :	عجينـة :
- لونا اللين والمحبّة والحكمـة والعلـم والمعـرفـة متـى اقتـــرن ذكـــره بالشيب	لون الوضوح والوفاء والملك والنقـاء والسـرور والعفّـة والبكارة	لون اقترن بالاشراق والحيـاة والسمـوّ. اقتـرنت به قـيم معنوية ايجابية

السّـواد

بوحديبــة :	مورابيا :	عجينـة :
ليس لون سلبيا وقلّما أشعر بالحزن والحداد فسواد اللّمـة من الجمـال والسّـواد لون الغيب والليل ووحـدة الانسان	لون فاتن أساسي رهيب لون الحداد والثورة والنار (شعار المُسَوّدَة من بني العبّاس)	لـون كسوة الكعبة قرين الأرض والظلمة والنزول الى طبقات الأرض السفلى وبعضها مساكن الجنّ

---

(9) V. W. Turner; cité par Zahan, p 119.

(10) نقتصرها هنا على :
- Bouhdiba, Abdelwahab; Les Arabes et la couleur dans Culture et Societé pp 73 - 85. Publications de l'Univerité de Tunis. Tunis 1978.
- MORABIA, A; article Lawn. EI2
- عجينة محمد : موسوعة أساطير العرب ج 2 ص 199 - 202 - ط 1. 1994.

الصّفـرة

بوحديبـة :	مورابيا :	عجينة :
لون سلبي : لون المرّة الصفراء والجوع والجنون والفراغ والخواء وهو لون مبهم : لون الغنى والشبع ولون الجوع والشحوب اذا ما اقترن باللهب أشعر بالنّار وإذا ما اقترن بالذهب والزعفران والشمس أشعر بالجنّة.	لـون الذهـب والشمـس والعسـل واللهـب المتّقـد وهو لون الغدر والخيانة ولـون الملـك والمجـد	لا ذكر للصّفرة

الخضـرة

بوحديبـة :	مورابيا :	عجينـة :
لون هادئ ايجابي، هو لـون الحيـاة والقدس والروحانية لونُ الرسول المفضّل ولون الطهارة ومتـع الحياة	لون معتـدل : لـون الفـأل والخصـب والصّبـا والمـال لون بردة علي ولون لـواء الرّسول	قرين الشجرة رمز الحيـاة والتجـدد الخضرة رمز الحياة وهي رمز المـاء وهي اللون الطاغي في الفردوس وهي رمزالدين والتقوى

الحمـــرة

بوحديبـــة :	مورابيا :	عجينـة :
لون الفعل والاثارة لون يقترن بالقوة والحياة والشدة والدم والفحولة وحُمَيًّا الشراب	لون النار والـدم والهـوى والتّهــور والخطــر لون الحيـــاة وقوّتهـــا لون الحـــرب والفحولـــة	اللون الأحمر والأزرق عند العرب لونان مكروهان ويعتبران مشؤومين ... وتشارك الحمرة الزرقة في أنّها في بعض السياقات من الألوان المشؤومة أو المنكرة بينما هي في سياقات أخرى من الألوان البهيجة ...

الزرقـــة

بوحديبـــة :	مورابيا :	عجينـة :
لون الحيرة والخوف والقلق والفناء والرجس والحقد والضلال والعمى والقتل والعداوة لون الشيطان والزبانية لون تحاشته الثقافة العربية	لون بارد عميق لا يدرك له قرار. لون السماء والبحر (كذا). لون مشؤوم مخيف	مكروه ... مشؤوم ... من الألوان المشؤومة أو المنكرة

ومن تدبّر هذه الدلالات لحظ فيها هنات أهمّها

1 - قصور المنهج

فلقد خاض الباحثون ثلاثتهم في دلالات الألوان وضربوا في التأول حتّى أبعدوا فرأوا ما يرى وما لا يرى ... ولكنهم أخطؤوا الغرض وما قرطسوه : فلقد تأولوا «ألفاظ» الألوان ... وليس للفظ أن يتأول فإذا كان التأويل في الشرع : «صرف الآي عن معناه الظاهر الى معنى يحتمله اذا كان المحتمل الذي يراه موافقا بالكتاب والسنّة.»[11] فإنّه في «غير الشرع» صرف «**الأقوال**» - **لا الألفاظ** - عن معناها الى معنى محتمل تُسنده النّصوص والآثار ... أمّا اللفظ عاريا فليس له من دلالة أو رمز انّها هو ذو معنى ... ومعناه ما كان له في أصل الوضع. وما رأينا من الباحثين الثلاثة من عاد الى نصوص العربية قرآنا وشعرا ونثرا يستقرئها ليرى ما قد يكون عليه أمر الألوان في كلام العرب بل إنّا رأيناهم يغفلون المعاجم فلا يعودون اليها إلاّ قليلا وإذا كان بوحديبة قد عاد الى اللسان مرات خمسا فإن عجينه أغفل المعاجم جملة وتفصيلا وقد قاده ذلك الى الاسراف والشطط فهو يقول : «إنّ الحمرة من الألوان المشؤومة والمنكرة ...» ولو عاد الباحث الى اللسان وكُتُب الأمثال، لوجد أن الحمرة حُسْنٌ. فهم يقولون :

---

(11) الشريف الجرجاني : كتاب التعريفات ص 52. ط بيروت 1990.

الحسن أحمر ؛ يعنون أن الحسن في الحمرة. قال شاعرهم ؛

فـإذا ظهـرتِ تقنّعـي بالحُمْـر إنّ الحسـن أحمـر[12]

وليس يغفر للباحث أنّه استند ،بشأن (كذا) رمزيّة اللون، الأحمر الى ابن سيرين. فإنّما ابن سيرين رجلٌ يتأوّل الأحلام معبّرا وقد تأوّل الثياب الحمراء لا الحمرة وفرق ما بين الثياب الحمراء والحمرة هو ما بين الثوب واللون.

2 - قصور التحليل

لقد ظنّ الباحثون ثلاثتهم أنهم يتأولون الألوان لونا لونا وما كانوا يفعلون ... لقد تأوّلوا ما حسبوه لونا وفاتهم أن يحددوا لفظ الألوان التي يدرسون ... فالبياض في كلام العرب الحمرة والحمرة في كلامهم البياض[13] والبياض في كلام العرب. الزرقة والزرقة البياض[14] ... فأيّ بياض يقصد الباحثون حين يُخَوّضون في الدلالة ؛ أهو البياض بياضا أم البياض حمرة أو البياض زرقة ؟

---

(12) ابن منظور ؛ لسان العرب مادة (ح م ر) وانظر ما سيكون من أمر الحمرة في شعر بشّار فيما سيأتي من القول.
وانظر ؛
الميداني ؛ مجمع الامثال، ج 1 ص 199. القاهرة 1374 هـ - 1955 م.
البكرى ؛ فصل المقال، ص 344. تحقيق احسان عباس وعبد المجيد عابدين ط 3. بيروت 1403 / 1983.
العسكري ؛ جمهرة الامثال ج 1 - ص 366. تحقيق أبو الفضل ابراهيم وعبد المجيد قطامش ط 2 - بيروت 1408 هـ - 1988 م.

(13) اللسان مادة (ب ي ض) ومادة (ح م ر).

(14) اللسان مادة (ز ر ق)

كذلك القول في السّواد : فلقد غفل الباحثون ثلاثتهم عن أن السواد في لغة العرب الصفرة وهو الخضرة[15].

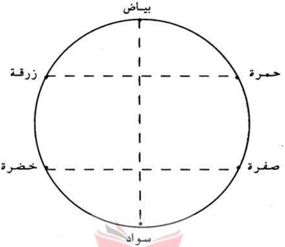
فحين تأولوا السواد أكانوا الى «سواد» السواد[16] يذهبون أم كانوا «سواد» الصفرة يعنون أم كانوا «سواد» الخضرة يقصدون ؟

وتكون «الصفرة»[18] في كلام العرب سوادا «وحمرة» فأيّ «صفرة» يتأولون وأيّ رمز يحلّلون ... وتكون «الخضرة»[18] سوادا وتكون «زرقة» فأيّ الألوان يعنون ؟ وأي دلالة يتأمون ؟ ... وتكون الزرقة[18] زرقة وتكون خُضْرَةً وتكون بياضا فالام يذهبون ؟ ... فلقد كان يحسن بالباحثين أن يتوقفوا عند الألفاظ ألفاظ الألوان فيتدبروا ما تشابه منها قبل أن يوغلوا في الدلالة وأن يعودوا الى النصوص : نصوص اللغة والأدب والتراث ...

أنظومة الألوان و «التداخل اللوني»

إن المتأمّل في أنظومة الألوان العربيّة ليجد أنّها دائرية تتّصل فيها الألوان اتّصالا فتجري العين من اللون الى اللون دون توقف : يشيع البياض حتّى يتّصل بالحمرة وتتّسع الحمرة حتّى تتّصل بالصفرة وتنداح الصفرة حتى تصير سوادا ويفشو السواد حتّى يغدُوَ خضرة وتذيع الخضرة حتّى تصبح زرقة وتنتشر الزرقة حتّى تدرك البياض ...

(15) اللسان مادة (ص ف ر) ومادة (خ ض ر) ومادة (س و د).
(16) اللسان : مادّة (س و د) ومادّة (ص ف ر) ومادّة (خ ض ر) ومادّة (ز ر ق).



يشيع البياض حتّى يتّصل بالحمرة لأن البياض بياض وحمرة :

تقول العرب : أبيض وأبياض بمعنى أحمر وأحمار ... يقولون : أتاني كلّ أسود منهم وأحمر ولا يقال أبيض. ومعناه جميع النّاس. ثعلب قال : العرب لا تقول رجل أبيض من بياض اللون ... فإذا أرادوا الأبيض من اللون قالوا : أحمر ... وسمّيت العجم حمراء لبياضها. فإذا قالوا أحمرُ وحمراء عَنَوا بياض اللّون ... وفي حديث علي لعائشة : إيّاك أن تكونيها يا حُمَيْراء أي بيضاء[17] ... وكانت عائشة رضي الله عنها تسمّى حميراء لغلبة البياض على لونها[18] فإذا كان ذلك كذلك فإن قولهم في المثل .أشأم

(17) اللسان : مادة (ب ي ض) ومادّة (ح م ر).

(18) الميداني : مجمع الأمثال ... ج 1 ص القاهرة 1334 هـ / 1955 م.

من أحـمـر عـاد،[19] ليس يحـمل على ظاهر اللفظ كـمـا ذهب الى ذلك عـجـينة حين جـزم ،بأن اللون الأحـمـر واللون الأزرق عند العـرب مشـؤومان ومن أمثلتهم السائرة أشأم من أحمرَ عاد،[20] ... فإن الأحمر في المثل الأبيض ... وهو عاقر الناقة ...

وتتّصل الحمرة بالصفرة فإذا هما كالمترادفين ؛ تقول العرب أهلك الناسَ الأحـمـران ؛ الذهب والزعـفـران وأهلك النـاس الاصـفـران ؛ الذهب والزعفران[21].

وتنداح الصفرة حتى تؤول الى السّواد. فإذا الصفرة السّواد والاصفر الأسود[22]. وبذلك فسّروا قوله تعالى :

---

(19) البكري ؛ فصل المقال في شرح كتاب الأمثال ص 459. تحقيق عبّاس وعابدين ط 3 بيروت 1403 ـ 1983 وانظر ؛ كتاب مجمع الامثال ج 1 ـ ص 379.

(20) موسوعة أساطير العرب ج 2 ص 201. ولقد ترددوا في هذا المثل ترددوا واضحا إذ ذهبوا الى أن عاقر الناقة هو ؛ قداربن قديرة وقيل قديرة أمه وهو قداربن سالف. وقالوا إنّه من ثمود. ومنهم من جعل ثمودا من عاد حتى يوافق اللفظ المعنى ومنهم من خطّأ زهيرًا في قوله ؛

فَتُنْتِـجْ لَكُـمْ غِلْمَانَ اشْأَمَ، كُلُّهُـمْ   كَأَحْمَـرِ عَـادٍ، ثـمَّ تُرْضِـعْ فَتَفْطِـمِ

قال ثعلب ؛ ،وإنّما أراد، أحمر ثمودَ . . فقال أحمر عاد وهذا غلط. انظر ديوان زهير ابن أبي سلمى ؛ صنعة أبي العبّاس ثعلب تحقيق فخر الدين قبادة ص 28. ط 1 ـ بيروت 1402 هـ ـ 1982 م. اقول ؛ ويجوز أن يكون بيت زهير ؛ كَأحْمَرَ عَادٍ ؛ فتكون عاد نعتا لاحمر لا مضافة الى أحمر ويكون المعنى كأحْمَرَ عادٍ ؛كأحمر ظالم من عَدَا يعدو إذا ظلم وجار. قال الله تعالى ؛ فمن اضْطُرَّ غير بَاغٍ. ولا عَادٍ فإنَّ ربّك غفور رحيم الانعام 145 وقال ؛ فمن اضْطُرَّ غيرَ باغ وَلاَ عَادٍ فإن الله غفور رحيم ، وقال فمن اضْطُرَّ غير بَاغٍ ولا عَادٍ فَلاَ إثْمَ عليه البقرة 173.

(21) اللسان ؛ مادة (ح.م.ر).

(22) اللسان ؛ مادة (ص.ف.ر).

إنّها تَرْمِي بِشَرَرٍ كالقَصْرِ، كَأنّه جِمَالاَتٌ صُفْــر (المرسلات 32 ـ 33) قال الحسن وقتادة : أي كأنّه أيْنقٌ سُود[23].

بل إنّهم فسّروا الصفرة في قوله تعالى : «قال إنّه يقول إنّها بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا (البقرة 69) بالسّواد. و«قيل إنّه أرادَ بصفْراء ها هنا سَوْدَاء شديدة السواد كما يقال صفراء أي سَوْدَاء. قال الشاعر :

تلك خَيْلِي منها وتلك رِكابِي هنّ صُفْر أوْلادُها كالزّبِيب[24]

ويفشو السواد حتّى يصير خُضرة. وبه فسّروا قوله تعالى : مُدْهَامَّتَان (الرحمان 64). فقالوا : خَضْرَوان لأنّهُمَا تَضْربان الى السّواد من شدّة الرّي[25]. قال الطبري مدهامّتان : أي من خضرتهما قد اسودّتا من الرّي وكلّ نبت أخضر فتمام خضرته أن يضرب الى السّواد[26].

ويقال للأسود أخْضَر. والخُضر : خُضْرُ غسّان ومحارب سُمّوا بذلك لسوادهم[27] قال القرشي :

وأنــا الأخْضَــرُ مَن يَعْرِفُنِــي أخْضَرُ الجلدةِ في بيت العرب

والعرب تصف ألوانها بالسواد وألوان العجم بالحمرة[27] وامرأة خضراء سوداء ... فاذا قالوا فان أخضر القَفَا فإنّهم يعنون أنّ أمّه سوداء. قال الشّمّاخُ :

---

(23) الطبرسي : مجمع البيان ص 162. ط. بيروت بدون تاريخ.

(24) مجمع البيان : ج 1 ـ ص 294. والبيت للأعشى انظر :

ـ الأعشى : الديوان. القصيدة 68. شرح وتعليق محمد محمد حسين الطبعة السابعة 1403 ـ 1983 والبيت في رواية الديوان :

تلك خيلي منه وتلك ...

(25) السان مادة (خ ض ر) ومادة (س و د).

(26) مجمع البيان : ج 26 ص 106.

وَرُحْنَ رَوَاحًا مِنْ زَرُودَ فنازعت زَبَالةَ جِلْبَابًا من الليل أخْضَرَا[27]

وتذيعُ الخضرة حتّى تغدو زرقة فما تتمايزان : «فالزَّرَقُ والزرقةُ خُضرَةُ الحدقة. يقال رجل أزرق وامرأة زرقاء وقد زَرِق زرقًا وازرقّ وانشد :

لقد زرقت عيْنَاكَ يا ابْـنَ مُكَعْبَـرِ كَذَا كُلُّ ضَبّيٌّ من اللؤم أزْرَقُ[28]

فالزرقة خُضرة في سواد العين[29]. ولقد استشهد عجينة بالبيت وفاته أنّ الزرقة ها هنا الخضرة[30]. كَمَا وَهم «موراييا» في حديثه عن الزرقة حين قال إنّها لونُ البحر والسماء[31].

فالسماء لا توصف بالزرقة كما لا يوصف البحر بالزرقة. يقول الجاحظ : «وأصل الخُضرة إنّما هي لونُ الريحان والبُقُولِ ثمّ جَعَلُوا بَعْدُ ... السّماء خضراء[32]. والخَضْرَاءُ السَّماءُ لخضرتها ... وهي صفة غلبت غَلَبَةَ الاسماء. وقد جاء في الحديث. ما اظلّت الخَضراءُ ولا اقلّت الغبراءُ أصدقَ

---

(27) الحيوان ، ج 3 ص 246.

(28) المخصّص ، السفر 1 ص 99.

(29) اللسان ، مادة (زرق).

(30) موسوعة أساطير العرب ، الحاشية (82) ص 201 ... والغريب حقًا أن المؤلف يستشهد بالجاحظ في الحيوان أثناء حديثه عن الزرقة فينقل عنه ، وكانت البسوس زرقاء ، الحيوان ج 5 ص 331 وفاته أنّ الجاحظ يقول في ص 330 اي قبل سطور معدودات ، «وإذا قال الناس ثوب أزرقُ فإنّهم يذهبون الى لون واحد. وإذا وصفوا بذلك العينَ وقع على لَوْنَيْن». كما فاته وقد ذكر البسُوسَ أنّ محقق الكتاب نبّه في الحاشية 1 من الجزء III ص175 الى أنّ «زرقة البسوس» ليست الاّ خضرة عينيها فقال : «ليس المرادُ زرقةَ الجلد وإنّها المرادُ زرقةُ العين. يقال رجل أزرق وامرأة زرقاء ويراد بذلك خُضرَةَ الحَدقة.

(31) فصل لون ، دائرة المعارف.

(32) الحيوان ، ج 3 - ص 246.

لهجة من أبي ذرّ.[33] ولا يوصف البحر الاّ بالخضرة. وقد سمي خُضارة : معرفة لا يجرى. تقول العرب هذا خضارةُ طامياً[34]. قال ابن حمديس :[35]

ألَمْ أرْكبِ النّفس اشتياقا إليكم غوارب مُخضرّ الغوارب طامي

فأمّا قول زهير[36] :

فلمّا وردنَ الماء زُرْقا جِمامُهُ وَضَعْنَ عِصيَّ الحاضر المُتَخيِّمِ

فإن الزرقة فيه بمعنى الصّفاء. وتكون الزرقة كذلك بمعنى البياض. جاء في اللسان[37] : الزرقة : البياض حيثما كان … وهي كذلك أن يتغشّى سواد العين بياض.

… فكيفما قلّبت اللونَ وجدته يدل على ذاته ويدلّ في الأنظومة على ما جاوره … فكل لونين يتّصلان فلا يفترقان ولا يتمايزان إلاّ أن يبلغا الطرفين ويدركا الحدّين : فأنظومة الألوان العربية : اتّصالية لا يرى العربي فيها ما بين الألوان المتجاورة من تفاريق (nuances) حتّى يميّزها. فرؤيته للألوان رؤية مجاليّة : إن اللون في العربية مجال لوني : يمتدّ من طرف الى طرف وينداح من حدّ الى حدّ : فالبياض بياض فإن شابته حمرة فهو بياض فإن زادت حمرته فهو بياض فإن اشتدت حمرته فهو بياض فإن احمرّ فهو بياض (وكذا الحمرة فسائر الألوان).

---

(33) اللسان : مادة خ ض ر.

(34) اللسان : مادّة (خ ض ر).

(35) ابن حمديس ، الديوان، ق 282. تحقيق احسان عباس. بيروت 1960.

(36) الديوان : ص 22.

(37) اللسان : مادة (زرق).

وقد يعجب المرء حين يرى العرب لا يبصرون في قوس قزح الاّ الصفرة والحمرة والخضرة والبياض[38]، يقول سيف الدولة[39] :

وساق صبيح للصّبوح دَعَوْتُه   فقام وفي أجفانه سِنَة الغُمْضِ
يطوف بكاسات العُقار كأنجم   فمن بين مُنْقَضّ علينا ومُنْفَضّ
وقدْ نَشَرتْ أيدي الجنوب مَطَارِفًا   على الجوّ دُكْنًا والحواشي على الأرضِ
وطرّزها قوسُ السّماء بأصفر   عَلَى أحمر في أخْضَر تحت مُبْيَضّ
كأذيال خَوْدٍ أقبلت في غلائلٍ   مُصَبَّغَةٍ والبعضُ أقْصَرُ من بَعْضِ

ولا عجب في قوله . فالبرتقالي يُرى أحمر أو أصفر والبنفسجيُّ يرى أحمر أو أزرق والنيلي والأزرق يلوحان لعين الشاعر زرقة والزرقة في لغة العرب بياض ومن ثمّة ذكر المُبْيَضّ ... حتّى لكأنّ الشاعر يبصر بالعين ما تراه اللغة ... بل هو لا يبصر الاّ بعين اللغة ...

دلالات «أنظومة» الألوان : بشّار أنموذجا

ولقد اخترنا بشّارا حتّى نتدبّر دلالات الألوان في شعر فحل أعمى أكمه يقلّب الألوان فيحدّث عنها ويتحدث بها حديث الذّاكرة والتراث فوجدنا الشاعر يستعمل في ديوانه[40] اللون الأبيض : (58 مرّة) :

---

(38) ليس البياض من الوان الموشور (Prisme) وهو بالتالي ليس من الوان قوس قزح وهي : البنفسجي والنيلي والأزرق والأخضر والأصفر والبرتقالي والأحمر.

(39) التيفاشي : سرور النفس بمدارك الحواس الخمس ص 266 تحقيق احسان عباس ط 1 بيروت 1400 هـ ـ 1980 م.

(40) ديوان بشار بن برد 4 أجزاء : نشره وقدم له وشرحه وكمله محمد الطاهر ابن عاشور. الطبعة الثانية. القاهرة 1387 هـ / 1967 م.

الجـزء I : ص : 122 ـ 113 ـ 118 [2]، 126، 146، 168، 208، 211، 235، 254، 263، 302، 318، 354.

الجـــــــزء II : ص : 62، 80، 109، 117، 128، 160، 162، 175، 189 [2]، 222، 268، 319.

الجـــــــزء III : ص : 8 [2]، 26، 40، 77، 83، 98، 116، 117، 125، 133، 168 [2]، 198، 201، 210، 224، 226، 242، 260، 263، 268، 295.

الجزء IV : ص 44، 58، 93، 105، 129، 158.

ويذكر اللون الاصفر : (18 مرّة)

الجزء I ص : 115، 119، 129، 136، 314.

الجزء II : ص : 66، 119، 158 [2]، 168، 231، 273.

الجزء III : ص 3، 51، 149، 183، 276.

الجزء IV : ص : 98.

ويذكر اللون الأحمر : (20 مرّة)

الجزء I : ص : 119، 143، 246، 318، 336، 357.

الجزء II : ص : 231، 272.

الجزء III : ص : 31، 81، 106، 183، 260 [2]، 263، 287

الجزء IV : ص : 58 [2]، 61، 164.

ويذكر اللون الأسود : (23 مرّة)

الجزء I : ص : 119، 318، 369.

الجزء II : ص : 178، 189، 201، 211، 222، 231، 241، 268.

الجــــزء III : ص : 36، 44، 51، 87، 88، 108[2]، 128، 171، 223، 256، 302.

الجزء IV : ص : 38، 41، 44، 199.

ويذكر الخضرة : (9 مرّات)

الجزء I : ص : 108، 115، 129، 147، 205، 334

الجزء II: ص : 263.

الجزء III ص : 180، 201.

ويذكر الزرقة : (5 مرّات)

الجزء I : ص : 129، 314، 334.

الجزء II : ص : 114.

الجزء III : 128.

دلالات الألوان في شعر بشار :

البيـــاض :

- هو لون الأبيض فإذا صارت الأشياء الى البياض قال ابيضّت ابيضاضا وابياضّت :

* هيهـات مـا أمـرك أمْـرُ إقصار
دون تنـاهيـك ابيضـاض القـار
ج 3 ـ 242

ـ هو الحسن :
* وثقَالُ الأوْصالِ سَرْبَلَهَا الحسنُ بَيَاضًا والروقـةُ[41] البيضـاء
ج 1 ـ 118

ـ هو الحسن مصونا :
* من البيـض مـا تَلقـاك إلاّ مَصُونـةً
ثَقَـالاً ومَشْـيَ الخَيْـزَلَـى في الـولائـد
ج 3 ـ 77

* من البيـضِ لـم تَسْرَح على أهل غُـنّـةٍ
وقيـراً ولـم ترفـع جِـدَاجَ قَعُـود
ج 2 ـ 160

ـ هو الحسن عَفّا حَيِيًّا :
* وبَيْضَـاء لبّسهـا الحيـاء عفـافـةً
فَضْـلَ القنـاع إذا خَلَـتْ لـم تُوصَـد
ج 3 ـ 117

ـ هو الشرف أبِيًّا :
* بِيـضٌ جِـدَادٌ وأشْـرَافٌ زَبَـانيَـةٌ
يغـدو على من يُعَادي[42] الويلُ والحرب
ج 1 ـ 235

(41) الروقة : الحسن والجمال الرائق.
(42) قرا الشيخ الطاهر ابن عاشور يُعادي ولعلّها يُعَادَى بالبناء للمجهول.

* زَانُـوا بأقصَـاصِهِـم منابرَهُـمْ
وزانهـم مَنْظـرٌ ومفتخـرُ
بيـض مصـاليـتٌ دون ضَيْمِهِـمُ
وَغـرٌ وَمَـا دُون سَيْبِهِـمُ وَغـرُ
ج 3 ـ 201

ـ وهو النعمة والاحسان :
* كـم لَـهُ من يَـدٍ علينـا وفيْنَـا
وأيَـادٍ بيـضٍ عَلَـى الاكفـاء
ج 1 ـ 113

ـ وهو النّور والضياء :
* يا ليلتي لَمْ أنَمْ شَوْقًا وتَسْهَادَا
حتّى رأيتُ بياضَ الصبح قَدْ عَادَا
ج 3 ـ 98

* وبَيَـاضُ يَـوْمٍ بَعْـدَ لَيْلَتِـه
دان مـن المعـروف بالنُّكُـر
ج 3 ـ 227

* حَلَفْـتُ بالقِبْلَـةِ البَيْضَـاءِ مجْتَهِـدًا
وبالمَقَـامِ ورُكْـنِ البيـتِ والسُّـورِ
ج 3 ـ 263

الحمـرة :
ـ لون الأحمر :
* فهو صافي الأديم كالدُّمْلُـج الأحمـر طـرْفٌ تزينُـه الأقْـرَابُ
ج 1 ـ 336

* أحـيـنَ أشــارتْ بـي الأكُـفُّ مُعيـدَةَ

وحَفّتْ بـي الحمـراءُ[43] خَرْقـا مُعَصَّبـا

ج 1 ـ 246

ـ لـون الـدمّ والقتـل :

* ونِعْـــمَ جَــارُ العُيَّــلِ السّغــابِ

يَهْـــوُونَ فـي المحمّـــرة[44] الغِـــلاَبِ

ج 1 ـ 143

* فأصبـح قـد بَدَّلْتَــه مــن قميصـه

قميصا يَهُـول العَيْــنَ من عَلَــقٍ حُمْـرِ

ج 3 ـ 287

* فَرَمَتْ بي خلف السّتور لأفوا ه المنايـا بين حُمْـر[45] وسُـودِ

ج 2 ـ 272

والحمـرة : الشـدّة :

* حَطُـوطٌ الى قَـوْدِ الجيـادِ على الرَّحَـا

وفــي السّنــة الحمـــراء جــمّ المــوارد

ج 3 ـ 81

والحمرة : حسن

* هَجَـانٌ عليهـا حُمْـرةٌ في بياضِهـا

تَــرُوق بِهـَا العيْنَيْــن والحُسْـنُ أحْمَـرُ

ج 3 ـ 260

(43) أراد بالحمراء العجم وسموا بذلك لبياضهم.

(44) الرادات في أعالي الدماح محمّدة من دم العدوّ.

(45) وصفوا الموت بالأحمر إشارة الى أنه موت يقتل يسيل منه الدّم.

* وخُـــذِي مَـــلاَبِـــسَ زينـــةٍ

ومُصَبَّغَـــــاتٍ هـــنَّ أنْـــــوَرُ

وإذا دَخَلْنَـــــا فَـــادْخُلـــــي

فِي الحُمْـــرِ إنّ الحُسْـــنَ أحْمَـــرُ

ج 4 ـ 61

الصفـــرة :

لون الزهر الاصفر كالنّرجس :

* وحديثٌ كأنّه قِطَعُ الرّو ضِ زهّتْـه الصفراء والحمراءُ

ج 1 ـ 119

* كـأنّهـا ألبسَتْهـا رَوْضَـةَ ما بين صفـراءَ وخَضْـرَاءِ

ج 1 ـ 129

لـون الحسـن :

* صَفْـــرَاءُ آنسـةٌ يزيِّـنُ نقابُهـا

عَيْـــنٌ تُـــروِّح للعُيُـــونِ سُهَـــادَا

ج 2 ـ 168

* وصفراويـــــن مـنْ بقـــر وراحٍ

أصبتهمـــا ومـــا حســـن السّـــوادُ

ج 3 ـ 51

الحســن مصونـا :

* وصفراءُ مثل الخيزرانـةِ لـم تَعِـش

ببـــؤس ولم تركـــب مطيّـــة رَاع

ج 4 ـ 98

وهي التّرف والذهب :

* ومصفّرة بالزعفران جُلُودُهـا
إذا جَليت مثلَ الهرقليّة الصُّفْرِ

ج 3 - 277

وهي الكُدرة جَوْنـا :

* مُخْتَلفَ التيجانِ في التّنَدّي
كُلٌّ بالأصفر بين الورْد
وبالبَنَفسي المُشْرِقِ الرّخْودّ
والجَوْنِ مَشُوبًا بلون الفهْد(46)

ج 2 - 231

وَلَوْانّك تدبّرت هذه الألوانَ الثلاثة لوجدتها تدل على الحسن، فهي ذوات الحسن تقع في مراتب أعلاها بياض وأدناها صفرة وما بينهما حمرة ...

السّواد :

- لون الأسْود :

وغادةٍ سوداءَ برّاقةٍ
كالماءِ في طيبٍ وفي لينِ
كأنّها صيغتْ لمن نالَها
من عَنْبَرٍ بالمِسْكِ مَعْجُونِ

ج 4 - 199

- الشّنّ والقبح

* لقد شَانَ أولادَ الزّنَاءِ سَوَادُهُ

ج 3 - 108

---

(46) الجونُ : الاصفر، ولون الفهد : الغبرة.

* وصفراوين من بقر وراح
أصَبْتُهُمَا وما حسن السواد
ج 3 - 51

* يَشِينُ بني زَيْدٍ بَقِيَّةُ[47] أعْصُرٍ
كما شبت وجها فاضِحًا بِسَوَادِ
ج 3 - 87

الشقاءُ :

* وابيضَ من شُرْبِ المدامة وجْهُهُ
وبياضه يومَ الحسابِ سَوَادُ
ج 4 - 44

الشناعة :

* آمُلُ العَيْشَ تارةً وأرَى المَوْتَ أسْوَدَا
ج 2 - 201

* وللبخيل على أمْوَالِهِ عِلَلٌ
زُرْقُ العيونِ عليها أوْجُهٌ سُودُ
ج 3 - 125

الظُّلمة :

ليلةٌ تَلْبَسُ البَيَاضَ من الشَّهْرِ وأخرى تُدني جلابيبَ سُودَا
ج 2 - 189

---

(47) لعلها : بقيّةَ أعصر : بالفتح لا بالضمّ فتكون مفعولا فيه.

الخضـــرة :

- لون الأخضر كنبات الروض والخريدة :

*عليـــه الجوهـــــر الأخْضَـــــرُ[48] واليــــاقُــــوت مَصْبّــــوبُ

ج 1 - 205

* كـــأنّمـــــــا ألبَسْتَهَــــــا رَوْضَـــــةً

مـــــا بـــينَ صَـــــفْـرَاءَ وخَضْـــرَاءِ

ج 1 - 129

- وهي كدرة وسواد :

* بـكـلّ مُثقّــــفٍ وبكُـــــلّ عَضْـــبِ

مِـــنَ القَلْعــــيّ خَـالَطَـــــهُ اخْضِـــرَارُ

ج 3 - 257

- وهي عسر ومشقّة :

* ومَلْعَـــبِ النّـــونِ يُـــرَى بطْنُـــهُ

مِـــن ظَهْـــرِهِ أخْضَـــرَ مُسْتَصْعَـــبِ

ج 1 - 147

* بـانــت سُلَيْمَـــى فَمَتَـــى الكُـــرُورُ

هيهــــات مـن منزلهـــا الخابُــــور

شـــــطّ الفتـــى واختلـــفَ المصيــــرُ

مِــــن دونهــــا الجَسُــــورُ والجُسُــــورُ

وخـنـــــدق اخْضَــرُ مُسْتَـديــــرُ

كـــأنّـــــه زرٌ فَتَـــــى مَـــــزْوُرُ

ج 3 - 180

---

(48) الجوهر الأخضر : هو الخريدة Perle vierge ; ولونه أبيض بظلال خضراء. معامل الانكسار (1.530 - 1.683 - 1.686). وزنه النوعي : (2.66 - 2.76). تركيبه الكيمياني (ca co 3) راجع :

- التيفاشي : كتاب الافكار. تحقيق محمد يوسف حسن ومحمود بيوني خفاجي مصر 1977.

الخصـــب :

نعــــمَ دُعَـــاةُ الإمَـــامِ حِلْمُهُــمُ

رَاسٍ ومَــرْعَــى جَنَابِهِـــمْ خَضِـــرُ

ج 3 - 201

الـزرقـــة :

ليست لـونـا لِمَا هُو أزرق ولا هـي لون مـا يصيـر الى الزرقـة وانّما هي :

قبـح العـداوة :

* كأنّما عاينت بـي عايفـا أزرق(*) مـن أهـــل حـــارُوراءِ

ج 1 - 131

* ساقها الأزرقُ الغيورُ الـى الشّـا م فـذاتُ الأشلاءِ منهـا خـرابُ

قبـح شنيـع :

* تراخـت في النّعيـم فلَـم تنَلْهـا

حَـوَاسِـدُ أعيُـنِ الـزّرقِ القِبَـاحِ

ج 2 - 114

* وللبخيــل علـى أموالـــه عِلَـــلٌ

زُرْقُ العيـون عليهـا أوجـهٌ سُـودُ(49)

ج 3 - 125

(*) قال الشيخ ابن عاشور : أراد بالعائف الكارة المعادي على سبيل المجاوز ووصفه بالأزرق مبالغة في عداوته للناس فإنّ الأزرق من الأوصاف الغالبة إتباعا للعدو ... أو أراد به الواحد من الأزارقة ... ج 1 - ص 131 الحاشية (2).

(49) قارن بقوله تعالى :

يَوْمَ يُنْفَخُ في الصُّورِ. ونَحْشُرُ المُجْرِمِينَ زُرْقا : طه 102.

وإنّ هذه الألوانَ الثلاثة ليجمعها جامع القبح وهي تتنزّل في درجات أعلاها للسواد وأدناها للخضرة وما بينهما للزرقة التي لم تستعمل في الديوان للدلالة على اللون باعتباره لونا.

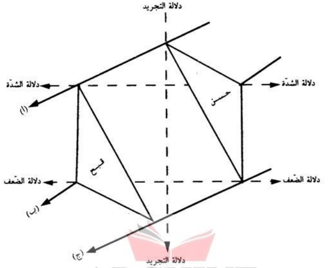
وإنك إذ تتدبّر هذه الدلالات لواجد أنّها تجري على أنساق وتتطرد على أحوال وتدور على معان لا تفارقها: فأمّا البياض فينجح به الشاعر الى التجريد: فهو الحسن خالصا وهو الحسن عفّا وهو الشرف والنّعمة والنور والضياء ... وكذلك السّواد: هو الشين والشقاء والشناعة والظلام ... فلكأن اللونين يخلصان من رؤية العين والباصرة الى تصوّر الذهن والبصيرة ... فهما الى المطلق، مطلق التجريد ينزعان.

وأمّا الحمرة فدلالات الحسن فيها قائمة ... وليس تنفك الحمرة عن الشدّة والتكثير توافقها في هذا المنزع الزرقة فهي تخلص في شعر بشار الى شديد القبح وشنيعه.

وأمّا الصفرة والخضرة فلونان يقعان في الدّرك الأسفل من رؤية البصر: لا يراهما العربي الاّ وهو يرجع البصر خاسيا وهو حسير: تجنح الصفرة الى الحسن ولكنّها ليست تخلص له وتنزع الخضرة الى القبح ولكنها ليست تقدم به فكأنّ الألوان تتقابل في الحسن والقبح ثمّ تَتَسامَتُ مثنى: فمِنْ عشا البصر: يَرَى اللونَ فيتردد في دلالاته (صفرة / خضرة) الى جلاء البصر يرى اللون فيشدّد في دلالاته (حمرة / زرقة) الى محض الفكر يُدرك اللونَ فيتّخذه رمزا مُجَرّدا (بياض / سواد).

فأنظومة اللألوان: **دائرية فيها ينزاح اللون الى اللون** ... فينداح متّسعا منبسطا حتى يَغْشَى كُلّ التّفاريق (nuances)

وهي تقابلية تتناظر فيها دلالتان اثنتان: قبح وحسن ينتظمان في ثالوثين ثالوث البياض والحمرة والصفرة وثالوث السواد والزرقة والخضرة؛ وهي **تَسَامتية**: فهذه الألوان تَتَسَامَتُ في خطوط ثلاثة: ضعف وشدّة وتجريد بحسب ما يلي:

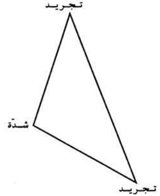


ولو أنّك طابقت بين الحسن والقبح مطابقة تامّة بحسب محاور التطابق (أ، ب، ج) حتّى يغشى التجريدُ الشّدّةَ والشدّةُ الضّعفَ والتجريدُ الضعفَ بحسب ما يلي :

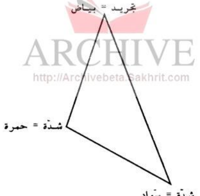
ت = تجريد
ش = شدة
ض = ضعف

ش ← ت / ت ـــ
ض ← ش / ش ـــ
ض ← ت / ـــ ت

لانتهيت الى ثالوث واحد قوامه : تجريد فشدّة فتجريد.



وإن هذا الثالوث لهو ثالوث لوني : ثالوث البياض والحمرة والسواد



وإذا الالوانُ الاساسيّة في العربية ثلاثة ... هي ألوان الليل والنّهار وما بينهما : قال الشريف ابن دفترخوان[50].

(50) سرور النفس ، ص 16.

جَيْشان مختلفان : جيش دُجُنّة يَتَغالَبان مَعًا وجيش نهار
واللّيلُ يكسو الجوّ مِسْحًا أَسْوَدًا متحرّقًا عند الشروق بنار
والصبحُ مدّ على النجوم مُلاءَةً بيضاء يمنعها من الابصار

فمن اختلاف الليل والنّهار استمد العربي ألوانه الأولى : أبصرها ثمّ ميّزها ثمّ جعلها أمهات ثلاثا ينسب اليها ما يكون من غيرها ... ثم إنّه فاضل بينها واستند الى بياض جلدته (؟) فجعل منه لون الألوان حسنا وبهاء ورونقة وجمالا بل جعل منه لون الشرف والسّناء والعرض والنّقاء فاذا قالوا فلان أبيض وفلانة بيضاء فإن المعنى : نقاء العرض من الدنس والعيوب[51] + قال زهير في مدح هَرِم بن سنان :[52]

* أَغَرُّ أَبْيَضُ، فيّاضٌ يُفكّكُ عن
أَيْدي العُناةِ وعَنْ أعناقِها الرّقَبا

وقال حسّان :[53]

* أولادُ جفنةَ حول قبر أبيهم قبرِ ابن ماريةَ الكريمِ المفضل
بيض الوُجوه نقيّة أحسابهم شمّ الانوف من الطّراز الأوّل
يغشون حتّى ما تهرّ كلابهم لا يسألون عن السّواد المقبل

الصادق الميساوي

---

(51) اللسان : مادة (ب ي ض).

(52) الديوان : ص 49.

(53) حسان : الديوان : ص 184 بيروت 1406 / 1986 وانظر رواية الأبيات في بلوغ الأدب : الالوسي ج 3 ص 136 ط 3 مصر ب ت وانظر في هذه المسألة : CHELHOD, J; Introduction à la sociologie de l'Islam, P 33 Paris 1958.

لغة اختصاص الفيزياء
في ميدان علم البصريات

بقلم : أزكاويه لولوبر

ان استعمال اللغة العربية في مجال البصريات يعود الى أكثر من ألف سنة وذلك في عصر كان العالم الاسلامي خلاله القطب الرئيسي للنشاط العلمي[1] ولكن المعرفة العلمية تأتي اليوم للعالم العربي من خارجه وذلك بواسطة اللغتين الانكليزية والفرنسية.

وفي العالم العربي - وفي هذا المجال كما هو الشأن في معظم المجالات العلميّة الأخرى - لا يزال استعمال اللغة العربية محدودا بما تستعمل اللغتان الانكليزية والفرنسية كلغتي العمل في التعليم العالي ومعاهد البحث في معظم البلدان العربية بيد أن مكانة اللغة العربية لتعليم المواد العلمية في المدارس الثانوية تختلف من بلد عربي الى آخر.

فميدان استعمال اللغة العربية في مجال الفيزياء يرتكز في التعليم من جهة وفي التعميم من ناحية أخرى[2]. ولهذا السبب اعتمدنا أبحاثا

(1) من بين القدماء الذين عُنوا بالبصريات : الكندي (ت 873 م) وابن الهيثم (ت 1039 م) والطوسي (ت 1273) وكمال الدين الفارسي (ت 1320).

(2) تقع عمليات وضع المصطلحات في اطار التعليم الثانوي والجامعي في أغلب الأحيان.

في لغة الاختصاص العربية لمجال البصريات قبل كل شيء على كتب التعليم؛ ومن جهة أخرى ركزنا دراستنا على المصطلحات لأنها حجر العثرة لاستعمال اللغة العربية في الكثير من المجالات العلمية بما تقع عدة مشاكل على المستوى اللغوي تعرقل استعمال العربية وهي تتعلق بالمصطلحات، من بينها نقص المصطلحات وكذلك الإكثار فيها (أي الترادف)[3].

1 - ميزات لغات الاختصاص

1 - 1 تصور لغات الاختصاص

ان تصور **لغات الأهداف الخاصة** (أو **لغات الاختصاص**) langue de spécialité (Language for Specific Purposes) التي يتعارض مع تصور **اللغة العامة** (أو المشتركة) (Langue générale) تصور قد **تطور الاهتمام** به خصوصا في قرننا هذا عند الأوساط المنكبة على تعليمية اللغات، على غرار «الانكليزية للأهداف الخاصة» التي كانت تجيب عن أسئلة مثل هذه: من أجل فيزيائيين غير ناطقين باللغة الانكليزية يرغبون في تناول الفيزياء باللغة الانكليزية ما يجب أن يعلّموا من اللغة الانكليزية؟ فذلك السؤال يؤدي الى السؤال التالي: للغة معينة ما هو قسم اللغة الذي يحتاج الى معرفته اختصاصيو المجال المعني عندما يتناولون هذا المجال؟

والامر هنا ليس أمر وجود نظامين لغويين يتعارضان على المستويات الفونولوجي والصرفي والنحوي، ولكنه كيفية استعمال اللغة كما ترد في

---

(3) المصطلحات العربية الواردة في هذا البحث تقع في مجموعة واسعة جمعناها اعتمادا قبل كل شيء على كتب مدرسية وجامعية من جهة وعلى قواميس مختصة من جهة أخرى لم نشر الى تلك المصادر هنا (انظر Le lubre 1992).

الوثائق (المكتوبة منها والشفوية) التي تتناول اختصاصا معينا[4] [5]. ومن ناحية أخرى لا توجد لغة اختصاص وحيدة بل لغات اختصاص يناسب كل منها مجال اختصاص معينا.

فكيف يمكننا أن نميّز لغة اختصاص كالتي نهتمّ بها ؟ على أي مستوى تتميز من اللغة العامة ومن لغات الاختصاص الأخرى ؟ وما هي العناصر الخاصة بها ؟

فتحديد لغة الاختصاص الذي قمنا به يؤدّينا الى اعتبارها وفقا لمحورين : المحور الأول ـ وهو غير لغوي ـ هو نوع الاختصاص المعني والمحور الثاني يتعلق بكيفية استخدام لغة الاختصاص أي أنواع النصوص التي تمثل وقوعها.

1 ـ 2 لغة الاختصاص ومجال الاختصاص

اذا اهتممنا بلغة اختصاص ما وجب أن نأخذ هذا الاختصاص بعين الاعتبار (وحتى فرعا من مجال الاختصاص) بصفة دقيقة فكل لغة اختصاص لها ميزات خاصة بالاختصاص المعني.

ان تحديد أي مجال اختصاص من بين المجالات الكثيرة والمتنوعة الموجودة أمر أصحاب هذا الاختصاص : فكل مجال اختصاص يمكنه أن يتفرع الى مجالات فرعية (فمن بين المجالات الفرعية للفيزياء نجد البصريّات وهي تتفرع بدورها الى مجالات فرعية مثل البصريات

---

(4) مع ذلك في بعض الأحيان كانت تُستعمل لغة كانت تختلف تماما عن اللغة المتداولة لتناول ميادين خاصة، مثل استعمال اللغة اللاتينية في مجال العلومك في أروبا خلال القرون الوسطى وفي ما بعدها.

(5) قد يمكن تحديد اللغة العامة بصفة سلبية بأنها اللغة كما لا يستعملها اختصاصيو مجال ما عند تناولهم هذا الاختصاص ...

الهندسية والبصريات الفيزيائية) ومن ناحية أخرى تربطه علاقات هيكلية مع بفروع أخرى للعلوم (مثل علاقات البصريات مع الرياضيات).

ونلحّ هنا على أهمية الاعتماد الدائم على المرجع - المرجع الفيزيائي هنا - بما أنّ وظيفة لغة الاختصاص أن تسمح للاختصاصيين بتناولهم الاختصاص.

1 - 3 لغة الاختصاص ونصوص الاختصاص

ان نص الاختصاص يمثل لنا المادة الأولية التي نعتمد عليها للقيام بالبحوث في لغة هذا الاختصاص. ونميز هنا بين نص الاختصاص وبين خطاب الاختصاص : ان مؤلف النّص (أفرديا كان أو جماعيا) يلتجئ الى استراتيجيات تتبلور في خطاب الاختصاص فنص الاختصاص ليس الا نتيجة هذه العمليات[6].

ويمكن تصنيف نصوص الاختصاص حسب معايير متنوعة :

- درجة التخصص في المجال، وعلى سبيل المثال :
. من اختصاصي الى اختصاصي في نفس الفرع (ذلك ما يحدث في المقالات الواردة في المجلات العلمية مثلا).
. من اختصاصي الى متعلم في الاختصاص (نصوص التعليم المدرسية منها والجامعية منها).
. من اختصاصي (ذي اختصاص معين) الى من ليس له اختصاص في المجال (نصوص التعميم)[7].

---

(6) من بين هذه الخطابات : الخطاب المنطقي والخطابات المتعلقة باختصاصات اخرى (مثل الخطاب الرياضي) ... والخطاب الخاص بالاختصاص المعني.

(7) تختلف مستويات التعميم اختلافا : شتان بين مقالات مجلّتي **آفاق علمية والعالم والتكنولوجيا** وبين المقالات العلمية الواردة في صحيفة يومية ..

- نمط النصوص (مقال - درس - رسالة - امتحان - مادة في قاموس ...)

- الشكل (نص مكتوب / شفوي، مؤلف / مرتجل ...)

1 - 4 عناصر لغة الاختصاص

العناصر التي نأخذها بعين الاعتبار والتي تشارك في ميزات لغة من لغات الاختصاص ثلاثة :

- المصطلحات وهي الكلمات التي تعيّن الوحدات المرجعة (unité référentielle) المتعلقة بالمجال (مثل **خيال** image).

- التركيب (syntagme) التي يرد في النص ضمنا مصطلحٌ معين أو عدة مصطلحات وهي متلازمات الاختصاص (collocation de spécialité) (مثل التي تتعلق بالمصطلح **خيال** : تكوين الخيال، «تشكيل الخيال»، «الخيال المتكون في»، الخ.

- العبارات المختلفة الخاصة بخطابات الاختصاص المستخدمة لتأليف النّص المتغيرة أكثر أو أقل (مثل «فليكن الترتيب الضني التالي ...»).

ودور كل من هذه المركبات الثلاث يتعلق بنوع نص الاختصاص ويتعلق أيضا بنوع المجال المعني. فمثلا النص الرياضي أو الفيزيائي أو الطبي يحتوي على الكثير من هذه العبارات بيد أن نصوص اختصاصات أخرى قد تحتوي على القليل من العبارات الخاصة بها. فالنصوص التي تتناول البصريات تحتوي على هذه العبارات حسب درجتها في التّخصّص.

ومن هنا نرى أنّه لنعيّن أي لغة اختصاص ينبغي أن نأخذ بعين الاعتبار مجال الاختصاص المعني ودرجات التخصص فيه. ففي الواقع، عندما نتكلم عن لغة اختصاص معين علينا أن نوضح بعنايةٍ المجالَ الفرعي المعني ودرجة التخصص المقصودة. ودراسة لغة الاختصاص تعتمد على

تناول أوجهها الثلاثة التي ذكرناها : مصطلحاتها ومتلازماتها المتعلقة بالمصطلحات وعباراتها الخاصة بخطاباتها، فلا تنحصر في دراسة مصطلحاتها فقط[8].

ورغما عن ذلك فالمصطلحات تمثّل الوجه الأكثر بروزا للغة الاختصاص خصوصا في الميادين العلمية بمقتضى العدد الكبير لمصطلحاتها. وان كانت تتطور اللغات بطيئا جدّا بالنسبة الينا فبالعكس إنّ نمو حجم المصطلحات لعدة مجالات سريع للغاية، فنمو معجم اللغات العالمية الهامة مثل الانكليزية والفرنسية والعربية يحدث قبل كل شيء ضمن لغاتها للاختصاص.

2 ـ تكوين المصطلحات في البصريات

ان تقاربنا تقارب مصطلحي : ان العلاقة بين المصطلح والوحدة المرجعية التي هو تسميتها علاقة أساسية : فكل مصطلح لا بد من أن يؤخذ بعين للاعتبار ضمن النظام المصطلحي الذي ينتمي اليه والذي يطابق النظام المرجعي المعني[9].

ومن جهة أخرى نعتمد ـ في المستوى اللساني ـ على الاطار النظري الذي وضعه الأستاذ اندره رومان (مثلا Roman (1990) (1991)).

---

(8) من البديهي أن تعليم لغة اختصاص معينة لا يمكن أن يقتصر على تعليم مصطلحات هذا الاختصاص ...

(9) يقتضي ذلك الا يعالج اي مصطلح على حدة دون المصطلحات الأخرى لنفس النظام المصطلحي ـ انظر Rev. 1979 ـ فدراسة مصطلحات مجال ما يقتضي ان يحدّد المصطلحي ـ وذلك بمساعدة أصحاب المجال ـ المجال المدروس بصفة دقيقة وأن يبرز التنظيم الخاص به وذلك على مستوى الوحدات المرجعية بذاتها (ما يسمى بشجرة المجال arbre du domaine). وبدون هاتين العمليتين التمهيديتين لا يمكن اعتبار العمل المصطلحي عملا عميقا ...

2 ـ 1 تسمية الوحدات المرجعيّة

ان المصطلح لا يتميز بالنسبة الى المصطلحات الأخرى ـ وذلك يخالف ما يحدث لكلمات اللغة العامة ـ ولكنه يتحدد اعتمادا على الوحدة المرجعية التي يسمّيها. وتتميز الوحدة المرجعية بمجموعة من الخصائص هي **سماتها الجوهرية** (traits de substance).

والتسمية ـ وهي عملية مختزلة للغاية ـ قد تعبّر عن سمة جوهرية واحدة أو عن البعض منها وذلك في اطار النظام اللغوي المعني : فيكون المصطلح «شفّافا» أكثر أو أقل لهذا السبب[10].

فنتأمل مثال الوحدة المرجعية التي لها التسميتان الآتيتان :

(أ) **الجسم الأسود** corps noir 'black body'

(ب) **المشعّ التامّ** radiateur intégral 'full radiator'

وفي كتاب الفيزيقا للجامعات (ص 420) نجد تحليل وقوع هذين المترادفين :

«الجسم الأسود (هو) ذلك الجسم الذي يمتصّ جميع الأشعاعات الحرارية التي تسقط عليه. وماصّ مثالي كهذا يعتبر أيضا مشعا مثاليا للحرارة».

فالسمات الجوهرية التي يعبر عنها المصطلح **جسم أسود** هي (جسم، امتصاص جميع الاشعاعات) والمصطلح **مشع تام** (يشع، الطاقة الحرارية بتمامها).

2 ـ 2 طرق وضع المصطلحات

لكل لغة وظيفتان أساسيتان :

(10) قد يكون الاختلاف في اختيار السمات الجوهرية سببا للترادف كما يبدو عند المثال الآتي.

(أ) تسمية الكيانات المختلفة الأنواع التي يعتبرها الانسان إمّا غير متعلقة بالزمن (فوحدة التسمية unité de nomination الملائمة هي **حيثة** res) وإمّا متعلقة بالزمن (فهذه الوحدة هي **حَدَث** modus).

(ب) ادخال وحدات التسمية هذه في جمل.

الوظيفة الأولى يقوم بها نظام التسمية système de nomination للغة والوظيفة الثانية يقوم بها نظامها للتواصل système de communication.

واضافة الى هذين النظامين الأساسيين للغة يمكن لوضع المصطلحات الالتجاء الى النقل الدلالي ـ transfert sémantique من جهة والى الاقتباس (أو التعريب من جهة أخرى[11].

2 ـ 2 ـ 1 استعمال نظام التسمية

2 ـ 2 ـ 1 ـ 1 نظام التسمية للغة العربية

انه مبني أساسيا على جذور صوامت[12] (جذور أحادية الصوامت وجذور ثلاثية الصوامت في النظام البدائي للغات السامية) ولكن بعض عناصر هذا النظام لا تبني على جذور، مثل عناصر الوضعية (modalités). ومن ناحية أخرى يستعمل نظام التسمية العربي القليل من الزوائد (affixes)[13].

---

(11) وجهة نظر اللغويين العرب لوضع المصطلحات (الاشتقاق والترجمة والمجاز والنحت والتعريب). انظر على سبيل المثال لا الحصر الى ما كتب الامير مصطفى الشهابي (1965) ومحمد رشاد الحمزاوي (1975) (1985).

(12) يستعمل نظام التسمية للغات الهندوأوربية مثل الانكليزية والفرنسية جذور مقاطع.

(13) ان قلة الزوائد العربية سبب اشكال لوضع المصطلحات بما تستعمل اللغتان الانكليزية والفرنسية زوائد كثيرة لوضع العديد من مصطلحاتها وذلك بصفة منظمة)مَثَل الكيمياء معروف). فنظام التسمية العربي لا يستطيع أن يواجه هذه الحالة بمقتضى قلة زوائده. فتلتجئ العربية الى وسائل أخرى كاللجوء الى نظامها للتواصل والى الاقتباس.

وكان الوزن في نظام التسمية البدائي يميز بين حيثة وبين حدث[14] ويمكن لوحدات التسمية أن تبنى على جذر أو جذور[15].

المصطلحات الموضوعة في اطار نظام التسمية تتألف من وحدة تسمية (كلمة) واحدة وتسمى **وحدة مصطلحية بسيطة** (unité terminologique simple).

2 ـ 2 ـ 1 ـ 2 أمثلة مصطلحات كوّنها نظام التسمية

يناسب نظام التسمية للعربية ما هو معروف بالاشتقاق، وذلك بصفة اجمالية.

ولن نطيل هنا على وضع المصطلحات ـ وهي كثيرة جدا ـ بهذا المنوال ذي انتاجية كبيرة فسنكتفي بالاشارة الى بعض النقاط التي تدل على حدوده لتكوين المصطلحات.

2 ـ 2 ـ 2 استعمال نظام التواصل

2 ـ 2 ـ 2 ـ 1 حدود نظام التسمية ... للتسمية

فلنعتبر مثل **المطياف** spectromètre (وهو آلة بصرية لدراسة طيف الضوء المتعدد الألوان) : وُضع هذا المصطلح بفضل نظام التسمية. والآن إنْ أردنا أن نميز بين المطياف الذي يستعمل **موشورا** لتفريق الضوء وبين المطياف الذي يستعمل **محزّز حيود** réseau de diffraction لنفس الغرض فكيف يمكننا أن نعبر عن هذه السمة الجوهرية لتسمية هذين المطيافين ؟ إنّ نظام التسمية للغة العربية لا يسمح لنا بالتعبير عن هذه السمة الجوهرية ...

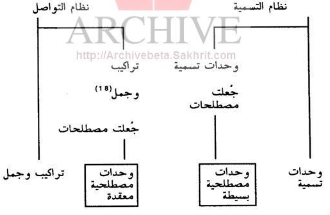
(14) من بين ما هو حَدَث، الفعلُ وأسماء الفعل والمصدر.

(15) على سبيل المثال في **نظّارة** lunette / نظّار / حَدَث (اسم المبالغة) متكون على جذر (ن.ض.ر) والتاء هي الدّالّة .للحيثة العامّة.

فعلينا ان نلتجئ الى نظام التواصل - أي في اطار الجملة - لكي نقوم بهذه العملية فنسمّي المطياف الأول **بمطياف ذي الموشور**[16] spectroscope à prosme والمطياف الثاني **بمطياف ذي المحزز** spectroscope à réseau[17].

وكل من هذين المصطلحين **وحدة مصطلحية معقّدة** unité terminologique complexe ان نظام التواصل الذي دوره ان يدخل وحدات التسمية المكونة في اطار نظام التسمية في جمل، يقول كذلك بدور آخر وهو تكوين مصطلحات تتكون من عدة كلمات. فما لا يستطيع نظام التسمية ان يعبر عنه يسمح نظام التواصل بالتعبير عنه في اطار الجملة.

يوضح الرسم البياني التالي دور كل من نظامي اللغة في تكوين المصطلحات :



(16) وكذلك : **مطياف الموشور ومطياف موشوريّ.**

(17) مثل الجملة /**ما تحت الأحمر**/ infra-rouge التي جُعلت مصطلحا.

(18) مثل الجملة /ما تحت الأحمر/ infra-rouge التي جُعلت مصطلحا.

2 ـ 2 ـ 2 ـ 2 نظام التواصل للغة العربية

تستعمل العربية لنظامها للتواصل حركات الاعراب ووسائل أخرى مثل الوحدات الوظيفية (fonctionnel) والمنسقات (coordonnants). فكل تركيب (syntagme) يكونه نظام التواصل يتألف من جزئين هما الأساس (base) والتوسعة expansion. ومثلا المصطلح **طول موجيّ** longueur d'onde أساسه **طول** وتوسعته **موجي** (التوسعة نعتية هنا) بيد أن مرادف **طول الموجة** له نفس للأساس وتوسعته هي **موجة** (التوسعة اضافية هنا).

ونميز بين نوعين من التوسعة : التوسعة بالتنسيق (coordi-nation) وهي قليلة الورود لمصطلحات والتوسعة بالتعليق (subordination) وتوسعات بالتعليق أربع :

(أ) التوسعة التي تناسب النعت والبدل (مثل **طول موجي**)
(ب) التوسعة التي تناسب الاضافة (مثل **طول الموجة**)
(ج) التوسعة بواسطة وحدة وظيفية (مثل **تجمع في البؤر** (focalication)

(د) التوسعة التي تناسب المفعول المطلق والحال والتمييز (مثل **مستقطب دائريّا** polarisé circulairement).

ويمكن لوحدة مصطلحية معقدة أن تصبح بدورها أساس لتوسعة أخرى، مثل :

(**استطاعة فاصلة طولانية** (pouvoir séparateur longitudinal

↑ ↑ ↑

أساس توسعة ↑

أساس توسعة

القوسان هنا يدلّان على تكوين هذا المصطلح. ولكن ان لم نعرف ذلك أمكننا ان نحلل هذا المصطلح :

(أ) (استطاعة فاصلة) طولانية

(ب) استطاعة فاصلة طولانية

أساس توسعة 1 توسعة 2 [19]

أي **استطاعة** تكون فاصلة من جهة وطولانية من جهة أخرى، وهذا التحليل ممكن. ولكنه خاطئ، لا لسبب لغوي ولكن لسبب مرجعي : ان **الاستطاعة الفاصلة** تكون اما طولانية واما عرضانية (transversal). فالنظام اللغوي لا يدلنا على التحليل الملائم لأنه لا يستطيع أن يعبر عن العلاقات المرجعية تعبيرا كاملا فلا بد من الرجوع الى المرجع عند الحاجة.

2 ـ 2 ـ 3 النقل الدلالي (transfert sémantique)

ان هذه الطريقة التي لها دور هام في ظهور **مصطلحات جديدة لا** تولّد دالة جديدة بل تعيد استعمالها لوضع مصطلح جديد. وكثيرا ما تكورن عمليات النقل الدلالي متشابهة بين اللغات الانكليزية والفرنسية والعربية.

2 ـ 2 ـ 3 ـ 1 الكناية (métonymie)

بطريقة الكناية تسمى وحدة مرجعية لها علاقة مرجعية مع وحدة مرجعية أخرى تسميتُها. فمثلا لعلاقة الجزء والكل، تسمى **البصريات**

---

(19) نحو : **عدسة مستوية محدبة** lentille plan convexe

أساس توسعة 1 توسعة 2

بالضوء والضوء هو عنصر مهم للغاية لهذا المجال - لأن الضوء تعالجه البصريات. فلنشر أيضا الى علاقة أخرى وهي كثيرة الوقوع، هي العلاقة بين العمل ونتيجته، مثل **تصوير** (العمل ونتيجة أي الشيء المصوّر).

2 - 2 - 3 - 2 **المجاز** (métaphore)

هنا العلاقة خيالية، مثل : الشكل (**العدسة** - عنصر بصري - لها شكل البقلة المعروفة) والوظيفة (كما في **دليل الموجة** (guide d'onde)

2 - 2 - 3 - 3 المجاز التعاوضي (hypallage)

يستولي أساس على توسعة أساس آخر قد حُذف، مثل **محزّز جيبيّ** réseau sinusoïdal : ليس محزّز الحيد جيبيا هو بنفسه ولكن **دوريته** périodicité هي التي جيبية : في الوقع ان هذا المحزز هو «محزز [ذو دورية]».

2 - 2 - 3 - 4 دور الاستنباط

بالاستنباط يعاد استعمال تسمية وحدة مرجعية لم تستعمل قط في أيامنا وفي ميدان البصريات نجد مصطلحات قديمة[20] تعود الى القرون الوسطى كما أسلفنا القول. ولكن بين الوحدات القديمة والمعاصرة بون شاسع ... وافادة الالتجاء الى التراث العلمي العربي لأغراض حديثة قليلة كما كان قد لاحظ ذلك الامير مصطفى الشهابي (1965 : ص ص 29 - 30).

---

(20) لا بد من دراسة زمانية (diachronique) المصطلحات البصرية العربية.

2 ـ 2 ـ 4 الاقتباس (emprunt)

المصطلحات المقتبسة (أو المعرّبة) لا تبنى على جذور صوامت[21] وكثيرا ما لا تخضع للنظام الفونولوجي العربي. ومن المعروف ان المؤسسات العربية التي تعنى بالمصطلحات تحاول ان تضع مقابلات عربية لها. ولكن مكانة الاقتباس تتغير من مجال اختصاص الى آخر وتتعلق بطبيعة الوحدات المرجعية أيضا ؛ وفي مجال البصريات نجد مصطلحات مقتبسة للمجموعات التالية على وجه الخصوص :

- معظم تسميات الوحدات الفيزيائية مثل **لومن** lumen **وفوت** phot ...
- عناصر تقنية مثل الموادّ والآلات :
  . **بلسم** كندا beaume du Canada **فلنت** flint وأجسام كيماوية مثل **كربون** carbone **وفلور** fluor وجسيمات فيزيائية مثل **الكترون** électron **وفوتون** photon.
  . آلات بصرية مثل **ميكروسكوب** microscope **وتلسكوب** téléscope أو lunette وعناصر أخرى.
- بعض خصائص بصرية مثل **فوتوبي** photopique

وفي الواقع نسبة المصطلحات المقتبسة قليلة (ونجد مثلا للآلات البصرية مقابلات عربية).

3 ـ بعض الجوانب المصطلحية

ندرس فيما يلي مسألتين مختلفتين : تتعلق المسألة الأولى بمعالجة الزوائد (affixe) والمشكّلات (formant) التي تستعملها اللانكليزية والفرنسية

---

(21) ان اللغة العربية بمقتضى نظامها للتسمية لا تستطيع ان تقتبس أي فعل بصفة مباشرة، فتحتاج الى أن تضع جذرا من مقتبس مثل تَفَلْوَرَ être flurescent فعل جذره (ف ل و ر) وضع من المصطلح المقتبس fluor.

لوضع الكثير من مصطلحاتهما العلمية. أما المسألة الثانية فتتعلق بالتقابلية (biunivpcité) الواقعة بين المصطلح والوحدة المرجعية.

3 ـ 1 مسألة الزوائد والمشكّلات

تقوم هذه العناصر بدور أساسي في تكوين الكثير من المصطلحات الانكليزية والفرنسية (وتسمح بوضع وحدات مصطلحية بسيطة) بيد أن نظام التسمية للغة العربية قليل الزوائد ولا يستعمل المشكّلات.

3 ـ 1 ـ 1 السوابــق

السابقة العربية الواحدة التي تُستمل لوضع المصطلحات ـ وذلك منذ القرون الوسطى ـ هي سابقة النفي /لا/؛ مثل: **لا نقطيّ** a.stigmatique.

البعض من واضعي المصطلحات اقترح وضع سوابق عربية من وحدات وظيفية مثل /قب/ (من قَبْل) ـ الوردة في **قَبْمَداري** pré.orbital. بطريقة النحت. وبالفعل لم نجد سوابق من هذا النوع من بين مصطلحات البصريات التي جمعناها. الا أننا وجدنا بالعكس سوابق مقتبسة مثل /آبار/ في **بارامحوريّ** paraxial.[22]

3 ـ 1 ـ 2 اللواحــق

يستعمل نظام التسمية التعربي بعض اللواحق مثل ياء النسبة والياء والتاء (المصدر الصناعي) (وهما عبارتان عن جذرين قديمين)، ويكثر استخدام هاتين اللاحقتين كمقتبلتين لعدة لواحق انكليزية وفرنسية مثل:

نقطيّ	stigmat.ique
طيفيّ	spectr.al
نقطيّ	ponctu.el
ضونيّ	lumin.eux

(22) وبجانب مُتَمَحْوِر وشِبْه محْوريّ.

ولكن ان أردنا ان نميـــز بين spectr.al و spectr.ique (كـ massique و volum.que) كما يقترحه الفيزيائي F.Desvignes فكيف نقوم بهذا التمييز في اطار نظام التسمية العربي ؟[23] (تدل هنا اللاحقة ique.على النسبة بين مقدارين بيد أن اللاحقة al. هنا له قيمة عامة).

ويمكن الالتجاء الى استعمال جمع الكلمة كأساس للاحقة، مثل **نظائريّ** isotopique موضوع على أساس / نظائر / وهو جمع **نظير** isotope. ولكن هل يمكن اعتبار هذه الطريقة طريقة نظامية ؟

3 ـ 1 ـ 3 المشكّلات

العديد من الوحدات المصطلحية البسيطة الانكليزية والفرنسية مركّبة بما يسمى بمسكّلات ومعظمها من أصل يوناني أو لاتيني على غرار photo. و électro. و magnéto في photo.électrique و électro.magnétique وتعالج هذه المركّبات بالعربية حسب طرق مختلفة :

(أ) بواسطة نظام التسمية (**مطياف** spectro.scope) وذلك في بعض الحالات فقط.

(ب) بواسطة نظام التواصل، مثل :

مقياس الطيف	spectro.mètre
كهربائي ضوئي	photo.électrique

هذه الطريقة هي الاكثر استعمالا.

(ج) بواسطة مشكّلات عربية وضعت على أساس كلمات عربية (أو مقتبسة) مثل /ضو/ (من **ضوء**) ويقابل هذا المشكّل photo.

---

(23) نجد أيضا اللاحقة / ـانيّ / مثل **طولانيّ** longitudinal (بجانب **طوليّ**) وأحيانا / ـويّ / مثل **نِسْبَويّ** 'relativistic' (متعلق بنظرية النسبية ـ أو ... النسبوية)، بجانب نسبيّ.

ضو حسّاس	photo.sensible
ضوكهربائي	photo.électrique

وكذلك المشكّل /كهر/ (بجانب /كهرو/ من كهرباء (وهذا المصطلحمقتبس من اللغة الفارسية).

كهرمغناطيسي	électro.magnétique
كهرضوئي	photo.électrique; magnéto optque

ان هذه الطريقة - وهي من باب النحت - قليلة الاستعمال لوضع المصطلحات بما الكثير من واضعي المصطلحات العرب ينكرون الالتجاء الى النحت ويجدون ان هذه المشكلات الموضوعة بنحت كلمات عربية (أي بحذف حرف أو أكثر منها) تصبح ملتبسة. أضف الى ذلك أن تعميم هذه الطريقة يقتضي وضع العديد من تلك المشكّلات ...

وتفضل الأكثرية من واضعي المصطلحات اللجوء الى نظام التواصل، مما يؤدي الى وضع مصطلحات فضفاضة ولكن طويلة وصعبة الاستعمال ... فلنقارن بين **كهرطيسيّ وكهربائيّ مغناطيسيّ** ...

3 - 1 - 4 ترتيب المقابلات العربية للمشكّلات

تطرح الامثلة السابقة سؤالا وهو مسألة ترتيب هذه العناصر فان هذا الترتيب له دلالة ضمن المصطلحات الانكليزية والفرنسية : ان électro.magnétisme تختلف عن magnétro-électricité وهذا الترتيب يناسب الترتيب .محدّد / محدَّد. (déterminant / déterminé) ونرمز اليه بـ (مش 2 - مش 1) ويخالف هذا التّرتيبُ الترتيب الوارد في نظام التواصل العربي والترتيب الأكثر ورودا في نظام التواصل الفرنسي. ومن جهة أخرى ان العلاقات الدلالية بين هذه المشكّلات ضمن وحدة مصطلحية معينة هي متنوعة.

ونجد في هذا الصدد للمصطلحات العربية الموضوعة منها بفضل نظام التواصل والموضوعة بتركيب المشكّلات نوعا من الفوضى[24].

نكتفي هنا ببضعة أمثلة (الواردة في «المعجم الموحد لمصطلحات الفيزياء العامة و«النووية، 1989)» :

- المشكّل .photo

(مشـ 1 ـ مشـ 2) كهرضوئي photo.électrique

(مشـ 2 ـ مشـ 1) ضوكيميائي photo.chimique

(مشـ 1 مشـ 2) الكترون ضوئي photo.électron

(مشـ 1 مشـ 2) حسّاس ضوئيّا photo.sensible

- المشكّل .électro

(مشـ 1 مشـ 2) لمعان كهربائي électro.luminescence

وان كان من المعقول ان الوحدات المصطلحية المعقدة - الموضوعة حسب نظام التواصل - تعتمد على الترتيب (مشـ 1 مشـ 2) الذي هو الترتيب العادي، فليس الامر كذلك بالنسبة إلى الوحدات المصطلحية البسيطة التي نجد لها الترتيبين المعاكسين ضمنها ...

3 - 2 مسألة الترادف

من المتوقع ان العلاقة بين المصطلح والوحدة المرجعية علاقة تقابلية (bi.univoque) أي للوحدة المرجعية تسمية واحدة والعكس بالعكس، بخلاف ما يحدث في اللغة العامة. ورغما عن ذلك نجد أمثلة غير قليلة تخالف هذه الخاصية بالعربية وكذلك باللغتين الانكليزية والفرنسية.

---

(24) انظر (1993) Lelubre.

3 ـ 2 ـ 1 أسباب الترادف

في لغات الاختصاص الترادف ترادف حقيقيٌ بما هو مرجعي. أسباب الترادف ودرجاته متنوعة وبينها نشير هنا الى سببين وهما الاكثر أهمية :

ـ الاختلاف في اختيار السمات الجوهرية للوحدة المرجعية (كما رأيناه اللمترادفين **جسم أسود ومشع تام**). وعندما يختلف اختيار السمات الجوهرية بين المصطلح الانكليزي والمصطلح الفرنسي ينعكس ذلك على التسمية العربية فيؤدي مرارا الى مترادفين عربيين».

ـ الاختلاف في وسائل التسمية (مثل **طول موجي وطول الموجة، كهرطيسية ومغناطيسية كهربائية، مِجْهَر وميكروسكوب**).

3 ـ 2 ـ 1 مجموعات مصطلحية متنافسة

ان ظواهر الترادف كثيرة بين المصطلحات العربية العلمية بصفة عامة، ونجدها بطبيعة الحال من بين مصطلحات البصريات[25]. وان كانت هذه الظاهرة سلبية بالنسبة الى التواصل العلمي فعلينا ان نقيّم مداها. فعلينا أن نأخذها بعين الاعتبار ضمن مجموعات من المصطلحات بما ان الترادف لا يخصّ مصطلحات منفردة ولكن يخص مجموعات مصطلحية. فمثلا **خيال** image يرادفه **صورة ومحرق** foyer يرادفه **بؤرة** الخ. ولكن ان ورد **خيال** في نص اختصاص ورد كذلك في نفس النّص **محرق**. فنجد مصطلحات مثل **خيال ومحرق وانعراج** في الوثائق المؤلفة في سوريا بينما نجد مترادفات لها مثل **صورة وبؤرة وحيود** في الوثائق

---

(25) نميز بين ما هو ترادف ـ مثل **مجهر وميكروسكوب** ـ وبين ما هو تنوع طفيف ـ **ميكروسكوب ومايكروسكوب**.

الصادرة في مصر مثلا[26]. وهنالك مجموعات مصطلحات متنافسة مستعملة في بلد عربي معين بصفة مفضلة، وضمن مجموعة معينة تصب ظاهرة الترادف قليلة الاهمية.

في مجال البصريات وجدنا أن ظاهرة الترادف ليست بكثرة إذ لا تتعلق الا بأقلية من الوحدات المرجعية (ضمن مجموعة من المصطلحات). فهنالك قائمة من المصطلحات المترادفة كما تستعمل في سوريا (وعند الذين يتابعون المصطلحات السورية) وفي أنحاء أخرى للعالم العربي (المصطلحات الأكثر ورودا بالنسبة الى الوحدات المرجعية المختارة هنا) :

	بلدان أخرى	سوريا
aberration	زيغ	x كدورة
diffraction	حيود	انعراج
énergie	طاقة	x قدرة
foyer	بؤرة	محرق
fréquence	تردد	تواتر
image	صورة	خيال
incidence	سقوط	ورود
objet	شيء	جسم
phase	طور	x صفحة
pouvoir	قدرة، قوّة	استطاعة
source	مصدر	منبع

(26) كانت مصر وسوريا ولا تزالان مركزي وضع المصطلحات العلمية والتقنية وذلك منذ وقوع النهضة العربية. وقد استُعملت عدة كتب علمية للمدارس والجامعة من مصر وسوريا في العالم العربي.

(المصطلحات التي وسمناها بالعلامة (x) حلت محلها مترادفاتها من العمود الايسر في المؤلفات الحديثة).

هذه القائمة الجزئية لا تعني أنه يتعرض مجموعتان متجانستان من المصطلحات تعرضا مطلقا ولكنها تدل على نزعات لاحظناها من بين مصطلحات البصريات. فهذا التنوع الواقع لهذا المجال (ولاحظنا نفس الشيء مثلا في الرياضيات) ظاهرة هامة يجب على المصطلحيين الذين يهتمون بتوحيد المصطلحات العربية ان يأخذوها بعين الاعتبار.

3 ـ 3 مسألة تعدد القيم (polyvalence)

ان الاشتراك ظاهرة وافرة في اللغة العامة، وبالعكس يُطلب من المصطلح ان يكون أحادي المرجع (monoréférentilité) أي أن يكون تسميةَ وحدةٍ مرجعية واحدة والا فهو متعدد القيم (polyvalent)

فظاهرة تعدد القيم ليست قليلة الانتشار من بين المصطلحات[27]. ونميز هنا بين (أ) التجانس (homonymie) حيث لا يقع أي علاقة بين الوحدتين المرجعيتين اللتين لهما نفس التسمية، وبين (ب) تعدد المراجع (polyréférentiolité) حيث يقع بين الوحدتين المرجعيتين علاقة هيكلية.

3 ـ 3 ـ 1 نموذج التجانس

جسم : **جسم 1** corps (في الميكانيكا ولديناميات الحرارية والكيمياء والرياضيات)، رأينا مثل الجسم الأسود

جسم 2 objet (في البصريات، والنظام البصري يشكّل منه خيالا.

(27) ان تداخلت ظاهرتا تعدد القيم والترادف أدى ذلك الى وجود حقول مصطلحية مضطربة (انظر الى أحمد الاخضر غزال، 1979).

الجسم 1 من باب البصريات الجسيمية بيد أن **الجسم 2** من باب البصريات الهندسية، فلا توجد علاقة مباشرة بينهما.

3 ـ 3 ـ 2 نموذج تعدد المراجع

ضوء[28] : ضوء 1 lumière

ضوء 2 optique

ومن هنا، ضوني 1 lumineux (مثل : **الشعاع الضوئي** rayon lumineux وضوئي 2 optique (**آلة ضوئية** instrument optique) كما سبقنا القول ان العلاقة بين (1) و (2) علاقة تابعة للكناية بين الجزء (الضوء 1) والكل (الضوء 2) لأن البصريات تتناول ظاهر **الضوء** التي أساسية بالنسبة اليها.

3 ـ 4 نقل مصطلحي ونشاط مصطلحي أصيل

يعتمد واضعو المصطلحات العرب على المصطلحات الأجنبية قبل كل شيء.

كما أسلفنا القول، وهذا النشاط المصطلحي عملية نقل مصطلحي transfert terminologique أي نقل من المصطلح الأجنبي الى مصطلح عربي.

اذا كانت اللغتان الانكليزية والفرنسية تختاران نفس السمات الجوهرية أمكننا أن نمثل ذلك هكذا :

---

(28) نجد نفس الظاهرة لمرادفه نور (الذي هو أقل استعمالا من ضوء). وللفرق بين **الضوء** و**النور** انظر الى القواميس العربية.

الوحدة المرجعية

سمات جوهرية

{س 1 س 2 . . س n}

- -

↓

المصطلح الانكليزي

المصطلح الفرنسي

(س j)

↓

المصطلح العربي

(س j)

واذا اختلفت اللغتان في اختيار السمات الجوهرية ذي ذلك الى وجود مصطلحين عربيين مترادفين :

الوحدة المرجعية

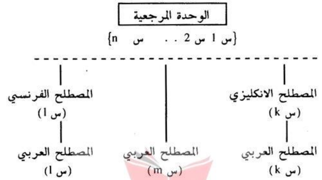
{س 1 س 2 . . س n}

- -

المصطلح الانكليزي	المصطلح الفرنسي
(س K)	(س l)
المصطلح العربي	المصطلح العربي
(س K)	(س l)

ولكن يمكن سلوك مسلك آخر لا يعتمد على التسميات بل يعتمد على الوحدة المرجعية فيأخذ بعين الاعتبار سماتها الجوهرية لعملية

تسميتها باللغة العربية وذلك بغض النظر عن تسميتها باللغتين الاجنبيتين، ونسمي هذه الطريقة بالطريقة المصطلحية الاصلية démarche terminologique autonome.



ومن جهة نظر هذه الطريقة أن وقوع الاختلافات في اختيار السمات الجوهرية للوحدة المرجعية بين الانكليزية والفرنسية لا يمثل مضرة بما قد يسبب الترادف بل بالعكس يسمح للواضع العربي أن يختار ما يبدو له أفضل من تسميات الوحدة المرجعية.

الخاتمة

لقد ذكرنا في هذا البحث، ولو بصفة موجزة، كيفيات وضع مصطلحات البصريات وأشرنا الى بعض المشاكل التي تقع في هذا الصدد. فالمصطلحات عنصر أساسي لانتشار استعمال اللغة العربية في ميدان العلوم الا أنها لا تمثّل وحدها لغة اختصاص البصريات، التي هي عبارة عن تداخل عناصر أخرى اكتفينا بالاشارة اليها وهي متلازمات الاختصاص والعبارات الخاصة بمختلف الخطابات التي تشارك في تأليف نصوص الاختصاص فتكون هذه النقاط موضوع أبحاث مقبلة.

المــراجــع

- د. أحمد الاخضر غزال (1977) **المنهجية العامة للتعريب المواكب**، معهد الدراسات والابحاث للتعريب، الرباط.

- د. محمد رشاد الحمزاوي (1986) **المنهجية العامة لترجمة المصطلحات وتوحيدها وتنميطها - الميدان العربي** - دار الغرب الاسلامي، بيروت.

- الامير مصطفى الشهابي (1965) **المصطلحات العلمية في اللغة العربي في القديم والحديث**، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق /ط 2 /.

- HAMZAOUI Mohamed Rached (1975) **L'Académie de Langue Arabe du Caire-Histoire et œuvre**, Publications de l'Université de Tunis, Tunis.

- LELUBRE Xavier (1992) **La terminologie arabe contemporaine de l'optique : faits théoies-évaluation**, Thèse de Nouveau Doctrat, Université Lumière- Lyon 2, janvier 1992.

- LELUBRE Xavier (1993) «Les relations d'ordre en arabe entre les éléments d'unités terminologiques correspondant à des unités terminologiques simples à formants gréco-latin en français et en anglais», in **Aspects du vocabulaire**, Presses Universitaires de Lyon : 63-80.

- REY Alain (1979) **La terminologie, noms et notions**, «Que sais-je ?» N° 1780, PUF, Paris.

- Roman André (1990) **La grammaire de l'arabe**, PUF, «Que sais-je ?» N° 1275, Paris.

- ROMAN André (1991) **La création lexicale en arabe-Ressources et limites du système de nomination d'une langue humaine naturelle**, sous-presse, 146 p.

المصــــادر

- **الفيزيقا للجامعات**، تأليف : مارفي موايت، تعريب : علم الدين فرغلي وآخرون، دار المعرفة، القاهرة (1969).

- **المعجم الموحد لمصطلحات الفيزياء العامة والنووية** - انجليزي / فرنسي / المنظمة العربية للتربية والثقافية والعلوم، تونس (1989).

علاقة اللغة بالفكر الديني
من خلال التأويل

بقلم : حمودة السعفي

المقدمة :

إن فكرنا الديني هو ثمرة النّص من خلال قراءتنا له. ولسنا مغالين إذا اعتبرنا التأويل أداة أصيلة في الثقافة العربية الاسلامية التي انطلقت من مركز أساسي، هو النّص القرآني، لأنه بلسان عربي.

وقد أكد القرآن الكريم الصلة المتينة بين النّص واللغة العربية «فانما يسّرناه بلسانك لعلهم يتذكرون»[1]، «قرآنا عربيا لقوم يعلمون»[2] «بلسان عربي مبين»[3] «إنّا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون»[4]. وإعجازه المبني أساسا على اللغة العربية لا يعني عدم تعقل معانيه وفهمها «كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب»[5].

---

(1) الدخان 85.

(2) فصّلت 3.

(3) الشعراء 195.

(4) يوسف 2.

(5) ص 29.

وليس بخافٍ على الدارسين لخصائص الثقافة العربية الاسلامية، أنّ من أهم العوامل التي حولت علوم المسلمين من علوم رواية الى علوم دراية، إنّما هو عامل التأويل. فالنّص من خلال هذا العامل، أصبح يحقق مطالب كثيرة أملتها الأوضاع الثقافية والس ياسية والاجتماعية بحكم ارتباطها بالزمان والمكان، وحركة المجتمع. واللغة في حدّ ذاتها لم تبق وسيلة اتصال وتبليغ فحسب، وإنّما تجاوزت مرحلة الإنباء لتصبح مشرّعة للثقافة، ومؤسسة لها. يذهب ابن قتيبة الى أنه، لو كان كلّ فنّ من العلوم شيئا واحدا لا يقبل التأويل والوجوه المتعددة، لم يكن عالم، ولا متعلم، ولا خفي، ولا جلي[6].

فالحديث - إذن - عن علاقة اللغة بالفكر الديني من خلال التأويل هو - أيضا - حديث عن تشكل الثقافة العربية الاسلامية، لأن قراءة الخطاب الديني المتمثل في النّص التأسيسي قرآنا، وسنة، هي التي أنتجت الفكر الديني. وبذلك أصبح النّص ذا مضمون معرفي، أو قُلْ بلغة الفلاسفة مصدر المعرفة الدّينية وحتى غير الدّينية.

لذلك، فقد قصدنا من وراء هذا البحث القصير، إثبات مزية اللغة في تشكيل الفكر الديني، ولم نذهب الى تقويم هذا الفكر الذي نشأ عن اللغة كما فعل ذلك الجابري، أي أنه أحدث النمط البياني الذي يناقض المعرفة البرهانية[7]. فعملية التأويل من خلال ما تسمح به اللغة، كونت الكثير من الحقول المعرفية في الثقافة العربية الاسلامية، فضلا عن أن التأويل قد أرسى حق الاختلاف في الرأي، وركّز التعددية الفكرية، لأن مبدأ الاختلاف أصل من الاصول التي خلق الله عليها الفطرة البشرية. وقد

(6) انظر ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ط 2 1973 دار التراث - القاهرة - ص 87.

(7) انظر الجابري في حديثه عن البيان الذي جعل منه نمطا معرفيا يناقض المعرفة البرهانية، بنية العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط 4، بيروت 1992 ص 13 - 248.

نبّه ابن السيد البطليوسي[8] (ت 521 هـ) الى الأهمية التي يكتسيها الخلاف مستدلا على ذلك بآيات قرآنية في مقدمة كتابه الذي ألفه حول المعاني والأسباب التي أوجدت الخلاف بين المسلمين في آرائهم. من ذلك قوله تعالى: «ولا يزالون مختلفين الاّ من رحم ربك ولذلك خلقهم»[9]. واختلاف الناس في الحق لا يوجب - في نظره - اختلاف الحق في نفسه، وإنما تختلف الطرق الموصلة اليه، والقياسات المركبة عليه، والحق في نفسه واحد[10]. وقد وصف كتابه حول الخلاف بأنه ينتمي الى الدين بأدنى سبب، ويتعلق من اللسان العربي بأقوى سبب[11]. وهذا يعني أنه أقرب الى اللسان العربي، أي الى اللغة منه الى الدين. كما أبرز أن الطريقة الفقهية مفتقرة الى علم الأدب، مؤسسة على أصول كلام العرب[12].

ومما تجدر ملاحظته - أيضا - في نطاق هذا البحث، أننا لم نعمد في حديثنا عن علاقة اللغة بالفكر الديني من خلال عملية التأويل الى الوقوف على كل الجوانب اللغوية التي لها ارتباط بالتأويل، مع علمنا، بأن المعيار اللغوي في عملية التأويل يشمل عدة جوانب أخرى من مثل المشترك، والعام، والخاص، والمطلق والمقيّد، ومخالفة ظاهر اللفظ معناه - وإن كان ابن قتيبة يعتبر هذه المسائل داخلة في مجازات الكلام العربي[13]، وإنما

---

(8) لقد جعل عنوان كتابه: الانصاف في التنبيه على المعاني والأسباب التي أوجبت الاختلاف بين المسلمين في آرائهم.

(9) هود 119.

(10) انظر ابن السيد البطليوسي، الانصاف، تحقيق الدكتور محمد رضوان الداية ط 3 1987 دار الفكر - دمشق ص 25 - 26 - 27.

(11) م. نفسه ص 29.

(12) م. نفسه ص نفسها.

(13) انظر ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن ص 20 - 21.

اخترنا تركيز البحث على علاقة التأويل باللفظ عموما وبالمجاز على وجه الخصوص، لأن التأويل في حقيقته مرتبط وثيق الارتباط بالألفاظ باعتبارها منجما للمعاني، وبالمجاز، وخاصة الجانب الاستعاري منه. ولذلك ليس غريبا أن نجد ابن تيمية ينكر المجاز تبعا لانكاره التأويل[14]، وابن رشد يحصر معنى التأويل في المجاز، اذ يقول: «إنّ معنى التأويل هو إخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية الى الدلالة المجازية من غير أن يخلّ في ذلك بعادة لسان العرب في التجوز من تسمية الشيء بشبيهه أو سببه أو لاحقه أو مقارنه أو غير ذلك من الأشياء التي عدّت في تعريف أصناف الكلام المجازي»[15].

*** التأسيس لعملية التأويل:**

ان المتأمل في مواقف القائلين بالتأويل يجدها مؤسسة على ثلاثة عوامل:

أ - انفتاح الخطاب القرآني:

وقد أدرك علي ابن أبي طالب هذا الانفتاح، إذ هو نصح ابن عباس عندما بعثه الى مفاوضة الخوارج بأن لا يحتج عليهم بشيء من القرآن، وأن يعتمد في مجادلته على السنة وحدها فقال له: «ولا تحاجهم بالقرآن فانه ذو وجوه ولكن خاطبهم بالسنة»[16].

كما ذهب الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور الى أن القرآن متسع المعاني فهو بمثابة المستودع. يقول في هذا المعنى ما نصه: «وهو - القرآن

---

(14) انظر ابن تيمية، الفتاوي 485/3.

(15) انظر ابن رشد، فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، دار المعارف، ط 2، ص 32 .

(16) انظر جلال الدّين عبد الرحمان السيّوطي، الاقتراح في علم أصول النحو، حيدر آباد الدكن، مطبعة دار المعارف النظامية 1310 هـ 1 / 142.

- لكونه كتاب تشريع وتأديب وتعليم، كان حقيقا بأن يودع فيه من المعاني والمقاصد أكثر ما تحتمله الألفاظ في أقل ما يمكن من المقدار بحسب ما تسمح به اللغة الوارد هو بها التيْ هي أسمح اللغات بهذه الاعتبارات، ليحصل تمام المقصود من الارشاد الذي جاء لأجله في جميع نواحي الهدى»[17].

لذلك، ينبغي الاستفادة من هذه المعاني المودعة في القرآن من خلال التأويل الذي هو عنده حمل اللفظ على المعنى المحتمل المرجوع[18]. وقد أسس ابن عاشور لعملية التأويل منذ العهد النبوي اذ يقول : «ولكنا بالتأمل نعلم أن الرسول عليه الصلاة والسلام ما أراد بتفسيره الا إيقاظ الاذهان الى أخذ أقصى المعاني من ألفاظ القرآن»[19]. كما أورد أمثلة من تفسير الرسول يستفاد منها إيقاظ الاذهان الى أخذ أقصى المعاني من ألفاظ القرآن، من ذلك ما رواه أبو سعيد بن المعلّى قال : دعاني رسول الله وأنا في الصلاة فلم أجبه، فلمّا فرغت أقبلت اليه فقال : ما منعك ان تجيبني ؟ فقلت يا رسول الله كنت أصلي. فقال : ألم يقل الله تعالى : «استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم». فقد حمل الرسول - صلى الله عليه وسلم معنى الآية على المعنى الحقيقي. ومن هذا القبيل أيضا ما أجاب به الرسول عمر لما قال له : لا تصل على عبد الله بن أبَي بن سلول فإنه منافق فقال له : «خيّرني ربّي وسأزيد على السبعين»، فحمل قوله تعالى : «استغفر لهم أولا تستغفر لهم» على التخيير مع أنه في الظاهر مستعمل في التسوية. وحمل اسم العدد في قوله تعالى : «ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم» على دلالته الصريحة دون كونه كناية عن الكثرة كما يفيده السياق. ومن هذا القبيل أيضا استعمال الرسول لقوله تعالى : «يُخرج الحي

---

(17) انظر ابن عاشور (محمد الطاهر) التحرير والتنوير. الدار التونسية للنشر 11984 / 93.

(18) م. نفسه 94/1.

(19) م. نفسه 94/1.

من الميّت، استعمالا مجازيا في غير المعنى الذي سيق فيه في شأن أم كلثوم بنت عقبة بن معيط حين جاءت مسلمة مهاجرة الى المدينة وأبت أن ترجع الى المشركين[20]. وقد تعرض ابن عاشور الى موقف الذين أنكروا التأويل محتجين بأنه لا يمكن الاطلاع على تمام المراد الالهي، فرأى ان الخلاف في مسألة التأويل من عدمه أمر لا طائل من ورائه، لأن «القصد هو الامكان الوقوعي لا العقلي فلا مانع من التكليف باستقصاء البحث عنه بحسب الطاقة ومبلغ العلم مع تعذّر الاطلاع على تمامه»[21]. وأضاف «فغرض المفسر بيان ما يصل اليه أو ما يقصده من مراد الله تعالى في كتابه بأتم بيان يحتمله المعنى ولا يأباه اللفظ»[22] كما ذهب الزركشي الى أن النّص القرآني تتسع معانيه وتتعدد وجوه الدلالة فيه، بل لا يمكن استقصاء معانيه أو حصر دلالته[23]. وهذا الاتساع في معاني القرآن ودلالته هو الذي أدّى في نظر علي حرب الى تباين التفاسير والتأويلات، واختلاف الطرق والمذاهب، وتعدد الفرق والمقالات[24]، وجعل محمد أركون يقول بأنه لا يمكن لأي مفسر أو تأويل أن يغلق النّص أو يستنفده بشكل نهائي[25].

والجدير بالملاحظة أن ما زاد في اتساع مساحة هذا الانفتاح هو ورود المتشابه في القرآن الى جانب المحكم، اذ جاء في سورة آل عمران

(20) م. نفسه 95/1.

(21) م. نفسه 39/1.

(22) م. نفسه 41/1.

(23) انظر الزركشي، البرهان، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 22/1.

(24) انظر علي حرب، نقد الحقيقة، المركز الثقافي العربي ص 34.

(25) محمد أركون، تاريخية الفكر العربي الاسلامي، مركز الانماء القومي، بيروت 1984 ص 145 ـ 147.

قوله تعالى : «هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هنّ أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله»[26].

والمتشابه هو الذي يحتمل التأويل، ولا يمكن فيه القطع بالمراد الالهي. وقد بحث العلماء في الحكمة من إيراده، فرأوا بأنه لا يمكن أن يكون في القرآن ما لا يفهم، وإلا انتفت الحكمة منه، اذ هو جاء لهداية الناس مصداقا لقوله تعالى : «إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم»[27] لذلك وجب تقصي معانيه، بل إن المتشابه جاء لحفز الهمم على البحث والتنقيب. كما به يحصل التفاضل بين العالم والجاهل في فهم الخفي والجلّي[28]. ولا شك في أن ضرورة التكيّف مع مقتضيات البيئة والعصر، أو بعبارة أخرى، تحقيق المعادلة بين شؤون الدنيا وهداية الدين، قد أدت الى مزيد من التقصي والبحث والاجتهاد في النّص، عملا بالقول المأثور «ان القرآن لا تنقضي عجائبه». يقول ابن قتيبة في حديثه عن القرآن في كتابه «تأويل مشكل القرآن» : «وجعله متلوا لا يمل على طول التلاوة ومسموعا لا تمجّه الآذان وغضّا لا يخلق على كثرة الرد وعجيبا لا تنقضي عجائبه ومفيدا لا تنقطع فوائده»[29].

ب ـ اتساع اللغة العربية الى أكثر من معنى :

لقد أسس كثير من العلماء لعملية التأويل من خلال الخصائص التي تمتلكها اللغة العربية، فألفاظها تعتبر مستودعا للمعاني. يقول الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور ما نصّه : «اختار الله تعالى أن يكون اللسان العربي

(26) آل عمران 7.

(27) الاسراء 9.

(28) انظر ابن قتيبة تأويل مشكل القرآن ص 86.

(29) م.ن ص 3.

مظهرا لوحيه ومستودعا لمراده»[30]. فلسان العرب ـ في نظره ـ أكثر تحملا للمعاني مع ايجاز لفظه، بما يسمح باتساع المعاني حسب ما يسمح به التركيب «وإنّك لتمر بالآية الواحدة فتتأملها وتتدبرها فتنهال عليك معان كثيرة يسمح بها التركيب على اختلاف الاعتبارات في أساليب الاستعمال العربي. وقد تتكاثر عليك فلاتك من كثرتها في حصر، ولا تجعل الحمل على بعضها منافيا للحمل على البعض الآخر إن كان التركيب سمحا بذلك»[31]. ومن بين الذين اعتمدوا في التأويل على طبيعة اللغة التي رأوها تتسع لضروب من الفهم واستنباط المعاني، الشافعي، إذ يقول في الرسالة : «فإنما خاطب الله بكتابه العرب بلسانها على ما تعرف من معانيها وكان مما تعرف من معانيها اتساع لسانها» وقال أيضا : «لا يعلم من ايضاح جمل علم الكتاب أحد يجهل سعة لسان العرب وكثرة وجوهه وجماع معانيه وتفرقها»[32]. ويقول الجاحظ «للعرب أمثال واشتقاقات وأبنية وموضع كلام يدل عندهم على معانيهم وإرادتهم ولتلك الالفاظ مواضع أخر ولها حينئذ دلالات أخرى. فمن لم يعرفها جهل تأويل الكتاب والسنة والشاهد والمثل»[33]. ويقول علي حرب : «والحق أن النّص هو أصل ثقافي شامل ينطوي على رؤيته جذرية للعالم. وهذه الرؤية تتسع باتساع لغته، وهي لغة ميزتها الاتساع مما جعله منبعا للدلالة لا ينضب»[34].

---

(30) انظر ابن عاشور محمد الطاهر، التحرير 31/1.

(31) م.ن 97/1.

(32) انظر الشافعي الرسالة تحقيق أحمد محمد شاكر، المكتبة العلمية بيروت ص 42 ـ 50 ـ 52.

(33) راجع الحيوان 153/1.

(34) انظر نقد الحقيقة المركز الثقافي العربي ط1 1993 ص 43.

ومن خصائص اللغة التي تسمح باتساع المعاني، وتؤسس للتأويل، الجانب البلاغي فيها، وخاصة المجاز. يرى ابن تيمية أن الكشف عن أسرار البلاغة من أساليب المجاز والكناية والاستعارة في القرآن، قد أفضى الى شيوع التأويل[35]. ويعتبر ابن قتيبة في نظري ـ أول من أسس لعملية التأويل من خلال المجاز في اللغة. فقد وضع مشكلة المحكم والمتشابه، منذ البداية، في إطار لغوي من خلال علاقة اللغة العربية بالنّص القرآني، وأصبحت عنده المعرفة شرطا أساسيا في فهم القرآن الكريم، وتنزيله في الواقع. فمشكل القرآن لايستطيع تأويله إلاّ من «كثر نظره واتسع علمه وفهم مذاهب العرب وافتنانها في الأساليب وما خصّ الله به لغتها دون جميع اللغات فإنه ليس في جميع الأمم أمة أوتيت من العارضة والبيان واتساع المجال ما أوتيته العرب[36]. وأكد ابن قتيبة ان غلط كثير من الناس في التأويل انما هو من جهة «المجاز»[37]. وقد بيّن الفخر الرازي، في مفاتيح الغيب، أن اشتمال القرآن على المحكم والمتشابه، هو الذي جعل العلماء يفتقرون الى طرق التأويلات، ومن أهم وسائل التأويل اللغة، ومجموعة أخرى من العلوم. يقول في هذا المعنى ما نصّه : «لما كان القرآن مشتملا على المحكم والمتشابه افتقروا الى تعلم طرق التأويلات وترجيح بعضها على بعض وافتقر تعلم ذلك الى تحصل علوم كثيرة من علوم اللغة والنحو وعلم أصول الفقه وافتقر التأويل فيه الى الاستعانة بدليل العقل وحينئذ يتخلص من ظلمة التقليد ويصل الى ضياء الاستدلال والبيّنة[38].

---

(35) انظر محمد السّيد الجليند، الإمام ابن تيمية وموقفه من قضية التأويل، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة 1973، ص 155.

(36) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن ص 12.

(37) م.ن ص 102.

(38) انظر الفخر الرازي، مفاتيح الغيب 187/7.

ج - الخلافات السياسية والعقدية :

لقد انطلق التأويل من النّص الديني، وظهر عند الفرق في اطار تبريرها لمواقفها من خصومها، بحكم الخلاف الذي نشأ حول قضية الحكم. فالخوارج - مثلا - قد عمدوا الى آيات الوعيد التي نزلت في المشركين وأسّسوا من خلالها بدعة تكفير خصومهم من المسلمين. قال فيهم ابن سيرين : «إنهم عمدوا الى آيات الوعيد التي نزلت في المشركين فوضعوها على المسلمين فجاؤوا ببدعة التكفير بالذنب»[39].

وقد أرجع عبد العزيز الثعالبي ظهور التأويل الى قضية التحكيم بين علي ومعاوية، لأن الخصوم الذين انبثقوا عن هذه القضية قد استند كل خصم الى القرآن ليمسك بزمام الحكم. يقول الثعالبي : «وبطبيعة الحال فان كل منهما كان يؤول القرآن في الاتجاه الموالي»[40].

كما أن الخلافات المتعلقة بتصور الفرق للذات الالهية، وصفاتها في المجال العقدي، قد أفضت بدورها الى اعتماد التأويل في نصرة الآراء، وتقرير العقائد. وهو جانب سنسوق فيه بعض الأمثلة في حديثنا عن تطبيق آلية التأويل البياني في مجال علم الكلام.

د - الارتكان الى المعقول :

من أهم البواعث على التأويل، ان الأبعاد الدلالية العميقة في النّص تفتقر الى حركة الذهن، وبالتالي الى التأويل حتى ينفذ القارئ الى أغوار النّص، وإلا بقيت القراءة سطحية. ولعل الزركشي قد عبّر عن هذا المعنى بقوله «أصل الوقوف على معاني القرآن التدبّر والتفكر»[41].

---

(39) انظر ابن عاشور محمد الطاهر. التحرير 50/1.

(40) انظر عبد العزيز الثعالبي. روح التحرر في القرآن. دار الغرب الاسلامي ط1 1985 ص 47.

(41) انظر الزركشي. البرهان 180/2 - 181.

وهو ما عناه - أيضا - محمد الطاهر ابن عاشور عندما قال «ولكن بالتأمل نعلم أن الرسول عليه الصلاة والسلام ما أراد بتفسيره الا إيقاظ الأذهان الى أخذ أقصى المعاني من ألفاظ القرآن»[42] وقد أكد هذا الامر الاستاذ محمد الطالبي، عندما اعتبر كل قراءة فكرا يتعامل مع النّص، والنّص واحد والافكار متعددة. وهكذا لا مفرّ من تعدد القراءات، بتعدد الأفكار، وذلك في كل ميادين القراءات، سواء كانت النّصوص دينية أو أدبية أو تاريخية أو فلسفية[43]. وقبل أن أتناول علاقة التأويل باللفظ والمجاز يجدر الوقوف عند معنى التأويل.

* **معنى التأويل :**

ان الحديث عن معنى التأويل يجرنا الى الحديث عن معنى التفسير. ففي لسان العرب لابن منظور، الفسر هو كشف المغطى، والتفسير هو كشف المراد من اللفظ المشكل[44]. قال تعالى : «ولا يأتونك بمثل الا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا»[45] أي بيانا وتفصيلا.

وقال بعضهم : الفسر مقلوب من سفر أي ظهر، يقال : أسفر الصبح أي أضاء. وقد بنى على التفعيل (التفسير) لإفادة معنى الكثرة.

فالتفسير هو اخراج الشيء من مقام الخفاء الى مقام التجلي، وهو يرتبط باللفظ. أما التأويل في اللغة، فمأخوذ من الأوْل وهو الرجوع. جاء في القاموس[46] : آل اليه ومآلا، رجع وعنه ارتد وأول الكلام تأويلا وتدبره وقدره وفسره.

---

(42) انظر التحرير والتنوير. 94/1.

(43) انظر محمد الطالبي. عيال الله دار سرس للنشر ط1 1992 ص 68.

(44) انظر مادة «في» لسان العرب ط دار لسان العرب - بيروت.

(45) الفرقان 33.

(46) راجع مادة «ال» في القاموس المحيط 331/3.

وقد ورد لفظ التأويل في القرآن الكريم على معان مختلفة فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله.[47]. فهو في هذه الآية بمعنى التفسير والتعيين. وفي سورة النساء .فإن تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا.[48] بمعنى العاقبة والمصير وفي سورة الأعراف .هل ينظرون الا تأويله يوم يأتي تأويله.[49] فهو بمعنى وقوع المخبر به. وفي سورة يوسف .وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث.[50] بمعنى تأويل الرؤيا. وفي قوله تعالى : .ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبرا.[51]. فالمراد هنا، تأويل الأعمال التي أتى بها الخصر من خرق السفينة، وقتل الغلام، واقامة الجدار، وبيان السبب الحامل عليها، وليس المراد منه تأويل الأقوال.

وفي التفرقة بين التفسير والتأويل يذهب أبو نصر القشيري[52] الى أن التفسير مرتبط بالرواية والسماع، والتأويل مرتبط بالاستنباط. ولهذا يقتضي التأويل ضروبا مختلفة من العلوم اللغوية كالحقيقة والمجاز. وذهب - أيضا - كل من أبي القاسم بن حبيب النّيسابوري والبغوي وغيرهما[53] الى هذا المعنى الذي يجعل التأويل منصرفا الى ما تحتمله الآية من معنى موافق لما قبلها، وما بعدها، وغير مخالف لكتاب الله وسنة رسوله من

---

(47) آل عمران 7.
(48) النساء 59.
(49) الاعراف 53.
(50) يوسف 6.
(51) الكهف 82.
(52) انظر الزركشي في البرهان 165/1.
(53) م.ن 166/1.

طريق الاستنباط. ويرى الزركشي أن هناك ارتباطا بين الاجتهاد والتأويل، اذ يذهب الى أن ما يرجع الى اجتهاد العلماء هو الذي يغلب عليه اطلاق التأويل، وهو صرف اللفظ الى ما يؤول اليه! فالمفسّر ناقل، والمؤول مستنبط. يقول الزركشي في هذا المعنى ما نصه : «وكان السبب في اصطلاح كثير على التفرقة بين التفسير والتأويل التمييز بين المنقول والمستنبط ليحيل على الاعتماد في المنقول وعلى النظر في المستنبط[54]».

ومما تجدر ملاحظته أن علماء المسلمين قد اختلفوا في القول بالتأويل من عدمه. ومنشأ الخلاف يعود الى السؤال التالي : هل يجوز في القرآن شيء لا يعلم معناه ؟ فالذين جوّزوا ذلك، منعوا التأويل، واعتقدوا التنزيه. والذين لم يجوّزوه، قالوا بالتأويل. وقد برز موقف كلّ فريق من هذه المسألة عند التعرض لتفسير الآية السابعة من سورة آل عمران التي ورد فيها قوله تعالى : «هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هنّ أمّ الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله الا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا»[55].

فالفريق الذي أنكر التأويل، جعل الوقف في الآية على لفظ الجلالة، وذهب الى أنه يجوز في القرآن وجود ما لا يعلم معناه، أو بعبارة أخرى، إن الأفهام تقصر عن المراد الالهي. وقد ضرب أمثلة على ذلك من مثل القصور عن معرفة الأمور الغيبية التي استأثر الله بعلمها. فابن تيمية[56]- مثلا - جزم بأن الوقف في الآية على لفظ الجلاله بناء على أن التأويل المذكور فيها ينصرف الى الأمور الغيبية. ولا يجوز الوقف على الراسخين في العلم لأنه تقصر عقولهم عن معرفة هذه الأمور.

(54) م.ن 183/2.
(55) آل عمران 7.
(56) انظر محمد السيّد الجليند، الامام ابن تيمية وموقفه من قضية التأويل، ص 156.

والحقيقة هي ان في هذا الموقف الذي ذهب اليه ابن تيمية تعميما، لأن هناك أمورا كثيرة تتعلّق بغير المسائل الغيبية تحتاج الى تأويل واجتهاد وتدبّر. يذهب الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور الى أن الله دعانا الى بذل الجهد في تدبّر معاني القرآن واستخراجها «بل هو آيات بيّنات في صدور الذين أوتوا العلم»[57] إذ يقول «فلا مانع من التكليف باستقصاء البحث عنه (أي المراد الالهي) بحسب الطاقة ومبلغ العلم مع تعذّر الاطلاع على تمامه[58]». ورأى الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور أن تأويل القرآن ينبغي أن يكون مرتبطا بمقاصده، وهي في نظره تتلخص في الأمور التالية: اصلاح الاعتقاد، وتهذيب الاخلاق، والتشريع، ونظام الامة، والموعظة والاعتبار[59]. ولهذا فإن اتساع الاجتهاد يكون بالبحث في المقاصد. فالتأويل أمر لا بدّ منه في نظر الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور: «وقد أراد الله تعالى أن يكون القرآن كتابا مخاطبا به كل الامم في جميع العصور، لذلك جعله بلغة هي أفصح كلام بين لغات البشر وهي اللغة العربية لأسباب يلوح لي منها: إن تلك اللغة أوفر اللغات مادة وأقلها حروفا وأفصحها لهجة وأكثرها تصرفا في الدلالة على أغراض التكلم وأوفرها ألفاظا وجعله جامعا لأكثر ما يمكن ان تتحمله اللغة العربية في نظم تراكيبها من المعاني[60]». فقد سوّغ ابن عاشور التأويل بعموم الرسالة، واتساع لغة العرب التي جعلها سببا من أسباب مواكبة النّص لحركة الزمان والمكان. فهي التي تسمح بذلك انطلاقا من طبيعتها،

---

(57) العنكبوت 49. راجع ابن عاشور محمد الطاهر في مسألة تدبّر معاني القرآن التحرير والتنوير 94/1.

(58) انظر ابن عاشور محمد الطاه، التحرير والتنوير 39/1.

(59) م.ن 39/1 ـ 41.

(60) م.ن 98/1.

وانطلاقا من منهج التأويل الذي أملته اللغة، وطبيعة النّص القرآني الذي اشتمل على الكليات دون الجزئيات.

ذهب الزركشي[61] الى أن التأويل ليس محظورا على العلماء، مستدلا على ذلك بقوله تعالى : «وابتغاء تأويله». والوقف في الآية المذكورة آنفا يكون عند «والراسخون في العلم» ولولا أن له تأويلا سائغا لم يبيّنه سبحانه. وأما التأويل المخالف للآية والشرع فمحظور - في نظره - لأنه تأويل الجاهلين، مثل تأويل الروافض لقوله تعالى : «مرج البحرين يلتقيان» انهما علي وفاطمة «يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان» يعني الحسن والحسين. كما رأى الزركشي ان ما أدّى الى التأويل، انما هو وجوب حمل الكلام على خلاف المفهوم من حقيقة، لقيام الأدلة على استحالة المشابهة والجسمية في حق الباري تعالى، وأنه ليس بين المعقول والمنقول تغاير في الأصول، بل التغاير إنما يكون في الألفاظ واستعمال المجاز لغة العرب «وانما قلنا لا تغاير بينهما في الاصول لما علم بالدليل أن العقل لا يكذّب ما ورد به الشرع اذ لا يرد الشرع بما لا يفهمه العقل»[62].

والجدير بالملاحظة أن أقوال العلماء في معظمها تذهب الى اعتماد التأويل قال أبو الدرداء. رضي الله عنه : «لا يفقه الرجل حتى يجعل للقرآن وجوها»[63] وقال ابن مسعود : من أراد علم الأولين والاخرين فليثوّر القرآن[64]». وقال ابن سبع في شفاء الصدور : «هذا الذي قاله أبو

---

(61) انظر الزركشي، البرهان 167/2.
(62) م.ن 91/2.
(63) م.ن 171/2.
(64) م.ن 171/2.

الدرداء وابن مسعود، لا يحصل بمجرد تفسير الظاهر[65]. كما اعتمد القائلون بالتأويل على الحديث الذي ورد في شأن ابن عباس : «ألّهم فقهه في الدين وعلّمه التأويل»[66]. وقد أورد الزركشي في البرهان أن بعض أهل الذوق قال : القرآن نزول وتنزّل فالنزول قد مضى، والتنزل باق الى قيام الساعة[67]، والمقصود بالتنزل هو تأويل القرآن اعتمادا على علاقة اللفظ بالمعنى وخصوصيات اللغة العربية.

وقد استنتج الزركشي[68] من هذه الاقوال التي أوردها أن في فهم معاني القرآن مجالا رحبا ومتسعا بالغا. كما رأى[69] أن الإحاطة بنظام التفسير، وهو معنى الالفاظ في اللغة، ضرورية ولا بدّ من تجاوز هذا المستوى لفهم حقائق المعاني. وبالتالي هناك اشتراك في معرفة الظاهر، واختلاف في معرفة الباطن، أو حقائق المعاني. ولهذا ليس غريبا ان اعتبر الزركشي التأويل احتمالا تسوغه اللغة من خلال علاقة اللفظ بالمعنى، وأصبحت بعض الألفاظ تدور على معنى التأويل من مثل المشكل والمتشابه والخفي والباطن. فقد فهم المحكم مثلا على أنه الواضح البيّن الذي لا يحتاج الى تأويل، وفهم المتشابه على أساس أنه الغامض الذي يحتاج الى تأويل.

التأويل في علاقته باللفظ : لقد شكل اللفظ داخل النص ظاهرا بشوي وراءه باطن، وتنزيلا يحتاج الى تأويل، وإشارة تختفي وراءها حقيقة. وهذه الأوجه كلها تمثل سلطة اللفظ، أو ما يعبّر عنه بلغة الفلاسفة

(65) م.ن. 171/2.
(66) رواه البخاري في صحيحه 48/1.
(67) انظر الزركشي 187/2.
(68) م.ن. 171/2.
(69) م.ن. 172/2.

الوجود بالقوة الذي ينبغي أن يخرج الى حيّز الوجود بالفعل، من خلال عملية التأويل. وهذا يعني أن اللغة العربية لها دور كبير في تشكيل الفكر الديني عموما، والعقل العربي على وجه الخصوص. فاللفظ باعتباره نظام خطاب، قد ساهم في تأسيس الفكر. يذهب الإمام أبو حامد الغزالي الى أن المتكلمين قد أعطوا سلطة للفظ على المعنى، وبذلك أعطوا سلطة للغة اذ يقول : «واذا أنت أمعنت النظر واهتديت السبيل عرفت قطعا أن أكثر الأغاليط نشأت من خلال من طلب المعاني من الألفاظ. ولقد كان من حقّه ان يقرر المعاني أولا ثم ينظر في الألفاظ ثانيا ويعلم أنها اصطلاحات لا تتغيّر بها المعقولات»[70]. وبهذا المعنى رسّخ الغزالي فكرة أن التأويل ينبغي أن يقوم على المبادئ التي يؤمن بها المتكلم أولا. فهو يخضع اللغة الى معقولاته. وهذا شأن المتكلمين، أو بعبارة أخرى، شأن التأويل المذهبي.

إلا أن هناك من العلماء من تعاملوا مع الألفاظ وكأنها منجم للمعاني، وأخذوا يطلبون ما يريدون، أي ما يخضع لآرائهم ونظرياتهم سواء أكانت سياسية أم عقائدية أم فلسفية أم كلامية. والتأويل بهذا المعنى جعل الفاعلية العقلية تتركز في تطويع اللفظ لجعله يتضمن آراء المذهب. وبذلك أضحت عملية التأويل تحوّلا في الدلالة اللغوية من خلال الاتساع والاشتراك، والتضاد، والمجاز، مع استخدام عناصر أخرى لغوية.

- **التأويل والمجاز اللغوي** : لقد أبرز العلماء أن فنّ البيان من أهم الفنون التي لا يجوز أن يستغني عنها المتأول باعتباره أداة لفهم التراكيب وخواصّها. لذلك كثرت المؤلفات حول المجاز في القرآن من مثل كتاب

(70) الغزالي أبو حامد، الاقتصاد في الاعتقاد ص 78 ـ 79.

الشريف الرضى «تلخيص البيان في مجازات القرآن»[71] كما عرض ابن قتيبة من قبله في كتابه : «تأويل مشكل القرآن» نماذج من استعارات القرآن ملأت حيّزا لاباس به من مؤلفه. ولعل الجاحظ (المتوفي 255 هـ) هو أول من استعمل المجاز في القرآن بالمعنى المقابل للحقيقة. فهو في مواطن متفرقة من كتابية : «الحيوان» و «البيان والتبيين» يشير الى المجاز والاستعارة اشارات تعد أول ما سجّل منهما بالمعنى البياني في المؤلفات العربية، حتى ليعد الجاحظ بذلك أول رائد للبلاغة العربية بمعناها الاصطلاحي[72].

وقد وقف العلماء من المجاز موقفين متناقضين. فريق ذهب الى اثباته في اللغة والقرآن وهم الاكثرية. وأما المنكرون - وعلى رأسهم الظاهرية - فشبهتهم تتمثل في أن المجاز غير الحقيقة. فهو بمثابة الكذب، والقرآن منزّه عن الكذب، وبالتالي فليس فيه مجاز. كما ان المتكلم لا ينصرف عن الحقيقة الى المجاز إلا اذا ضاقت به الحقيقة، أو عجز عن التعبير بها فيستعير. وذلك محال على الله تعالى القادر المنزه عن العجز. وقد ردّ على هذه الشبهة كثير من العلماء، نعتقد أن أسبقهم ابن قتيبة (المتوفي في سنة 276 هـ) إذ يقول ما نصّه : «ولو كان المجاز كذبا ... كان أكثر كلامنا فاسدا لأنّا نقول : نبت البقل، وطالت الشجرة، وأينعت الثمرة، وأقام الجبل، ورخص السّعر. ونقول كان هذا الفعل منك وقت كذا وكذا والفعل لم يكن

(71) وهو كتاب في تأويل مجازات القرآن وتوضيح أساليبه والكشف عن أسرار البلاغة فيه. عمد فيه صاحبه الى استخراج الآيات التي فيها مجاز بياني من السور وكشف عن وجوه هذا المجاز مستعملا عبارة : «وهذه استعارة» بعد كل آية يوردها. فهو بمثابة التفسير للآيات المجازية - انظر النسخة التي حققها محمد عبد الغني حسن. دار احياء الكتب العربية القاهرة ط 1. 1955.

(72) راجع مقدمة محمد عبد الغني حسن في تحقيقه لكتاب : «تلخيص البيان في مجازات القرآن» دار احياء الكتب العربية - القاهرة ط1. 1955 ص 10.

وانما كُوّن.[73]. وكذلك جلال الدين السيوطي (المتوفي سنة 911 هـ) حيث يقول ما نصه : «وهذه شبهة باطلة. ولو سقط المجاز من القرآن سقط منه شطر الحسن. فقد اتفق البلغاء على أن المجاز أبلغ من الحقيقة، ولو وجب خلو القرآن من المجاز وجب خلوه من الحذف، والتوكيد، وتثنية القصص، وغيرها[74]. واذا كان المجاز واقعا في اللغة، فلا شكّ أنه واقع في القرآن، لأنّه نزل بلسان عربي.

ومن أشدّ العلماء طعنا على القائلين بالمجاز ابن القيم في كتابه : «الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، الذي اختصره محمد الموصلي. فقد بنى كتابه هذا على أن الطواغيت ثلاثة : طاغوت التأويل وطاغوت تقدم العقل على النقل وطاغوت المجاز. فقد أنكر تقسيم الكلام الى حقيقة ومجاز، ورأى أنه محض اصطلاح أحدثه بعض المتأخرين «وكان منشؤه من جهة المعتزلة والجهمية ومن سلك طريقهم من المسلمين»[75]. ولا شك أن قضية الخلاف بين العلماء في مسألة المجاز مردها أيضا الى مواقفهم من اللغة : هل هي اصطلاح ومواضعة أو توقيف ؟ فالطاعنون في المجاز هم الذين يذهبون الى القول بالتوقيف. فقد أنكر ابن القيم المواضعة في اللغة[76]. كما أنكر ابن تيمية بدوره المجاز لأنه أنكر التأويل. وممن وقف موقفا متوسطا في قضية المجاز، بل هو أقرب الى رفض التأويل، ابن حزم الذي يرى أنه لا يحلّ صرف لفظة معروفة المعنى في اللغة عن معناها الذي وضعت له في اللغة التي بها خاطبنا الله تعالى في القرآن

(73) انظر ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن ص 132.

(74) السيوطي (جلال الدين) الاتقان في علوم القرآن، طبعه محمود توفيق، القاهرة 1352 هـ 36/2.

(75) ابن قيم الجوزية، الصواعق المرسلة في الردّ على الجهمية والمعطّلة، تصحيح زكريا علي يوسف، مطبعة الإمام، مصر 1380 هـ، ص 243.

(76) م.م. ص 244.

الى معنى غير الذي وضعت له، الا أن يأتي نص قرآن، أو كلام عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو اجماع من علماء الامّة كلها على أنها مصروفة عن ذلك المعنى الى غيره، أو يوجب صرفها ضرورة حسّ، أو بديهة عقل، فيوقف حينئذ عندما جاء من ذلك[77].

فواضح ان الضوابط التي يعتمدها ابن حزم في التأويل انما هي النّص أولا، ثم الاجماع، ثم بعد ذلك الحسّ ثم العقل. وهذا يعني أنه لا ينبغي اللجوء الى العقل الا بعد المرور بالمسالك الأخرى. وهكذا يضع ابن حزم سلطة النّص الديني في المرتبة الأولى.

ويجدر بنا، ونحن نتحدث عن علاقة التأويل بالمجاز، أن نعرّف المجاز ليحصل الفرق بينهما. فالمجاز هو صرف اللفظ عن مدلوله الحقيقي الى المجاز. وفي الحمل على المجاز تأويل، ولهذا أخطأ بعضهم عندما ذهب الى أن التأويل هو خروج اللفظ عن معناه الحقيقي الى معنى مجازي تدل عليه قرينة، لأن التأويل أوسع من ذلك، وهو يستخدم المجاز كآلية من آلياته. فقد كان الزمخشري يعتمد على المجاز العقلي في تأويل آيات لا تحتاج الى تأويل، ولا الى حمل على المجاز لتخريجها وفق الأصول الاعتزالية[78]. وذهب ابن قتيبة الى أن تأويل المشكل في القرآن وفي الحديث - أيضا - يقتضي معرفة أبواب المجاز، لأنه يعتبر ان أكثر غلط المتأولين من جهته[79].

وباب المجاز في نظره واسع في اللغة العربية. يقول ابن قتيبة في هذا المعنى: «وللعرب مجازات في الكلام ومعناها طرق القول ومآخذه. ففيها الاستعارة والتمثيل والقلب والتقديم والتأخير والحذف والتكرار

---

(77) انظر ابن حزم، الفصل، مكتبة خياط، بيروت 50/3.

(78) انظر على سبيل المثال تفسيره لقوله تعالى: «وكلّم الله موسى تكليمًا»، الكشاف، دار المعرفة، لبنان 314/1.

(79) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن ص 102.

والإخفاء والإظهار والتعريض والافصاح والكناية والايضاح ومخاطبة الواحد مخاطبة الجميع والجميع خطاب الواحد والواحد والجميع خطاب الاثنين، والقصد بلفظ الخصوص لمعنى العموم وللفظ العموم لمعنى الخصوص مع أشياء كثيرة ...»[80].

وتجدر الاشارة في هذا السياق الى أن ضوابط التأويل عند العلماء المسلمين مرتبطة بثقافة المؤول، وتتغير بتغير الزمان والمكان وحركة المجتمع. فإن كان ابن حزم قد قنّن التأويل بالنّص، سواء أكان قرآنا أم سنة، وبالاجماع، ثم جعل بعد ذلك الضرورة الحسية والعقلية، فان بعض العلماء قد قيّدوه بمواضعات اللغة، الى أن أصبحت ضوابط التأويل تعتمد أساسا على مقاصد الشريعة[81]. وهو ضرب من الاتساع يُمكّن من توسيع عملية الاجتهاد ذاتها. وقد وجدت الشيخ عبد العزيز الثعالبي يدعو الى تأويل القرآن تأويلا انسانيا واجتماعيا، وذلك من خلال ربطه بالواقع المعيش[82]. وقد رأى عبد القادر الجرجاني في المجاز آلية هامة، بها يكشف عن معنى المعنى، أي عمّا هو خفي، والانتقال من المعنى الى معنى المعنى يقع عن طريق التأويل الذي أصبح في حقيقة الامر عنده استدلالا عقليا[83].

وهو المنحى الذي ذهب اليه الزركشي عندما قال : «وأما المعاني التي تحتملها الألفاظ فالأمر في معاناتها أشدّ لأنها نتائج العقول»[84]. فقد أصبح التأويل ضربا من الترجيح للمعنى اعتمادا على الأدلة العقلية، من

(80) م.ن. ص 20 ـ 21.

(81) انظر الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور في التحرير والتنوير 1 / 39 ـ 40.

(82) انظر روح التحرر في القرآن. دار الغرب الاسلامي ط 1. 1985 ص 118.

(83) الجرجاني، (عبد القاهر). دلائل الاعجاز. تحقيق محمود محمد شاكر. مكتبة الخانجي القاهرة 1984 ص 262 ـ 263.

(84) الزركشي البرهان. 191/2.

مثل : كل شيء يوهم الكفر والتجسيم لا يضاف الى الباري لا حقيقة ولا مجازا. ففي قوله تعالى : «واصْنع الفلك بأعيننا»[85] يكون التأويل للفظ «بأعيننا» على معنى في رعاية منّا وحفظ. بل تجاوز التأويل هذا المستوى ليصبح قائما على قراءة اجتهادية تحتاج الى خبرة، وترتكز على العقل لاستكشاف الكلي والمقصد من أجل النفاذ الى أعماق النّص وسبر أغواره. يقول الاستاذ التهامي نقرة ما نصه : «ثم ان التأويل بمعناه الاصطلاحي عند المتكلمين والأصوليين يحتاج الى خبرة وتدقيق للوصول الى أعماق النّص فهو كالنقد الداخلي له ... لأن الالفاظ المؤولة تكاد تكون أحيانا رموزا في حاجة الى معرفة ما وراءها بنفاذ الادراك وسعة الافق الذهني، لذلك لم يظهر التأويل الا في مرحلة تمت فيها الثقافة وازدهرت فكان متأخرا عن التفسير في الظهور»[86]. وبهذا المعنى، أصبح النّص الديني نصا مفتوحا، متحررا عبر طاقة اللفظ واحتماله، مبنيا على الاستنباط والدراية والباطن. وبمعنى آخر أصبح مشروعا آلة استثمار العقل.

يرى الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور أن لعلماء الأمة مزيّة الاستنباط، وإلا فإن الله قادر أن يجعل القرآن أضعاف هذا المنزّل، وأن يطيل عمر النبي للتشريع أكثر[87].

والحديث عن ضوابط التأويل، قد أدى بالعلماء الى تقسيم التأويل الى نوعين : تأويل منقاد أو محمود، وتأويل مستكره أو مذموم. يقول الراغب الاصفهاني : التأويل المنقاد هو الذي لا يجافي منطق اللغة، ولا ينأى عن دلالتها، والتأويل المستكره هو الذي يلوي فيه المؤول النّص حتى

(85) هود 37.
(86) نقرة (التهامي)، الاتجاهات السنية والمعتزلية في تأويل القرآن، دار القلم 1982 ص 19.
(87) انظر الشيخ محمد الطهر ابن اشور، التحرير، والتنوير 50/1.

يوافق هواه، ويسير مع رغباته[88]. وبذلك جعل الراغب المقياس اللغوي محددا لنوع التأويل.

ويجدر بنا، ونحن نتحدث عن علاقة اللغة بالفكر الديني من خلال التأويل، ان نتحدث عن المجالات التطبيقية للتأويل في الفكر العربي الاسلامي.

- **التأويل الفلسفي** : عرف التأويل في الفكر الفلسفي الاسلامي من خلال مسألة التوفيق بين الحكمة والشريعة. فالكندي يذهب الى أنه لا اختلاف بين المعرفة العقلية والمعرفة الدينية الا على مستوى الشكل. فغرض العقل هو تأييد ما أتى به الوحي وتأويله[89]. وقد أول الفارابي المعارف الشرعية تأويلا فلسفيا. فالنبوة تفسر - عنده - بأنها اتصال بالعقل الفعال عن طريق المخيلة، فتنكشف بذلك المعارف الالهية انكشافا[90]. وذهب ابن سينا الى تأويل ملكة النبوة تأويلا فلسفيا مرجعا اياها الى فعل العقل الهيولاني دون الخيال[91]. وتجدمسألة التأويل البرهاني بارزة للعيان عند ابن رشد الذي يرى أن هناك اتصالا بين علوم الشريعة والعلوم الفلسفية، لأن الفلسفة في ماهيتها هي النظر في الموجودات، واعتبارها من جهة دلالتها على الصانع[92]. والشرع حثنا على النظر في المصنوعات، وبالتالي

---

(88) الراغب الاصفهاني، مقدمة التفسير. ملحق بكتاب تنزيه القرآن عن المطاعن ص 402 - 403.

(89) انظر الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، التحرير 34/1.

(90) مدكور، ابراهيم بيومي، في الفلسفة الاسلامية، منهج وتطبيقه - ط 2 منقحة، دار المعارف، مصر 1976 76/1 - 77.

(91) م.ن.ص 107 - 108.

(92) انظر ابن رشد، فصل المقال، ص 22 - 23.

دعانا الى النظر العقلي في الموجودات[93]. لذلك نجد ابن رشد يوجب التماس تأويل ما لا يتفق من الامور الدينية مع النظر العقلي. فظاهر الشرع يقبل التأويل حتى لا يصطدم مع النقل. يقول في هذا لمعنى ما نصه : «وكل منطوق به في الشرع يأتي ظاهره مخالفا لما أدى اليه البرهان وجب تأويله»[94]. والشريعة في نظره تنقسم الى ظاهر وباطن لاختلاف الناس في الفطر والعقول. وأقدر الناس على التأويل هم أهل البرهان الذين يختصّون بعمق النظر وصحة العقيدة وسموّ الأخلاق[95]. والتأويل عند ابن رشد هو «اخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية الى الدلالة المجازية من غير أنّ يخلّ في ذلك بعادة لسان العرب في التجوز من تسمية الشيء بشبيهة أو بسببه أو لاحقه أو مقارنه أو غير ذلك من الأشياء التي عودت في تعريف أصناف الكلام المجازي»[96]. لقد اعتبر ابن رشد التفلسف، في جانب أساسي منه، تأويلا وعبورا من المجازي الى البرهاني[97].

- **التأويل الباطني** : وهو التأويل الذي نجده عند غلاة علماء الشيعة، وهم المعروفون بالتعليمية[98]. فالباطن عندهم لا يعرف إلا بمعلم إمام. لذلك نجدهم قد حكموا أهواءهم، وصرفوا ألفاظ القرآن عن ظواهرها، فأصبحت الألفاظ عندهم رموزا لمعان خفيّة لا يعلمها إلا الإمام المعصوم. وأدّى بهم هذا المنهج المختل الى نفي حقائق الدين، واختراق

(93) م.ن. والصفحة نفسها.

(94) ابن رشد فصل المقال، ط 3 بيروت ص 35 ـ 36.

(95) م.ن ص 32.

(96) م.ن. ص 32.

(97) المنصف عبد الحق، مقال : مفارقات الخطاب الفلسفي بين الاستعمال المفاهيمي للغة والاستعمال الاستعاري، مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد 100 ـ 101 / 1993 ص 23.

(98) راجع الاصفهاني، أبو الثناء شمس الدّين، مطالع الانظار ص 71 ـ 72.

مواضعات اللغة وحدود البيان العربي، واحتكار الحقيقة، واغتيال العقل. وقد أنكر عليهم أبو حامد الغزالي هذا المنهج، وذهب في كتابه «القسطاس المستقيم» الى أن الخطاب القرآني يعتمد في الاستدلال موازين العقل البشري، وهي عنده ثلاثة تؤول كلها الى القياس المنطقي. وبالتالي، فإنه ليس وراء ظاهر القرآن باطن يحتاج في معرفته الى معلم «ان طريق الحق أن تتعلم كيفية الوزن (طريقة تركيب القياس) وتستوفي شروطه، فان أشكل عليك شيء عرضته على الميزان وتذكرت شروطه بفكر صاف وجدّ واف فاذن أنت مبصر»[99].

- **التأويل الصوفي أو العرفاني** : فهو نقل من الظاهر الى الباطن باعتماد نوع من الاشارة. فقد فسّر أبو حامد الغزالي[100] لفظ «البيت» في قوله صلى الله عليه وسلم : «لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب ولا صورة» بالقلب، ولفظ «الكلب» بالصفات الرديئة كالغضب والشهوة والحسد والحقد والعُجب. فهي كلاب نابحة في القلب، فلا تدخله الملائكة، وهو مشحون بها، حتى أن ابن العربي في كتاب «العواصم» - بعد أن أثنى على الغزالي في تصديه للردّ على الباطنية والفلاسفة - قال : «وقد كان أبو حامد بدرا في ظلمة الليالي وعِقْدًا في لَبّة المعالي حتى أوغل في التصوف وأكثر معهم التصرف فخرج عن الحقيقة وحاد في أكثر أقواله عن الطريقة[101]». فهو يتخذ العبارة القرآنية جسرا لمعنى أو معان جاهزة لديه. وأهل العرفان يستعينون في مجال استنباط المعنى بالرياضات والمجاهدات، ويرددون اللفظ بألسنتهم وقلوبهم، الى أن تنفجر ينابيع المعرفة. ولهذا يقول أبو طالب المكي شارحا التأويل العرفاني : «فاذا

(99) الغزالي، أبو حامد القسطاس ص 79.

(100) انظر ابن عاشور محمد الطاهر. التحرير 35/1.

(101) م.ن. 35/1.

كان العبد ملقيا السمع بين يدي سميعه مصغيا الى سرّ كلامه شهيد القلب لمعاني صفات شهيده ناظرا الى قدرته تاركا لمعقوله ومعهود عمله متبرئا من حاله وقوته معظما للمتكلم واقفا على حضوره مفتقرا الى الفهم بحال مستقيم وقلب سليم وصفاء يقين وقوة علم وتمكين سمع فصل الخطاب وشهد علم غيب الجواب»[102].

- **التأويل الكلامي أو البياني** : لقد استخدم المتكلمون، معتزلة وأشاعرة، التأويل من خلال المواضعة اللغوية، وبالتحديد من خلال المجازات اللغوية، وذلك اعتمادا على أقيسة منطقية تقوم على إثبات المخالفة بين الخالق والمخلوق في الذات والصفات من أجل إقرار التنزيه ونفي التشبيه والمثلية، كما استخدموا قياس الغائب على الشاهد. فالمعتزلة - مثلا - استخدموا آلية التأويل لنقل المعنى اللغوي في الآيات المتشابهات التي تفيد التجسيم الى معنى مجازي يفيد التنزيه. والأشاعرة استخدموا التأويل من خلال اللزوم البياني الذي يعبّر عن مبدأي التجويز والامكان. فاسم الارادة - مثلا - انما يطلق على من يقدر ان يفعل الشيء وضدّه، لانه اذا لم يحدث القول بأن الموجودات جائزة، لم يكن مستساغا القول بوجود فاعل مريد، حتى لا تشارك هذه الموجودات الصانع في الارادة. كما استخدموا التأويل من خلال مبدإ الاستحالة : يرى الامام أبو حامد الغزالي أن كل ما قضى العقل باستحالة، فيجب تأويل ما ورد السمع به، ولا يتصور ان يشتمل السمع على قاطع مخالف للعقول[103]. ومما تجدر ملاحظته أن التأويل الذي يمارسه المتكلمون لا يمكن التوصل اليه، الا بعد معرفة معتقد المتكلم. ولهذا، فالمجاز يعود عندهم الى قصد المتكلم. فقد استخدم المعتزلة التأويل

(102) المكي (أبو طالب) قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد الى مقام التوحيد، القاهرة 1933، 69/1.

(103) الغزالي، أبو حامد الاقتصاد في الاعتقاد ص 132 - 133.

لنقل المعنى اللغوي في الآيات المتشابهات التي تفيد التجسيم الى معنى مجازي يفيد التنزيه. لذلك فقد رأوا في قوله تعالى : «وكلّم الله موسى تكليما»[104] ان «كلّم» من الكَلْم بمعنى الجرح، وليس من الكلام، لأن هذا الفهم يؤدي الى التشبيه. وبذلك يكون المعنى جرّح الله موسى بأظفار المحن ومخالب الفتن[105]. كما فسروا قوله تعالى : «واتخذ الله ابراهيم خليلا»[106]، أي فقيرا الى رحمة ربّه، لأن الله عندهم لا يكون خليلا لأحد. في حين قبل الاشاعرة المعنى كما يفيده ظاهر النّص.

وقد ينقلب هذا التأويل عند المتكلمين الى موقف ايديولوجي سجالي. فقد بلغ الادعاء بالمعتزلة - مثلا - الى تحقير خصومهم من أهل السنة، ورميهم بالأوصاف المقذعة. ففي تفسير قوله تعالى : «ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعدما جاءهم البيّنات»[107] - والآية واردة في حق اليهود والنصارى - ذهب الزمخشري الى جعلها منسحبة على خصومه، اذ قال : «قيل هم مبتدعو هذه الأمة وهم المشبهة والجبرية والحشوية وأشباههم[108]».

وهكذا، بعد عرضنا لأنواع التأويل التي مارسها الفكر الاسلامي، يتضح لنا أن الدلالة التأويلية تتحول من دلالة البرهان، الى دلالة الجدل والبيان الى دلالة العرفان. وبالتالي، ينتقل التأويل من حقل اللفظ، الى حقل المعنى، ومن حقل الظاهر الى حقل الباطن من خلال المجازات اللغوية في أغلب الأحيان، مع المبالغة أحيانا في التعسّف على اللغة، ممّا يؤدي الى السقوط في التأويلات الايديولوجية المرذولة.

---

(104) النساء 164.

(105) الزمخشري، الكشاف، دار المعرفة - لبنان 314/1.

(106) النساء 125.

(107) آل عمران 105.

(108) الزمخشري، الكشاف، دار المعرفة لبنان 209/1.

وقد رأيت من متعلّقات هذا البحث ذكر بعض الامثلة من العلوم التي ظهرت في الثقافة العربية الاسلامية مرتبطة ارتباطا وثيقا بمواضعات اللغة. من ذلك - مثلا - علم أصول الفقه. فهو مبني - في أساسه - على استثمار ألفاظ النصوص الدينية، ومباحثه في أغلبها مستعارة من علوم اللغة. يقول الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور: «ان علم الأصول قد أودعت فيه مسائل كثيرة هي من طرق استعمال كلام العرب وفهم موارد اللغة»[109]. ويقول ابن خلدون في الفصل الذي عقده حول علم أصول الفقه: «ثم بعد ذلك يتعيّن النظر في دلالة الألفاظ وذلك ان استفادة المعاني على الاطلاق من تراكيب الكلام على الاطلاق يتوقف على معرفة الدلالات الوضعية مفردة ومركّبة والقوانين اللسانية في ذلك هي علوم النحو والتصريف والبيان»[110] وغير خاف أن القياس في حدّ ذاته، هو قياس ما ليس فيه نصّ، بناء على العلّة المرتبطة بمفهوم اللفظ. والاستنباط هو اجتهاد في المعنى، أي أنه تأويل. وكذلك الشأن بالنسبة الى الفقه، يقول ابن خلدون عن هذا العلم: «وكان السلف يستخرجونها (أي الاحكام الفقهية) من تلك الأدلة على اختلاف فيما بينهم ولا بدّ من وقوعه ضرورة ان الأدلة غالبا من النصوص وهي بلغة العرب وفي اقتضاءات ألفاظها لكثير من معانيها اختلاف بينهم معروف»[111].

ان علما، كعلم مشكل القرآن، مؤسس في أصله على مواضعات اللغة. فقد أثار ابن قتيبة مسألة مشكل القرآن الذي يندرج ضمنه المتشابه من خلال علاقة اللغة العربية بالنّص القرآني. ولهذا فان مشكل القرآن في - نظره - لا يستطيع تأويله إلا من كثر نظره، واتسع علمه، وفهم

(109) ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير 26/1.

(110) ابن خلدون، المقدمة دار الجيل، بيروت ص 503.

(111) م.ن ص 494.

مذاهب العرب وافتنانها في الأساليب، وما خصّ الله به لغتها دون جميع اللغات، فانه ليس في جميع الأمم أمة أوتيت من العارضة والبيان واتساع المجال ما أوتيته العرب»[112]. وقد ذهب ابن قتيبة الى أن أكثر غلط المتأولين في هذا العلم يعود الى المجاز[113]. وان علم الخلاف - كما ذهب الى ذلك ابن خلدون - قد نشأ نتيجة الاختلاف في فهم مستويات اللغة[114]. كما أن علم الجدل قد ظهر في حقيقة الامر بناء على ما تسمح به اللغة من مجال واسع في التأويل، واستنباط المعاني وصوغها بطريقة منطقية[115].

أما علم التفسير - وخاصة في جانبه القائم على الرأي - فان تعدد مدارسه وتنوعها يرجع أساسا الى عملية التأويل.

لقد شكل التأويل أداة منتجة للثقافة العربية الاسلامية عبر ما تسمح به اللغة. كما مكّن من جعل النّص الديني نصّا مفتوحا، ومستوعبا لحركة الزمان والمكان، وحركة المجتمع، وهو ما يعنيه القول المأثور: «ان القرآن لا تنقضي عجائبه». فالنّص الديني، سواء أكان قرآنا أم سنّة، أصبح يمثل من خلال عملية التأويل الذي تسمح به اللغة، فضاء دلاليا تتسع مجالاته بتنوع القراءات التأويلية المبنية أساسا على مواضعات اللغة، واقتضاءاتها وخاصة ما يتعلّق بالجانب الاستعاري منها، الذي أعطى خصوبة للفكر الديني خاصة، وللثقافة العربية الاسلامية عامة.

---

(112) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن ص 12.

(113) م.ن. ص 102.

(114) ابن خلدون، المقدمة ص.

(115) راجع علي الشابي، الجدل المذهبي في الفكر الاسلامي، مقال مقاربة منهجية في تاريخية الجدل المذهبي في الفكر الاسلامي، في سلسلة آفاق اسلامية عدد 5 ص 10.

وبما تجدر ملاحظته في نهاية هذا البحث أن اللغة بقدر ما أسهمت في تشريع الفكر الديني من خلال التأويل، وخاصة بفضل خصوبه حقلها المجازي، فان الفكر الديني - بدوره - قد أسهم أيما إسهام في إثراء المباحث اللغوية.

وإنك لواجد التبحّر في علوم اللغة والبيان، وعمق التحليل، ودقة الاستنباط، في البحوث الكلامية، وخاصة عند المعتزلة. ولهذا ذهب البعض الى أن الباعث على مبحث المجاز في البلاغة العربية إنما هو علم الكلام.